الأدب العربي الأندلسي بين التقليد والإبداع

أ. د. علي دياب

توقف كثير من الباحثين والدارسين عند الأدب العربي الأندلسي بشعره ونثره، ونظروا إليه على أنّه محاكاة للأدب العربي المشرقي، وتقليد له ليس أكثر، وذهب فريق آخر من الباحثين ليدحض هذه النظرة، ويعد الأدب العربي الأندلسي ذا سمات خاصة وليس تقليداً لأدب المشارقة، وذكر أصحاب هذا الفريق أدباء كباراً لايقلون عن أدباء المشرق العربي.

وهنا يذكر هنري بيريز في كتابه الشعر العربي الأندلسي الكلاسيكي أنّه بدأت أجيال أندلسية تضاهي الكثير من الأعلام والشعراء والأدباء في المشرق، ويورد قول المراكشي في ابن زيدون: «أبياته الغزلية تنسينا كثيّر عزّة، وهي كذلك تبزّ مديح زهير بن أبي سلمى، وعندما يبسط زهوه وخيلاءه يحلق فوق امرئ القيس»[1].

---

(1) بيريز، هنري: الشعر العربي الأندلسي الكلاسيكي:٤٦

فقول المراكشي عن ابن زيدون صحيح، وهنا لابد لنا من الأخذ بعين الاعتبار الفترة التي يتم فيها تناول هذا الأديب أو ذاك، ففي البدايات الأولى للوجود العربي، التي أعقبت فتح الأندلس ومن ثم عصر الولاة الذي عرف بعض الشعراء الذين وصل إلينا إنتاجهم مثل جعونة بن الصمة وأبي الخطار حسام بن ضرار، وكذلك ما نسب إلى طارق بن زياد من شعر أو خطبته المشهورة، والشيء نفسه يمتد زمنياً إلى عهد الإمارة وفترة حكم عبد الرحمن الأوسط التي استمرت حتى عام /٢٣٨/ للهجرة وتصدر هذه الفترة شعراء كثيرون أهمهم الأمير عبد الرحمن الأول أو الداخل الملقب بصقر قريش، وعاصم بن زيد التميمي ثم العبادي الملقب بأبي المخشي، وأبو المعري عباس بن ناصح الثقفي الجزيري، وأبو العاصي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الملقب بالربضي وحسّانة التميمية بنت الشاعر أبي المخشي، فشعر كل هؤلاء يعد شعراً مشرقياً بامتياز، إلا أنّه قيل في أرض الأندلس، وذلك لما تميز به هذا الشعر من سمات عرفها الشعر المشرقي من حيث متانة السبك والفروسية والخشونة المستمدة من طبيعة المشرق العربي، بينما نجد في المراحل المتأخرة ظهور السمات الأندلسية الخالصة في الشعر وذلك لتأثرها بالطبيعة الأندلسية الجديدة واختلافها عن البيئة المشرقية.

بالتأكيد، لا يمكننا أن نتناول هذا الأمر على هذا النحو أو ذاك من الصرامة، ونقول: إنّ الأدب منذ فتح الأندلس وحتى تاريخ محدد هو أدب مشرقي!! ومن بعد هذا التاريخ أصبح أدباً أندلسياً ولم يعد ثمة علاقة له بالأدب المشرقي؟ إذ لم ينقطع التواصل بين الأدبين والتأثر بل والتأثير المتبادل بينهما، إلا أنّنا نرصد ظاهرة عرفها الأدب العربي الأندلسي ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا بالنسبة إلى المغرب العربي، ألا وهي النظرة إلى المشرق العربي وما تحمله من قداسة واحترام لأنّه المنبع والأصل، الذي انطلق منه الفكر والأدب باتجاه المغرب ومن ثم الأندلس، وهنا نجد أنّ بعض الأدباء المتأخرين يشيرون إلى ذلك ومنهم الأديب والفيلسوف صاحب طوق الحمامة أبو محمد بن حزم يقول من قصيدة يخاطب فيها قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشر يفخر فيها بالعلم:

أنـــا الشـــمس في جـــو العلـــوم مـــنيرة ولكـــــن عـــيبي أنّ مطلعـــي الغـــرب
ولـــو أنّـــني مـــن جانـــب الشـــرق طـــالعٌ لجـدّ علـى مـا ضـاع مـن ذكـري النهـب[١]

وهنا نلمح عند ابن حزم مكانة المشرق والتعلق بالنبع والأصول المشرقية وعدّ وجوده في المغرب بمثابة عيب، وفي ذلك إشارة واضحة إلى تلك الظاهرة التي أشرنا إليها، وبقيت هذه الحالة حاضرة لدى أدباء الأندلس، مما حدا ببعضهم لأن يمتعض منها ويدفع بهؤلاء للوقوف عندها ويأخذ على الأندلسيين موقفهم هذا من المشرق، ونورد مثالاً هنا ألا وهو أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، إذ أراد مؤلّفه هذا للرد على هذه المسألة وإفهام أهل بلاده أنّ عندهم مايعتزون به ويفاخرون فيه غيرهم! فيقول في ذخيرته في هذا الشأن:

«إلا أنّ أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة(٢)، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً وتلوا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصيّة ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ماوجدت من حسنات دهري، وتتبّع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة وتصبح بحاره ثماراً مضمحلّة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديماً ضيّعوا العلم وأهله، ويارب محسن مات إحسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان(٣)؟».

---

(١) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق١، م١: ١٧٣ .
(٢) قتادة بن دعامة السدوسي(٦١-١١٧هـ(٦٨٠-٧٣٦م) عالم بالقرآن والدين والفقه.
(٣) ابن بسام- الذخيرة ق١، م١: ١٢

ويذكر ابن بسام أنّه لم يعرض لما يؤيد وجهة نظره من أشعار الدولة المروانية، ولا المدائح العامرية ويستشهد بكتاب الحدائق لابن فرج الجيّاني معارضاً لـ " كتاب الزهرة " للأصبهاني، ولعلّ ابن بسام كان شديد التأثّر، وبالغ في الأخذ على أهل أفقه في تعلقهم بالمشرق، ولكنّه لايستطيع إنكار الوقائع التاريخية، والدور الهام الذي أداه القادمون من المشرق سواء مع جيوش الفتح أو في فترات لاحقة، وقد أشار المقّري في كتابه المعروف " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب "، وهو بصدد الحديث عمن رحل من المشرق إلى بلاد الأندلس ويقوم بإحصاء المعروف منهم إذ بلغ عددهم حوالي /٨٦/ ستة وثمانين شخصاً، ويذكر المقّري أنّ معظم الذين دخلوا الأندلس من المشرق، لم يدخلوها للغرض نفسه، الذي ذهب من أجله الأندلسيون إلى بلاد المشرق، وإنّما جاؤوا فاتحين ومبشرين، والمثقفون منهم أسند إليهم التوجيه والإرشاد للمقاتلين القادمين من المشرق، أو المنضمين لجيوش الفتح، وكذلك تعليم اللغة العربية ونشر الدين الجديد في تلك الأصقاع، كما قام المقّري بإحصاء الراحلين من الأندلس إلى المشرق فبلغ عددهم /٣٠٧/ سبعة وثلاثمئة، وخصّص تقريباً الجزء الثاني من نفحه لهذا الباب، وبالمقارنة بين الوافدين إلى الأندلس من المشرق والقادمين من الأندلس إلى المشرق يتبين لنا الفرق في ذلك، ويذكر لنا المقرّي قدوم المغني الفارسي المشهور زرياب وابنتيه عليّا وحمدونة وخادميه غزلان وهنيدة وتلميذته متعة(١) وقد استقبل في قرطبة وأمر له الأمير عبد الرحمن بن الحكم براتب جيد وأمر عمّاله أن يحسنوا إليه، وبعد استقراره قام بزيادة أوتار عوده وتراً خامساً أحمر متوسطاً فاكتسب به عوده ألطف معنى، وأكمل فائدة ،واتخذ ملوك أهل الأندلس وخواصهم زرياب قدوة لهم فيما سنّه من آداب، ومما أخذه عنه الأندلسيون هو تعليمه لهم كيف يفرقون شعورهم وسط الرأس، ويقصونها من الخلف حتى يظهر العنق ويبدو الجبين، في حين أنّهم كانوا يتركونها تغطي كل هذه الأماكن الجميلة، وقد أنشأ أول مدرسة في الأندلس لتعليم الموسيقى والغناء، وكان عماد هذه المدرسة أبناؤه وبناته وجواريه.

---

(١) بيريز، هنري، ذكر سابقاً: ٤١

ومن العلماء المشهورين الذين قدموا الأندلس من المشرق أبو علي القالي صاحب الأمالي والنوادر، وكذلك أبو العلاء صاعد البغدادي اللغوي، وأصله من الموصل فدخل قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر، وظنّ المنصور أنّه سينافس به أبا علي القالي الوافد على بني أمية، ومن الذين دخلوا الأندلس أيضاً: أبو الحسن الأنطاكي فكان بصيراً باللغة العربية والحساب وله حظ من الفقه، وقدم الأندلس أيضاً أحد الأولياء الصالحين واسمه سيدي يوسف الدمشقي، وهو شاذلي الطريقة، وقدم أيضاً من المشرق إلى الأندلس عدد من النساء منهن: عابدة المدنية وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة، وكذلك فضل المدنية وهي حاذقة في الغناء وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد، وكذلك قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي، والجارية العفراء ويصفها الأرقمي في أنّها لم تكن حسنة المظهر ولا جميلته، إلا أنّها مغنية بارعة، وهكذا نجد أنّه كان لمجموع الوافدين إلى الأندلس تأثير كبير في مختلف مجالات الحياة، وظل الأندلسيون يحاكون المشارقة في كل شيء، وبهذا الصدد يقول هنري بيريز:

«إنّ الثقافة الأدبية بدأت في إسبانيا بالشعر المشرقي، وفرضت أسلوباً استبدادياً على ذهن جميع الأندلسيين، فإذا أرادوا أن يميزوا، أو أن يخصوا أديباً أو شخصية ما، يعودون مباشرة إلى مايقابلها في ذاكرتهم الشرقية، فالمعتضد بن عبّاد قورن بالخليفة العباسي -أبو جعفر المنصور- والمعتمد بن عبّاد قورن بالواثق بالله، وذلك بسبب دقة ذكائه واتساع معرفته الأدبية(١)». وفي الإطار نفسه يقول بيريز أيضاً:

«إنّ ابن السّقاط قورن بحبيب (أبو تمام) وأبا عبد الله اللوشي بالبحتري، وأبا بكر بن قزمان يشبه بالمتنبي لأنّه يقلق أولاً من الأفكار، وابن حزم في رسالته عن أسبانيا يقارن ابن دراج ببشار بن برد وبحبيب (أبو تمام) وبالمتنبي، وابن طاهر (أبو عبد الرحمن) من مرسية يشبه الصاحب بن عباد، الشاعرة مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري فاقت الخنساء» ويتابع بيريز:

---

(١) المرجع نفسه: ٤٦

«إنّ الإعجاب بالشرق يترجم عند الإسبانيين في نزوتهم إلى إعطاء بعضهم بعضاً ألقاباً لشعراء أو فلاسفة شرقيين، إنّ الأصمعي في أسبانيا يعني محمد بن سعيد الزجالي، المتحدر من أصل بربري، وخنساء المغرب هي حمدة أو حمدونة بنت زياد المؤدب من قادس، وبحتري المغرب هو ابن زيدون صنوبري الأندلس هو ابن خفاجة، وابن الرومي الإسباني هو أبو عبد الله الرصافي، وأبو بكر المخزومي يدعى ابن سعيد «المعري الثاني»»(١)

وهكذا نجد أنّ التراث الشعري العربي ظلّ ماثلاً في وجدان الشاعر الأندلسي، وبقي الأندلسيون متميزين بحبهم ووفائهم، وربّما هذا يعود إلى ما تركه لهم الأوائل ولاسيّما عبد الرحمن الداخل ومن جاء بعده، إذ كانت قلوبهم في المشرق وأجسادهم في الأندلس، بينما نجد موقف المشارقة يختلف عن موقف الأندلسيين فاتصف بالإعراض وربّما يعود ذلك لسياسة بني العباس وموقفهم من الدولة الأموية في الأندلس، وهذا ماحدا بكثير من المشارقة للنظر إلى كل ما هو مغربي أو أندلسي نظرة لاتخلو من الازدراء والاحتقار.

ومن هنا يمكننا القول: إنّ أدباء الأندلس شعروا بضرورة الرد على هذه النظرة السلبية من المشارقة تجاههم، ولاسيّما أنّهم بلغوا مرحلة أصبحوا فيها يضاهون أدب المشرق، وذلك بعد أن كوّنوا أرضية متينة قامت على سعة الإطلاع وكثرة الرحلات، وربّما أثّر بداية تأسيس عبد الرحمن الداخل لدولته المستقلة سياسياً عن المشرق، وفي القرون اللاحقة تطور الفكر الأندلسي عامة والأدب خاصة، إلى أن اشتد عوده، وبدأ أدباؤه وكتابه إنتاجهم الثر يفخرون به، ويردّون من خلاله على ذلك الاستعلاء المشرقي إن صح التعبير، فهاهو ابن شهيد الأندلسي، يؤلّف رسالته: التوابع والزوابع، ليظهر تفوقه على نظرائه المشارقة وذلك بإبداعه لهذا النوع من القصص الخيالية، التي يبرز شخصيته من خلالها.

(١) المرجع نفسه: ٤٧

وبدأ الكثير من الكتاب والأدباء والمفكرين الأندلسيين في الغمز من قناة المشارقة، وانكبّوا على تأليف كتبهم المتميزة التي يضاهون من خلالها مؤلفات المشارقة، ومن هذه المؤلّفات: المقتبس لابن حيان، والذخيرة لابن بسام، وقلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان، والبديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل الحميري الإشبيلي، والحلّة السّيراء لابن الأبّار، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي، والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب وغيرها من مؤلفات كانت على قدر كبير من الأهمية، ولاتقل عن مؤلفات المشارقة وجاءت في مجملها لتؤكد الأصالة الأندلسية، وأنّها لم تعد محاكية ومقلدة لنظيرتها المشرقية، ونورد هنا مثالين اثنين أوردهما المقرّي في نفحه يؤكد المنحى الذي سار فيه الأندلسيون: المثال الأول هو أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير الكاتب، وقد اشتهر بالمجون والخلاعة مع البلاغة والبراعة وهو من بيت مشهور من جزيرة شقر، من أعمال بلنسية، فيقول فيه ابن سعيد: «هو ممن كان والدي يكثر مجالسته، ولم أستفد منه إلا ما كنت أحفظه في مجالسته، وكان شديد التهور، كثير الطيش، ذاهباً بنفسه كل مذهب، سمعته مرة وهو في محفل يقول: تقيمون القيامة لحبيب والبحتري والمتنبي وفي عصركم من يهتدي إلى ما لم يهتدوا إليه؟ فأهوى له شخص له قحة وإقدام، فقال يا أبا جعفر، فأرنا برهان ذلك، ما أظنك تعني إلا نفسك، فقال: نعم، ولم لا؟ وأنا الذي أقول مالم يتنبه إليه متقدم، ولا يهتدي لمثله متأخر:

يا هل ترى أظرف من يومنا … قلّد جيد الأفق طوق العقيقْ
وأنطقَ الوُرْقَ بعيدانها … مرقصة كلّ قضيب وريقْ
والشمس لا تشرب خمر الندى … في الروض إلا بكؤوس الشقيقْ

فلم ينصفوه في الاستحسان، ورده في الغيظ إلى أضيق مكان، فقلت له: يا سيدي، هذا هو السحر الحلال، فبالله إلا ما زدتني من هذا النمط، فقال:

أدِرْهــا فالســماء بــدت عروسـاً مضـمّخة الملابـس بـالغوالي
وخــدّ الــروض حمّــره أصــيلٌ وجفــن النهــر كحّــل بـالظلال
وجيــد الغصــن يشــرق في لآلٍ تضــيء بهــنّ أكنــاف الليــالي»[1]

والمثال الثاني يتعلق بابن زيدون فيقول المقرّي في نفحه:

«حكي أنّ الوزير ابن زيدون، توفيت ابنته، وبعد الفراغ من دفنها وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم، فقيل: إنّه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد، قال الصفدي: وهذا من التوسع في العبارة، والقدرة على التفنن في أساليب الكلام، وهو أمر صعب إلى الغاية، وأرى أنّه أشق مما يحكى عن واصل بن عطاء، أنّه ماسمعت منه كلمة فيها راء، لأنّه كان يلثغ بحرف الراء لثغة قبيحة، والسبب في تهوين هذا الأمر، وعدم تهويله أنّ واصل بن عطاء كان يعدل إلى ما يرادف تلك الكلمة مما ليس فيه راء، وهذا كثير في كلام العرب، فإذا أراد العدول عن لفظ فرس قال: جواد أو ساعٍ أو صافن..... وأما ابن زيدون فأقول في حقّه إنّه أقل ما كان في تلك الجنازة، وهو وزير، ألف رئيس ممن يتعين عليه أن يتشكر له، ويضطر إلى ذلك، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر، وهذا كثير إلى الغاية، لاسيّما من محزون، فقد قطعة من كبده. ولكنّه صوب العقول إذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحائب»(٢)

وقال بعض الأدباء:

«من لبس البياض، وتختم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي، وروى شعر ابن زيدون، فقد استكمل الظرف.»(٣)

---

[1] المقرّي- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،ج٣ :٣٠٧-٣٠٨

[2] المصدر نفسه: ٥٦٥-٥٦٦

[3] المصدر نفسه: ٥٦٦

وفي الختام يمكننا القول: إنّه وعلى الرغم مما ذكرنا، بقي المشرق بفكره وأدبه متغلغلاً في فكر الأندلس وأدبه لأنّه الأصل. ومن هنا كانت المحاكاة الأندلسية للمشرقية مع الأخذ بعين الاعتبار تباين هذه المحاكاة من عصر لآخر، وهذا لايلغي أنّ الأدب العربي في الأندلس استطاع أن يبزّ في بعض الجوانب الأدب العربي المشرقي، ولاننكر عليه أيضاً

تأثيره في الفكر الأوروبي عامة وفي مختلف المجالات، ويعود الفضل في النهضة الأوربية للحضارة العربية في الأندلس، وما أدته من مهام على هذا الصعيد،وهذا ما دفع بكثير من المستشرقين الأوروبيين لإنصاف هذه الحضارة والرد على من لم ينصفها وأنكر فضلها على أوروبا، وفي المحصلة فنحن نعد الحضارة العربية واحدة بمغربها ومشرقها حضارة حية، أعطت البشرية كنزاً معرفياً غنياً، وأسهمت في تطور الحضارة الإنسانية التي هي جزء منها، تأخذ وتعطي بعيدة عن التعصب والتطرف والاستعلاء، وتعمل لما فيه مصلحة البشرية كافة.

رئيس التحرير

مصادر البحث ومراجعه

١ – أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر-بيروت، ١٩٧٩ .

٢ – أحمد بن محمد المقّري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ .

3-PERES(HENRI) La Poesie Andalouse en arabe classique2 (au x1 siecle) ed, Adrien, Maisonneuve, Paris 1953

❑❑

أمير شعر أبي ذؤيب وغـــرة كلامـــه عنـــد الثعــــالبي

د. عبد الكريم محمد حسين*

لأبي منصور الثعالبي(٣٥٠-٤٢٩هـ)افتنانٌ في نقد الشعر، من ذلك حديثه على أبي ذؤيب الهذلي[1](-نحو ٢٧هـ) ولنقده إياه جانبان: أحدهما اتباع للمتقدمين، والآخر ابتداع منه بناه على طبيعة شعر أبي ذؤيب ورأي المتقدمين فيه معاً، وسيأتي تقويم أشعار أبي ذؤيب من وجهة نظر الثعالبي في عينيته المرثية، وتقوم الدراسة على إثبات العينية، وإثبات نقده، وبيان مصادره في اتباعه، ومفهوم ما جاء به بابتداعه، وصدى ذلك النقد عند ابن شرف القيرواني(-٤٦٠هـ) في معالجة تبنى على الدلالة اللغوية والسياقية النصية والحياتية معاً.

عينية أبي ذؤيب الهذلي:

إثبات القصيدة حق واجب؛ لأن الحكم النقدي يطلب حضورها؛ لتكون عين المتلقي على النص حيث يضع الثعالبي عينه ويده، وقد حكم الثعالبي لها، وهي حاضرة في ذهنه، وفي إثباتها استحضار لفضائها مشفوعاً ببنائها، وفيه بيان لمواضع همِّ الثعالبي منها، في دلالته على حكمه النقدي، وليس من مقصد المقال تحليل القصيدة ولا استعراض آراء النقاد فيها فلذلك موضع آخر يتناول القصيدة بالتحليل والتأويل، وفيما يأتي نصها[2]:

* جامعة دمشق ـ قسم اللغة العربية.

(١) خويلد ابن خالد ابن محرث من بني هذيل ابن مدركة من مضر شاعر فحل مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وسكن المدينة وشارك في الغزو والفتوح مات سنة ٢٧ هـ.[الأعلام: خير الدين الزركلي مج٢ ص٣٣٥].

(٢) المفضليات، اختيار المفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، القاهرة- دار المعارف بمصر، ط ٤، ١٩٧٦م: ٤٢١ المفضلية: ١٢٦

- الحال والسؤال:

١أمِنَ المَنُونِ[1] ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ والدَّهْرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ
٢قالتْ أُمَيْمَةُ: ما لِجِسْمِكَ شاحِباً مُنْذُ ابْتُذِلْتَ ومِثْلُ مالِكَ يَنْفَعُ
٣أمْ ما لِجَنْبِكَ لا يُلائِمُ مضْجَعاً إلاّ أَقَضَّ[2] عَليكَ ذاكَ المَضْجَعُ

- الجسم والمصاب:

٤فأجَبْتُها: أمَّا لِجِسْمِي أنَّهُ أوْدَى[3] بَنِيَّ مِنَ البلادِ فوَدَّعُوا
٥أوْدَى بَنِيَّ وأعْقَبُوني غُصَّةً بَعْدَ الرُّقَادِ وعَبْرَةً لا تُقْلِعُ
٦سَبَقوا هَوَيَّ وأعْنَقُوا لِهَواهُمُ فَتُخُرِّمُوا، ولُكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
٧فغَبَرْتُ[4] بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ ناصِبٍ[5] وإخَالُ أنِّي لاَحِقٌ مُسْتَتْبَعُ

- الوالد والمنية:

٨ولقد حَرَصْتُ بأنْ أُدافِعَ عنهمُ فإذا المَنِيَّةُ أقْبَلَتْ لا تُدْفَعُ
٩وإِذَا المَنِيَّةُ أنْشَبَتْ أظفارَها ألْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ[6] لا تَنْفَعُ

- الحال بفراقهم:

١٠فالعَيْنُ بعدَهُمُ كأنَّ حِدَاقَها سُمِلَتْ[7] بِشَوْكٍ فَهْيَ عُورٌ تَدْمَعُ
١١حتى كأنِّي للحَوادِثِ مَرْوَةٌ بِصَفا المُشَرَّقِ[8] كُلَّ يوم تُقْرَعُ

---

(١) المنون: المنية، ويجزع: يتألم من الشر.
(٢) أقض عليه مضجعه إذا خشن بالحصا.
(٣) ذهبوا وهلكوا
(٤) الغبار معروف، والصورة كناية عن الإهمال فصار يقوم بخدمة نفسه.
(٥) مُتعِبٍ
(٦) خرزات يضعها الأعراب لصبيانهم ترد العين والحسد بزعمهم
(٧) فُقِئَتْ
(٨) المُشَرَّق: جبل بسوق الطائف، والصفا: الحجارة اللينة الملساء، ومروة: حصاة جمعها مرو، وهي هنا بمعنى دريئة.

- **التجلد والشامتون:**

١٢ وتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتضَعْضَعُ
١٣ والنَّفْسُ راغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَها ... وإِذَا تُرَدُّ إِلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

- **الفجيعة:**

١٤ ولَئِنْ بِهِمْ فَجَعَ الزَّمانُ ورَيْبُهُ ... إِنِّي بِأَهْلِ مَوَدَّتِي لَمُفْجَّعُ

- **العزاء:**

١٥ كَمْ مِنْ جَمِيعِ الشَمْلِ مُلْتَئِمِ القُوَى ... كانوا بعَيْشٍ قَبْلَنا فَتَصَدَّعُوا

- **الدهر والحيوان صورة العزاء:**

١٦ والدَّهْرُ لا يَبْقَى عَلَى حَدَثانِهِ ... جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ[١]
١٧ صَخِبُ الشَّوارِبِ[٢] لايَزَالُ كأَنَّهُ ... عَبْدٌ لآلِ أَبِي رَبِيعَةَ مُسْبَعُ
١٨ أَكَلَ الجَمِيمَ وطاوَعَتْهُ سَمْحَجٌ[٣] ... مِثْلُ القَنَاةِ وأَزْعَلَتْهُ الأَمْرُعُ
١٩ بِقَرَارِ قِيعانٍ سَقاها وَابِلٌ. ... وَاهٍ، فَأَثْجَمَ[٤] بُرْهَةً لا يُقْلِعُ
٢٠ فَلَبِثْنَ حِيناً يَعْتَلِجْنَ بِرَوْضِهِ ... فَيَجِدُّ حِيناً في العِلاَجِ ويَشْمَعُ[٥]
٢١ حتَّى إِذَا جَزَرَتْ مِياهُ رُزُونِهِ ... وبِأَيِّ حِينِ مَلاوَةٍ[٦] تَتَقَطَّعُ

---

(١) جون السراة: حمار أسود الظهر، والجدائد جمع جدود، وهي الأتان التي لا لبن فيها.

(٢) وَحِمَارٌ صَخِبُ الشوارِبِ: يُرَدِّدُ نُهاقَه فِي شَوَارِبِهِ. والشوارِبُ: مَجَارِي الْمَاءِ فِي الحَلْق. انظر: لسان العرب: (صخب) وجاء معنى مسبع: (وقال أبو سعيد الضرير: مسبع - بكسر الباء- فشبه الحمار، وهو ينهق بعبد قد صادف في غنمه سبعا، فهو يهجهج به ليزجره عنها.) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية(سبع) ومُسمع معناها: مهمل.

(٣) أتان طويلة الظهر. وأزعلته: بعثت فيه النشاط فازدادت حركته، والأمرع: المراعي الخصبة.

(٤) أثجم: نزل بغزارة

(٥) وشَمِعَ الحمارُ: (إِذا شَمَّ الرَّوْثَ فرفع رأسه وكَشَّرَ عن أسنانه) شمس العلوم(شمع)

(٦) ملاوة حين الوقت، وجزرت: قطعت

٢٢ذكَـرَ الْـوُرُودَ بهـا وشَـاقَى أمْـرَهُ شُـؤْمٌ وأقْبَـلَ حَيْنَـهُ[1] يَتَتَبَّـعُ
٢٣فَـافتَنَّهُنَّ مِـنَ السـوَاءِ ومَـاؤُهُ بَثْـرٌ[2]، وعانَـدَهُ طَرِيـقٌ مَهْيَـعُ
٢٤فكأنَّهـا بـالجِزْعِ بَـيْنَ نُبـايعٍ وأولاَتِ ذِي العَرْجـاءِ نَهْـبٌ مُجْمَـعُ
٢٥وكـأنَّهنَّ رِبابَـةٌ[3] وكأنَّـهُ يَسَـرٌ يُفِـيضُ علـى القِـدَاحِ ويَصْـدَعُ
٢٦وكأنَّمـا هُـو مِـدْوَسٌ[4] مُتقلِّـبٌ في الكَـفِّ إلاَّ أنَّـهُ هُـوَ أضْـلَعُ
٢٧فَـوَرَدْنَ والعيُّـوقُ مَقْعَـدَ رَابِـىءِ الـ ضُّـرَباءِ فَـوقَ الـنَّظْمِ لا يَتَتَلَّـعُ
٢٨فَشَـرَعْنَ في حَجَـرَاتِ عَـذْبٍ بـارِدٍ حَصِـبِ[5] البِطَـاحِ تَغِيـبُ فيـه الأكْـرُعُ
٢٩فَشَـرِبْنَ ثُـمَّ سَـمِعْنَ حِسًّـا دُونَـهُ شَـرَفُ الحِجَـابِ ورَيْـبَ قَـرْعٍ يُقْـرَعُ

- **الصياد والموت:**

٣٠ونَمِيمَـةً مِـنْ قَـانِصٍ مُتَلَبِّـبٍ في كَفِّـهِ جَـشْءٌ[6] أجَـشُّ وأقْطُـعُ[7]
٣١فَنَكِرْنَـهُ ونَفَـرْنَ وامْتَرَسَـتْ بـهِ[8] سَـطْعَاءُ هَادِيَـةٌ وهَـادٍ جُرْشُـعُ
٣٢فرَمَـى فأنْفَـذَ مِـنْ نَجُـودٍ عـائِطٍ سَـهْماً، فَخَـرَّ ورِيشُـهُ مُتَصَـمِّعُ[9]
٣٣فَبَـدَا لَـهُ أقْـرَابُ هَـذَا رَائِغـاً عَجِـلاً، فَعَيَّـثَ في الكِنانَـةِ يُرْجِـعُ
٣٤فَرَمَـى فـألْحَقَ صَـاعِدِيًّا مِطْحَـراً بالكَشْـحِ فاشْـتَمَلَتْ عليـهِ الأضْـلُعُ

---

(١) وتروى بالرفع

(٢) البثر: (الماءُ البَثْرُ في الْغَدِيرِ إذا ذَهَبَ وبَقِيَ عَلَى وَجْهِ الأرض مِنْهُ شَيْءٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ نَشَّ) لسان العرب بثر، ولعل هذا اللفظ من الأضداد

(٣) الرِّبابَةُ بالكَسْر (جَمَاعَةُ السِّهَامِ أو خَيْطٌ تُشَدُّ به السِّهَامُ أوْ خِرْقَةٌ) أو جِلْدَةٌ تُشَدُّ أو (تُجْمَع فِيهَا) السِّهَامُ) تاج العروس: (ربب)

(٤) **والمِدْوَسُ: خَشَبَةٌ يُشَدُّ عَلَيْهَا مِسَنٌّ ، وخشبة يداس بها الطعام. لسان العرب(دوس)** والأضلع الغليظ الشديد.

(٥) الحصباء: صغار الحصا وكبارها.

(٦) القوس

(٧) جمع (قَطعٍ) وهو النصل العريض.

(٨) تدافعت به الأتان والفحل، والهادية المتقدمة، والجرشع: العظيم.

(٩) المنضم الريش من الدم.

٣٥فأَبَــدَّهُنَّ[١] حُتُــوفَهُنَّ فَهــارِبٌ بِذَمائِـــهِ أو بــارِكٌ مُتَجَعْجِــعُ
٣٦يَعْثُــرْنَ في حَــدِّ الظُّبــاتِ كأنَّمــا كُسِــيَتْ بُــرُودَ بَنِــي تَزِيــدَ الأَذْرُعُ

الكلاب والصياد:

٣٧والــدَّهْرُ لاَ يَبْقَــى علــى حَدَثانِــهِ شَــبَبٌ[٢] أَفَزَّتْــهُ الكِــلاَبُ مُــرَوَّعُ
٣٨شَــعَفَ الكــلاَبُ الضَّــارِياتُ فُــؤَادَهُ فــإِذَا رأى الصُّــبْحَ المُصَــدَّقَ يَفْــزَعُ
٣٩ويُعــوذُ بــالأَرْطَى إذَا مــا شَــفَّهُ قَطْـــرٌ ورَاحَتْـــهُ بَلِيـــلٌ زَعْـــزَعُ
٤٠يرمِــي بِعَيْنَيْــهِ الغُيُــوبَ وطَرْفُــهُ مُغْــضٍ يُصَــدِّقُ طَرْفُــهُ مــا يَسْــمَعُ
٤١فَغَــدَا يَشــرِّقُ مَتْنَــهُ فَبــدَا لَــهُ أُولَــى سَــوابِقِها قَرِيبــاً تُــوزَعُ
٤٢فاهْتَــاجَ مِــنْ فَــزَعٍ وسَــدَّ فُرُوجَــهُ غُبْـــرٌ ضَـــوارٍ وَافيـــانِ وأَجْـــدَعُ
٤٣يَنْهَشْـــنَهُ ويَـــذُبُّهُنَّ ويَحْتَمِـــي عَبْــلُ الشَّــوَى[٣] بــالطُّرَّتَيْنِ مُوَلَّــعُ
٤٤فَنَحــا لهــا بِمُــذَلَّقَيْنِ[٤] كأنَّمــا بِهِمــا مِــنَ النَّضْــحِ المُجَــدَّحِ أَيْــدعُ
٤٥فكـــأنَّ سَــفُّودَيْن لَمّــا يُقْتِــرَا عجِــلاَ لَــهُ بِشِــواءِ شَــرْبٍ يُنْــزَعُ
٤٦فصَــرَعْنَهُ تَحــتَ الغُبــارِ وجَنْبُــهُ مُتَتَــرِّبٌ، ولكــلِّ جَنْــبٍ مَصْــرَعُ
٤٧حتَّــى إذا ارتَــدَّتْ وأَقْصَــدَ عُصْــبَةً منهــا، وقــامَ شَــرِيدُها يَتَضَــوَّعُ
٤٨فَبَــدَا لَــهُ رَبُّ الكِــلاَبِ بِكَفِّــهِ بِــيضٌ رِهــابٌ[٥] رِيشُــهُنَّ مُقَــزَّعُ
٤٩فَرَمَــى لِيُنْقِــذَ فَرَّهــا فَهَــوَى لَــهُ سَــهْمٌ، فَأَنْفَــذَ طُرَّتَيْــهِ المِنْــزَعُ
٥٠ فكبَــا كمــا يَكْبُــو فَنِيــقٌ تــارِزٌ بالخَبْــتِ إلاَّ أَنَّــهُ هُــوَ أَبْــرَعُ

---

(١) أعطاهن سهماً سهماً لا اثنين اثنين، والذماء: بقية الروح في المذبوح، والمجداح: الدم المحرك، أيدع: الزعفران.
(٢) الشبب: الثور المسن، وأفزته: أخافته..
(٣) غليظ القوائم
(٤) المذلق: القرن الأملس، والرمح، والنضح: التلطيخ،
(٥) نصال رقاق. والرهاب بلغة حمير: الكم، وسهم مقزّع: رِيش بريش صغار

الدهر والفارس :

٥١ والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حدَثانِهِ   مُسْتَشْعِرٌ حلَقَ الحديدِ مُقَنَّعُ

٥٢ حَمِيَتْ عليه الدِّرْعُ، حتَّى وَجْهُهُ   مِنْ حَرِّها يومَ الكريهَةِ أسْفَعُ

٥٣ تَعدُو بهِ خَوْصاءُ[1] يَفْصِمُ جَرْيُها   حلَقَ الرِّحالَةِ فَهْيَ رِخْوٌ تَمْزَعُ

جَرْيُها

٥٤ قَصَرَ الصَّبُوحَ لها فَشُرِّجَ لَحْمُها   بالنَّيِّ فَهْيَ تَثُوخُ فيها الإِصْبَعُ

٥٥ مُتَفَلِّقٌ أَنْسَاؤُها عنْ قانِئٍ   كالقُرْطِ صَاوٍ غُبْرُهُ لا يُرْضَعُ

٥٦ تَأْبَى بِدِرَّتِها إذا ما اسْتُغْضِبَتْ   إلاّ الحَمِيمَ فإنَّهُ يَتَبَضَّعُ

٥٧ بَيْنَا تَعَنُّقِهِ[2] الكُماةَ ورَوْغِهِ   يَوْماً أُتِيحَ لهُ جَرِيءٌ سَلْفَعُ

٥٨ يَعْدُو بهِ نَهْشُ المُشَاشِ كأنَّهُ   صَدَعٌ سَلِيمٌ رَجْعُهُ لا يَظْلَعُ

مصارع الفرسان :

٥٩ فَتَنادَيا وتَوافَقَتْ خَيْلاهُما   وكِلاهُما بَطَلُ اللِّقاءِ مُخَدَّعُ

٦٠ مُتَحامِيَيْنِ المَجْدَ، كُلٌّ وَاثِقٌ   بِبَلائِهِ، والْيَوْمُ يَوْمٌ أَشْنَعُ

٦١ وعليهما مَسْرُودَتانِ قَضَاهُما   دَاوُدُ أو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ

٦٢ وكِلاهُما في كَفِّهِ يَزَنِيَّةٌ   فيها سِنانٌ كالمنارَةِ أَصْلَعُ

٦٣ وكِلاهُما مُتَوَشِّحٌ ذَا رَوْنَقٍ   عَضْباً إذا مَسَّ الضَّرِيبَةَ يَقْطَعُ

٦٤ فَتَخالَسا نَفْسَيْهِما بِنَوافِذٍ   كَنَوافِذِ العُبُطِ[3] الَّتي لا تُرْقَعُ

٦٥ وكِلاهُما قد عاشَ عِيشَةَ ماجِدٍ   وجَنَى العَلاءَ، لَوَ انَّ شيْئاً يَنْفَعُ

---

(١) صفة الفرس

(٢) تعانقه، ، السلفع : الرجل الشجاع.

(٣) العُبُط : الشقوق

هذا نص القصيدة بطولها موضوع لاختبار أحكام الثعالبي فيها. ومعلوم أن أبا ذؤيب قالها بمناسبة وفاة أبنائه لقول أبي زيد عمر بن شبة(- ٢٦٢هـ): ((تقدم أبو ذؤيب جميع شعراء هذيل بقصيدته العينية التي يرثي فيها بنيه يعني قوله[١] :

أمِن المَنون وريْبِهِ تتوجّع والدهر ليس بمُعتِب من يَجْزَعُ))[٢]

فكشف عن رتبة هذه القصيدة التي جعلته يتقدم بها شعراء هذيل، وهي في رثاء أبنائه، فتقدم شعره بها، وتقدمت على شعر هذيل لا في المراثي وحدها بل بالفنون الشعرية المختلفة، فكأنها كانت مصباحاً أضاء ما عند أبي ذؤيب من أشعار. فماذا قال فيها الثعالبي(٣٥٠- ٤٢٩هـ)؟

الثعالبي وشعر أبي ذؤيب:

للثعالبي موقف مجمل ينظر منه إلى شعر أبي ذؤيب الهذلي من خلال مرثيته، ويقف على ميراث المتقدمين في نقد شعره ونقد قصيدته بقوله ((**أبو ذؤيب الهذلي: قيل: إن هذيل أشعر قبائل العرب، وأبا ذؤيب أشعر هذيل، وأمير شعره وغرة كلامه قصيدته في الرثاء التي أولها:**

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وأعْمَرُ بيوتها قوله[٣] :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وكان يقول الأصمعي: هو أبرع بيت للعرب.

وأحسن ما في القصيدة قوله[٤] :

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

---

[١] أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، الرياض- عمادة شؤون المكتبات –جامعة الرياض، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م: ٥٥

[٢] الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين، بيروت- دار إحياء التراث العربي [طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، د.ت]: ٦/ ٢٦٥

[٣] شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، رواية أبي الحسن علي بن عيسى بن علي النحوي، عن أبي بكر أحمد بن محمد الحلواني، عن السكري، حققه: عبد الستار أحمد فراج، القاهرة- مكتبة دار العروبة، [د.ت]: ١/ ١١

[٤] شرح أشعار الهذليين: ١/١٠

فـــإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع[١]))[٢]

ففي هذا النص حكمُ المتقدمين بتقدم هذيل في الشعر على قبائل العرب، وتقدم أبي ذؤيب على هذيل، وأضاف الثعالبي إلى هذا القول حكماً آخر هو تقدم العينية على شعر أبي ذؤيب، وجعلها أمير شعره وغرة كلامه.

مصادر الحكم النقدي:

لهذا الحكم مصدران: مصدر الرواية، ومصدر الابتداع بناء على الدراية بشعر أبي ذؤيب، وقصيدته العينية وشعر قبيلته، فأومأ إلى موقع شعر هذيل من أشعار القبائل، وموقع شعر أبي ذؤيب من أشعار هذيل، موهماً بعلوه على أشعار القبائل كلها بعد تقدمه على شعراء هذيل، ومصدر هذا الحكم الرواية فقد ورد الخبر عن حسان ابن ثابت(- ٥٤هـ): ((**قال أبو عمرو بن العلاء: سئل حسان من أشعر الناس؟ قال: حيا أو رجلا؟ قال: حيا؟ قال: أشعر الناس حيا هذيل وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب...**))[٣]

فحسان بن ثابت صاحب الرأي بتقدم هذيل على القبائل، وتقدم أبي ذؤيب عليها عموماً فجعل هذيلَ تتقدم القبائل بأشعارها، وجعل أبا ذؤيب أشعرها أي أشدها قوة شعر وجاذبية لا أنه أكثرها شعراً فثمة شعراء في هذيل أكثر منه شعراً.

ففي الإيماء إلى تقدم أشعار هذيل إشارة إلى تنقل راية الشعر بين القبائل، لا أن هذيل هي أكثر شعراً من غيرها، بل هي تحمل راية الشعر في زمن حسان بن ثابت يدلك على ذلك قول الأصمعي المروي عن شيخ عالم بالشعر: ((قال الأصمعي: سئل شيخ عالم عن الشعراء، فقال: كان الشعر في الجاهلية في ربيعة، وصار في قيس.. ثم جاء الإسلام فصار في تميم. قلت للأصمعي: لِمَ لم يذكر اليمن؟ فقال: إنما أراد بنى نزار فأما هؤلاء كلهم فإنهم تعلموا من رأس الشعراء: امرىء القيس، وإنما كان الشعر في اليمن.))[٤]

وتميم من هذيل، وهذيل حملت الراية في ذلك الزمن فشهد حسان لأبي ذؤيب بحمل راية الشعر في هذيل التي تحمل راية أشعار القبائل فكأن خصال الشعر القبلي للقبائل كلها وُجِدَتْ تجلياتها في هذا الشعر أو ذاك من أشعار

---

(١) شرح أشعار الهذليين: ١/ ٨، يلحظ تغيير ترتيب الأبيات.

(٢) الإعجاز والإيجاز، لأبي منصور الثعالبي، بيروت- دار الرائد العربي، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م: ١٤٦

(٣) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي(- ٢٣١هـ) قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، القاهرة- مطبعة المدني، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م: ١/ ١٣١

(٤) سؤالات أبي حاتم السجستاني للأصمعي ورده عليه فحولة الشعراء، تحقيق د.محمد عودة سلامة أبوجري، القاهرة- مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م: ٦١

هذيل، والإشارة إلى تقدمه لا تعني تفرده في بلوغ رتبة التقدم على شعراء القبيلة وحده، فشعراء القبيلة عامة متقدمون على عموم شعراء القبائل، ولا يمتنع تأخر بعض أبنائها على جهة الندرة والقلة والشذوذ في الأحوال التي تقبل الاستثناء من القاعدة، وتقدم قليل من شعراء القبائل الأخرى على فحول من شعراء هذيل، ويدلك على ذلك أنه واحد من شعراء المقدمة قولهم: ((ومنهم المُتنخِّل: واسمه مالك بن عمرو بن سُويد بن حَنَش بن خُناعةَ بن عاريَّة بن صعصعة بن كعب بن طابخة بن لحيان بن **هُذيل** بن مُدركة. وقال حسان بن ثابت عنه: إنه أشعرُ هُذيل.))[1] فهذا المتنخل (...) يبلغ رتبة أشعر شعراء هذيل، أي من أشعر شعرائها، وهو في طليعة شعرائها، وأبو ذؤيب مخضرم لعله لقي المتنخل في الجاهلية أو عاصره بعضَ الوقت. وحسان بن ثابت وهو مخضرم عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، حكم لهما بالتقدم على شعراء هذيل، ولو علم أن الصيغة تمنع التعدد في القوة الشعرية ما أطلق صيغة أشعر على شاعرين من قبيلة واحدة، ولو اختلف الزمان اختلافاً واسعاً قُبِلَ تعدد الشعراء في دلالة صيغة التفضيل على فضل كلٍّ منهم، وتعدد جهات التقدم في الشعر مُؤذِنٌ بإطلاق الحكم على أكثر من شاعر. وهي صيغة لا تمنع التعدد بإطلاقها لأنها تدل على طبقات متعددة من الشعراء تبلغ هذه الرتبة وأخواتها. فدل النقل على تقدم شعراء هذيل إجمالاً لحمل راية الشعر العربي والسير في مقدمة شعراء القبائل، وحملَ رايةَ شعراء القبيلة أبو ذؤيب الهذلي.

وفي قوله: (يقال) إيهام تضعيف الخبر، وهو غير مقصود؛ لأن مراده التخفف من الإسناد لشهرة القول بشهرة رواته عن أبي عمرو بن العلاء(- ١٥٤هـ).

فهذا أصل تقديم شعراء هذيل على سائر شعراء القبائل، وأصل تقديم شعر أبي ذؤيب على سائر أشعار هذيل.

مما تقدم يتبين قِدمُ تقديم هذيل على غيرها من القبائل في الشعر طوراً من الزمان، وتقدم أبي ذؤيب على شعرائها في جزء من ذلك الوقت أو في الوقت كله، وتقدم الشاعر لا يمنع مِن تقدم غيره إلى مجاراته في الطاقة الشعرية والقوة المؤثرة في متلقي أشعار أولئك الشعراء، ولو كانت أسباب تقديم كل منهم مختلفة عن أسباب تقديم الآخرين. ووجد الثعالبي في رأي المتقدمين الذين يعلمون أشعار القبائل، وأشعار هذيل وأشعار أبي ذؤيب أساساً يبني عليه حكماً جديداً لا يهدم آراء العلماء قبله بل يبني عليها بناء جديداً، فماذا قال؟

وفي بيان مصدر الابتداع تجده يقوم على تذوق أشعار أبي ذؤيب، وتحليلها، وتفسيرها، ومراقبة خطوط الالتقاء فيما بينها وعلو بعضها على بعض، وتقدم بعضها على بعضٍ، فأردف تلك القاعدة التي ورثها بما رآه

[1] الجوهرة في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة، محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني، نقحها وعلق عليها: د.محمد التونجي، الرياض- دار الرفاعي، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م: ١/ ٢٤٣

بقوله في الخبر السابق نفسه : (وأبا ذؤيب أشعر هذيل، وأمير شعره وغرة كلامه قصيدته في الرثاء التي أولها :

أَمِنَ المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وأعمر بيوتها قوله :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وكان يقول الأصمعي : هو أبرع بيت للعرب.

وأحسن ما في القصيدة قوله :

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

فإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع)

فأضاف أحكامه الثلاثة الآتية :

١- أمير شعره وغرة كلامه مرثية أبنائه

٢- أعمر بيوتها قوله : (والنفس راغبة) وهو البيت الثالث عشر في القصيدة.وجعل ذلك مرادفاً لقول الأصمعي : (أبرع بيت قالته العرب)

٣- وأحسن ما في القصيدة (وتجلدي..)البيت الثاني عشر، (وإذا المنية...) البيت التاسع.

لعل الثعالبي وقف على ترتيب آخر لأبيات القصيدة لم يصل إلينا مصدره، لأنه عيَّن الأبيات بغير ترتيب المفضل الضبي لها، وربما كان الترتيب واحداً فغلب بعض الأبيات بعضاً في ترتيب الاحتجاج، وغلبة تلك الأبيات في قوة حجتها لديه.

مهما يكن من أمر فإن القصيدة حظيت بحكم مؤكد بصيغتين : إحداهما : أمير شعره مرثية أبنائه. والأخرى في قوله : (غرة كلامه) ففي إمارة الشعر إشارة إلى علو تلك القصيدة علو أمير القبيلة على أبنائها، وهو واحد منهم، أو أمير الجيش الذي يعلو جنده وهو واحد منهم، فعلا كلٌّ بحكمته، واتزان شخصيته، ومحافظتها على وَقعٍ يطرب له الجميع من جنسه. فالمرثية هي من جنس قصائده الأخرى لكنها متقدمة عليها في كليتها، فاستعار لها الغرة من الفرس في إشارة إلى تقدمها، والتقدم من آيات الفروسية، كما أن الإمارة من آيات العلو والسيادة، والغرة ببياضها تدعو إلى التفاؤل بانفتاح بوابة جديدة للشعر تنهض به على قِدَمِ آلته القديمة(الموسيقى والإيقاع).

وفي كلامه أن أعمر بيوتها قوله : (والنفس راغبة...) البيت الثالث عشر في القصيدة، ومراده بقوله : أعمرها بالمعاني الشعرية، لتجريد النفس منه، وجعلِها شخصية طفل تطمع إذا رغبتها، وتكف من جموحها إذا وجهتها للرضوان بالقليل، وهي حكمة مشتقة من واقع النفس الإنسانية، وهو سر من أسرارخلود الشعر، وهو بهذا

يكشف عن المراد بقول عموم النقاد القدامى (بيت القصيدة) يدلك على ذلك قوله في موضع آخر : ((**وبيت القصيدة وكان الأصمعي يقول : هو أبرع بيتٍ، قالته العرب :**

وَالـــــنَّفْسُ راغِبَـــــةٌ إذا رَغَبْتَهـــــا   وَإِذَا تُـــــرَدُّ إِلَـــــى قَلِيـــــلٍ تَقْنَـــــعُ

ومن غرر هذه القصيدة قوله :

وإِذَا المَنِيَّـــــةُ أَنْشَـــــبَتْ أَظْفَارَهَـــــا   أَلفَيْـــــتَ كُـــــل تَمِيمَـــــةٍ لاَ تَنْفَـــــعُ))[1]

فهذا يجعل معنى بيت القصيدة (أعمر بيوتها) بالسكان مما يومئ إلى كثافة المعاني الشعرية، وبلوغ هذا المستوى من الكثافة ما لم تبلغه الأبيات الأخرى. وأوضح معنى آخر بكلام الأصمعي الذي ذكر براعة البيت، فدل على فضاء من فضاءاتها فقد جاء فضاء (برع) في قول ابن منظور المصري : ((برع : بَرَعَ يَبْرُعُ بُرُوعاً وبَراعةً وبَرُعَ، فَهُوَ بارِعٌ : تَمَّ فِي كُلِّ فَضِيلة وَجَمَالٍ وَفَاقَ أصحابه فِي الْعِلْمِ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ تُوصَفُ بِهِ المرأة. وَالْبَارِعُ : الَّذِي فَاقَ أصحابه فِي السُّؤدد. ابْنُ الأعرابي : البَرِيعةُ المرأة الْفَائِقَةُ بِالْجَمَالِ والعَقل، قَالَ : وَيُقَالُ برَعه وفرَعه إِذا عَلَاهُ وَفَاقَهُ، وكلُّ مُشْرف بارِعٌ وفارِعٌ.))[2]

فالبراعة في البيت الشعري بلوغ التمام في كل فضيلة شعرية، وتفوق الشاعر على أقرانه في علوم الشعر، وجمال عرض المعاني في الأبنية اللغوية والشعرية عروضاً (موسيقى) وقافية(إيقاعاً) والأبنية النفسية عقلاً وحكمة، وأغلب ذلك ملموح في البيت المذكور.فكأن هذا البيت أمير القصيدة أخذ من مزاياه أبياتٌ كثيرة ولعله اجتمع له مزايا تلك الأبيات فكأنها أخذت منه، وكأنه أخذ من مجموعها كما اجتمعت فيه وله ؛ لأن البيت الذي يليه(وإذا المنية أنشبت أظفارها..) أسماه غرة القصيدة، فدل بذلك على أن مصطلح أمير شعره وغرة كلامه يقعان مرة على القصيدة وأخرى على البيت فيها..حملاً على انتقال الحكم من القبائل إلى القبيلة، فانتقل الحكم من أشعار أبي ذؤيب إلى مرثيته، ومن المرثية إلى أبيات معينة فيها أضافت مزايا في الحسن إلى المزايا المشتركة بينها وبين أبيات القصيدة المتقدمة على شعره كله فتفرق الحسن في القصائد واجتمع في المرثية، كما تفرق الحسن في أبياتها، واجتمع في أبيات محددة منها.

وهذا نظام من أنظمة النقد مفادة الإفادة من هيكل الحكم النقدي والانتقال به من الكليات إلى الجزئيات في

---

(١) لباب الآداب، : (أبو ذؤيب الهذلي)

(٢) لسان العرب، لابن منظور المصري(٦٣٠- ٧١١هـ) نسقه وعلق عليه : علي شيري، بيروت –دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م: ١/ ٣٨٠ (برع)

خطى تحفظ نظام موازنة الشعر بالشعر والحال الحضارية الموحدة أو المتعددة كما تبين من البحث.

صدى نقد الثعالبي :

لبيان رتبة ما قدمه الثعالبي لابد من مراقبة أثر نقده عند معاصر له توفى بعده، ألا وهو محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني (٣٩٠- ٤٦٠هـ) إذ يقول :

((وأما أبو ذؤيبٌ فشديد أسر الشعر، أمير الشعر حكيمهُ، شغله فيه التجريبُ حديثه وقديمه؛ وله المرثية النقية السبك، المتينة الحبك؛ بكى فيها بنيه السبعة، فقال، ووصف الحمار فأطال، وهي التي أولها : أمِنَ المَنونِ ورَيْبها تتوجّع))[1]

ففي كلامه أن شعر أبي ذؤيب شديد الأسر(الجاذبية)، وهو أمير الشعر يأمره فيجيب طوعاً، وهو مشغول بالتجريب، وله المرثية النقية السبك، المتينة الحبك، بكى فيها بنيه السبعة فأطال، وعيَّنها بشطر بيتها الأول.

أما شدة أسر الشعر فمستعار من قول يونس بن حبيب : ((كان عبد الله بن قيس الرقيات أشد قريش أسر شعر في الإسلام بعد ابن الزبعرى...))[2] فأسر الشعر وشدته تعبير عن قوته الجاذبة لمتلقيه، وهو حكم عام يقيد برهانه في المرثية(أمن المنون)

وأما قوله (أمير الشعر حكيمه) فمأخوذ من الثعالبي، لأنه جعل المرثية أمير شعره، فنقل ابن شرف إمارة القصيدة إلى الشاعر، وجعلها تعم شعره كله، فخلص بها من الخاص إلى العام، وقوله حكيمه يراد به ما يقع من كلامه موقع الأمثال كقوله : (والنفس راغبة..)

وأما تجريب أبي ذؤيب فكأنه يومئ إلى تهذيب لفظه ومعانيه، ومعاودة النظر في القصيدة مرة بعد مرة يحذف ويصطفي، ويزيد ويقتفي، وهذه الفكرة لابن شرف لم يسبق إليها في إدراك مذهب أبي ذؤيب في إبداعه الشعري.

وأما كلامه في المرثية(**وله المرثية النقية السبك، المتينة الحبك؛ بكى فيها بنيه السبعة، ووصف الحمار فطوّل، وهي التي أولها : أمِنَ المَنونِ ورَيْبها تتوجّع**) فإيضاح لكلام الثعالبي، وتركيز لفهم القصيدة بإبراز مزاياها التي

[1] اعلام الكلام، تصنيف أبي عبيد الله محمد بن شرف القيرواني، منقول بإذن خاص عن الأصل المحفوظ بدار كتب سعادة أحمد بك طلعت، عني بتصحيحه وضبط ألفاظه عبد العزيز أمين الخانجي، القاهرة- مطبعة النهضة، ط١، ١٣٤٤هـ- ١٩٢٦م: ١٩

[2] طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي(- ٢٣١هـ) قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، القاهرة- مطبعة المدني، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م: ٢/ ٦٤٨

قدمتها على شعر أبي ذؤيب، وكانت سبباً في بيان تفوق أبي ذؤيب على شعراء هذيل، فجعل لها نقاء السبك فجعلها كالذهب المسبوك على نقاء في النوع، وصفاء في شفافية السبك عن معانيه التي تسكن مبانيه، وجعلها كقطعة قماش أحكم حبكها في إشارة إلى ارتباط أجزائها بغرضها، وقوة رصفها، ومتانتها في مقاومة عامل الزمن وتغيره من جيل إلى جيل مما يجعل متانتها تصور قدرتها على احتمال الموازنة والحفاظ على الحسن والجاذبية معاً عند موازنتها ببنات فنها من مراثي العرب، وذكر أنه أطال في وصف الحمار الوحشي وقضيته مع كلاب الصيد في بوابة العزاء على نحو يجعله يسلو مصابه في تأمل مصير الأحياء من الحيوان والإنسان من ذوي السلاح والمخالب، والحيوان والفرسان من البشر الذين يصدرون الموت لغيرهم يجدون الموت متربصاً بهم.

مما تقدم يتبين قيمةُ خطوات الثعالبي في نقد شعر أبي ذؤيب، في اقتباسه من نار متقدميه النقدية، وإضافتُه أنواراً إضافية، واحتفاء من جاء بعده برؤاه، وإضافتهم إلى ما قدمه، على نحوٍ متراكم هو قليلٌ فوق قليلٍ لكنه مستمر في حركة النص النقدي الإبداعي بين الأجيال.

❑❑

الوراقة:

١- الإعجاز والإيجاز، لأبي منصور الثعالبي، بيروت- دار الرائد العربي، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م

٢- إعلام الكلام، تصنيف أبي عبيد الله محمد بن شرف القيرواني، منقول بإذن خاص عن الأصل المحفوظ بدار كتب سعادة أحمد بك طلعت، عني بتصحيحه وضبط ألفاظه عبد العزيز أمين الخانجي، القاهرة- مطبعة النهضة، ط١، ١٣٤٤هـ- ١٩٢٦م

٣- الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين، بيروت- دار إحياء التراث العربي [طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، د.ت]

٤- الجوهرة في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العشرة، محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني، نقحها وعلق عليها: د.محمد التونجي، الرياض- دار الرفاعي، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م

٥- أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، الرياض- عمادة شؤون المكتبات -جامعة الرياض، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م

٦- سؤالات أبي حاتم السجستاني للأصمعي ورده عليه فحولة الشعراء، تحقيق د.محمد عودة سلامة أبوجري، القاهرة- مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م

٧- شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، رواية أبي الحسن علي بن عيسى بن علي النحوي، عن أبي بكر أحمد بن محمد الحلواني، عن السكري، حققه: عبد الستار أحمد فراج، القاهرة- مكتبة دار العروبة، [د.ت]

٨- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي(- ٢٣١هـ) قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، القاهرة- مطبعة المدني، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م

٩- لباب الآداب

١٠- لسان العرب، لابن منظور المصري(٦٣٠- ٧١١هـ) نسقه وعلق عليه: علي شيري، بيروت -دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م

١١- المفضليات، اختيار المفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، القاهرة- دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٧٦م

❑❑

نظرات في قراءة شوقي ضيف بعض آراء ابن مضاء القرطبي النحويّة

إنكارُ تقدير ضمائر الرفع المستترةِ لاستغناء الفعل بمادّتِه عن فاعله مثالاً

د. عبد الناصر إسماعيل عسّاف*

الملخّص:

تناولَ هذا البحثُ القراءةَ التي قرأ بها د. شوقي ضيف قولَ ابن مضاءٍ في كتابه (الردُّ على النحاة) بإنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة بعد الفعل؛ لاستغناء ذاك الفعل بمادّته في تلك الحال عن فاعله، مثالاً على قراءته آراء ابن مضاء عامّة.

نظرَ في تلك القراءة حيث كانت في كتبه التي كان لها صلةٌ بالنحو وتجديده وتيسير تعليمه وتأريخه، وتوقّفَ في ذلك أكثر ما توقّف عند آخر كتبه (تيسيرات لغويّة)، ورصدَ الدائرة التي تحرّكت فيها تلك القراءةُ بين صيانة النصّ وتحريف التفسير والرؤية واختلاف التلقّي والأثر، معتمداً على منهج وصفيٍّ سَرَت فيه خيوطٌ من نقد وتحليل هنا وهناك، وخَتَمَ ببعض ما لاح له فيها من نتائج.

* جامعة دمشق ــ قسم اللغة العربيّة.

وكان ممّا انتهى إليه البحث: أنّ لرأي ابن مضاء ذاك أثراً عميقاً في فكر د. ضيف وتصوّره النحويّ؛ إذ نمذجَهُ واتّخذه مفتاحاً يَحلّ به مشاكلَ القول بحذف الفاعل أو غيابه كلّما صادفه فعلٌ خفِيَ فاعله؛ وأنّ قراءة ذلك الرأي في كتب د. ضيف في بعض جزئيّاتها ومتعلّقاتها لم تكن على حال ثابتة، بل كانت متفاوتةً متغيّرة تحرّكُها صيرورةٌ دالّةٌ على تطوّر رأي د. شوقي ضيف أو فكره النحويّ بين حين وآخر؛ وأنّه كان على صلة بهما نتيجةً أو سبباً اختلافُ تلقّي ذلك الرأي وأثره في كتب د. ضيف، وتقلُّبه رفضاً وقبولاً، أو في الدرجة والصفة، من حال إلى حال في حركة دائريّة؛ وسريانُ بعض مظاهر التحكّم والتحيّز والهوى، من تحريف وحتميّة واجتزاء مثلاً، وظلال ثنائيّة الرضا والسخط، في بعض كلام د. ضيف هنا وهناك؛ واختلاقِ أو توليد ما لا عهْدَ للناس به من آراءٍ أو توجيهات جديدة.

ـ مقدمة:

كان النحوُ بعضَ ما اشتغلَ به ابنُ مضاء القرطبيّ، أبو العبّاس أو أبو جعفرٍ أحمدُ بن عبد الرحمن بن محمّد بن سعيد اللخميّ (٥١٣ ـ ٥٩٢ هـ)[(١)]. وكان ـ كما ذكر بعضُ مترجميه ـ إماماً في علم العربيّة مقدّماً، بصيراً بالنحو، ممتازاً"[(٢)] فيه، مجتهداً في أحكام العربيّة، منفرداً فيها بآراءٍ ومذاهبَ شذّ بها عن مألوف أهلها. وقد ألّف فيها ثلاثةَ كتبٍ: (تنزيهُ القرآن عمّا لا يليق بالبيان) الذي ردّ عليه ابنُ خَروف، وناقضه بكتابه (تنزيهُ أئمّة النحو عمّا نُسِب إليهم من الخطأ والسهو)؛ و(المشرق) الذي تردّدت بعضُ آراء ابن مضاء فيه في بعض كتب خالفيه دالّة على أنّه وكتابَ (الردّ على النحاة) التالي كتابان مختلفان لا كتاب واحد، كما قال بعض المحْدَثين[(٣)]"؛ و(الردُّ على النحاة) الذي انتهى إلينا من تلك الكتب، وحقّقه المحدَثون ونشروه غيرَ مرّة.

---

(١) انظر في ترجمته: الذيل والتكملة، ابن عبد الملك، تح: محمد بن شريفة، دار الثقافة ـ بيروت، السفر الأوّل، القسم الأول، ٢١٢ ـ ٢٢٣، بغية الملتمس، الضبّي، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري ـ القاهرة، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، ط ١، ١٤١٠ هـ، ١٩٨٩ م، ١/ ٢٥٣، غاية النهاية في طبقات القرّاء، ابن الجزري، تح: برجستراسر، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط ١، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ م، ١/ ٦٥، بغية الوعاة، السيوطيّ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط ٢، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م، ١/ ٣٢٣، الديباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب، ابن فرحون، تح: مأمون الجنّان، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م، ١١٦ ـ ١١٧، كشف الظنون، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، مصوّرة، ٤٩٤ ـ ٤٩٥، ٨٣٩، ١٦٩٣، الردّ على النحاة، ابن مضاء، تح: د. شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨ م، المدخل إلى الكتاب، ١٨ ـ ٢٠، المدارس النحويّة، د. شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة، ط ٧، ١٩٩٢ م، ٣٠٤ ـ ٣٠٥، معجم المؤلفين، عمر رضا كحّالة، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م، ١/ ١٦٧، الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢ م، ١/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) ورد في الذيل والتكملة ١/ ١/ ٢١٧ "مختاراً"، والتصحيح هنا من الديباج المذهّب.

(٣) بذلك قال محمد بن شريفة في حاشية تحقيق كتاب الذيل والصلة (حا ١: ١/ ق١/ ٢١٨). والردّ على دعواه، وتفنيد حججه في ذلك جدير بمقالة مستقلّة.

ـ آراء ابن مضاء في كتب د. ضيف:

لم تحظَ آراءُ ابن مضاء النحويّةُ التي صدر فيها عن جرأة وإقدام، ومنها آراؤه في كتابه (الردّ على النحاة) التي قامت على نقض فكرة العامل النحوي بمفهومه المتعارَف عند النحويين، وما يتعلّق بها من تأويلٍ وتقديرِ العوامل والمعمولات، والعلل الثواني والثوالث، والقياس التفسيريّ أو التعليليّ (المنطقي)، والتمارين غيرِ العمليّة = في زمن ابن مضاء أو زمن خالفيه بما حظيت به من اهتمام واحتفاء في زماننا، ولا كُتِب لها في ذلك العصر من الذيوع والاشتهار ما كُتِب لها في هذا العصر، فقد عُني بها العلماء والباحثون المُحْدَثون، ولا سيّما من كانت له صلة بتيسير النحو وتعليمه وتجديده، كبيرَ عناية، وكان أعناهم بها د. شوقي ضيف.

و د. شوقي ضيف (١٩١٠ ــ ٢٠٠٥ م) ــ رحمه الله ــ أوّلُ مَن بعث آراء ابن مضاء، ونشرها بين المعاصرين، إذ نَشَرَ كتابَه (الردّ على النحاة) سنة ١٩٤٧، واحتفى بها في مدخله إليه، وأكثرُ من أفاد في المعاصرين من آراء ابن مضاء وأصوله، واعتمد عليها، ووظّفها في كتبه وأبحاثه التي عقدها لتيسير تعليم النحو وتجديده، وتأريخ النحو العربي: المدخل إلى كتاب (الردّ على النحاة)، و(المدارس النحويّة)، و(تجديد النحو)، و(تيسير النحو التعليميّ قديماً وحديثاً، مع نهج تجديده)، و(تيسيرات لغوية).

وآراءُ ابن مضاء التي عُني بها د. ضيف في تلك الكتب، وردّدها فيها، وأفاد منها أو تبنّاها وعوّل عليها، لم تخرج ــ كما يدلّ الفحص والتتبّع ــ عن دائرة الآراء التي احتواها كتاب ابن مضاء (الردّ على النحاة)؛ إلّا رأياً وافق فيه ابنُ مضاء بعضَ العلماء، عُدَّت فيه "لا سيّما" أداةَ استثناء، ذكره د. ضيف في بعض كلامه[(١)] في توجيه نصب الاسم بعدها على الاستثناء، ونقلَه من كتاب (الهمع)[(٢)].

وكان لآراء ابن مضاء في كتابه (الردّ على النحاة) أثرٌ بنويٌّ عميقٌ في فكر د. ضيف النحويّ، ومشروعه في تيسير النحو التعليميّ وتجديده، فقد كان نشرُه الكتابَ سنة ١٩٤٧ كما صرّح في مقدمة كتابه (تجديد النحو): "باعثاً له منذ تحقيقه على التفكير في تجديد النحو بعرضه عرضاً حديثاً على أسس قويمة تصفّيه وتروّقه وتجعله دانيَ القطوف للناشئة"[(٣)]، وبجوانبَ من أصوله وآرائه استضاء في الأساس الثاني من الأسس التي أقام عليها تصنيفَه الجديدَ للنحو[(٤)]، وبرأيه أخذ في بعض المسائل والأبواب[(٥)]..

---

(١) تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً، مع نهج تجديده، د. شوقي ضيف، دار المعارف ــ القاهرة، ط ٢، ١٩٩٣، ١٠٨، وانظر أيضاً: تجديد النحو، د. شوقي ضيف، دار المعارف ــ القاهرة، ط ٣، ١٩٩٠، ٢٧.

(٢) انظر: همع الهوامع، السيوطي، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلميّة ــ بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م، ٢/ ٢١٦.

(٣) تجديد النحو، ٣.

(٤) المصدر السابق ٤، ٢٣ ــ ٢٥.

(٥) انظر: المصدر نفسه ١٩.

على أن علاقة د. ضيف بآراء ابن مضاء ــ كما يدلّ النظر والتحليل ــ كانت انتقائيّةً، فيها قدرٌ من التحكّم والذاتيّة، اختار من تلك الآراء ما يخدِم مشروعَه في تجديد النحو وتيسير تعليمه، واهتمّ بما يناسب الأصولَ العامّةَ لابن مضاء، وترك منها بعضَ الآراء الجزئيّةِ أو التفصيلية التي تخلخل حكمَه أو تصوّرَه العامّ الذي بناه عن ابن مضاء وفكره النحويّ، أو تُفسدُ الرأي الذي يدلّ عليه بعضُ كلام ابن مضاء دون بعض، أو تدسّ بآخره خيطاً من الاضطراب والتناقض في كلام ابن مضاء بين الرأي والتطبيق.

وإذا كان كلام د. ضيف في كتبه تلك يدلّ على استقبال حفيٍّ ببعض تلك الآراء، وكبير تأثّر، فإنّ في قراءته هنا وهناك ما يدلّ على إعادة إنتاج بعض تلك الآراء تفسيراً وتطبيقاً، فيها ما حفظ للرأي أصلَه، وفيها ما أفسده وأهدره.

وهذا البحثُ يقتصر على النظر في قراءة د. ضيف لرأيٍ من تلك الآراء، قال به ابن مضاء في كتابه (الردّ على النحاة)، وردّده د. ضيف في أكثر كتبه الخمسة، وقرأه قراءةَ تنظير وتفسير وتطبيق أعادت إنتاجه، وهو إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة الواقعة فاعلاً لاستغناء الفعل بمادّته عن ذاك الفاعل غير الظاهر.

ـ رأي ابن مضاء في كلام د. ضيف:

ذكر د. ضيف فيما ذكر من آراء ابن مضاء رأيَه في إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة جوازاً أو وجوباً في مثل: "زيدٌ قامَ" و"أقومُ، نقومُ، تقومُ"؛ لأنّ الفعل لا يشتمل على ضمير مستتر، بل يدلّ على الفاعل بمادّته، كما يدلّ اسمُ الفاعل وما إليه على مرفوعه بمادّته في مثل: "زيدٌ قائمٌ". وبيّنَ د. ضيف في بعض كلامه[1] أنّ ذلك كان بعضَ اختيار ابن مضاءٍ واستدلالِه لبيان نَقْض فكرة المعمولات المحذوفة.

ونسبَ إليه في سياق ذلك أنّه ألغى ضمائر الرفع البارزةَ المتّصلة: ألف الاثنين وواو الجماعة ونون الإناث في مثل: "قاما، قاموا، قمْنَ"، وأنّه أخذ بالرأي الذي يَعُدّ هذه الضمائرَ إشاراتٍ أو علاماتٍ للعدد كما قال المازني، لا ضمائرَ ولا فواعلَ كما زعم النحاة[2].

وزاد في بعض كلامه التاءَ المتحرّكةَ المختصّة بالماضي، إذ قال في أثناء عرض مقترحات لجنة وزارة المعارف المصريّة لتبسيط قواعد النحو والصرف وتيسيرها على الناشئة: وبكلّ ذلك أخذت اللجنةُ، وزادت عليه ـ أي على ابن مضاء ـ ضمائرَ الرفع البارزةَ المختصّة بالماضي في مثل: "قمتُ ـ قمتَ ـ قمتِ". وهي زيادة مفهومة من كلام ابن مضاء، واللجنة بذلك تلتقي به في هذه الفكرة التقاءً تامّاً[3].

---

[1] انظر: تيسير النحو التعليمي ١٩.

[2] انظر: الرد على النحاة، المدخل، ٣٠، تيسير النحو التعليمي ١٩، ٣٥

[3] تيسير النحو التعليمي ص ٣٥.

ـ رأي ابن مضاء بين صيانة النص وتحريف القراءة واختلاف التلقّي والأثر :

يدلّنا النظرُ في كلام د. ضيف على هذا الرأي نظرةً فاحصة في ضوء كلام ابنِ مضاء في كتابه (الردّ على النحاة)، ومعارضتُه في الكتب الخمسة بعضِه ببعض ؛ على كلام يتردّد فيه شيءٌ من صيانة النصّ، وشيء من تحريف القراءة، وشيء آخر من اختلاف التلقّي والأثر.

- **صيانة النصّ :**

كان الأوّل (صيانة النصّ) في وصف د. ضيف رأيَ ابن مضاء في تقدير ضمائر الرفع المستترة وصفاً وافق كلام ابن مضاء في كتابه (الردّ على النحاة)، وتعبيرِه عنه تعبيراً لم يختلف عمّا بدا عليه في كلامه في ذلك الكتاب إلّا في بعض اللفظ. وكلام ابن مضاء في التعبير عن رأيه في هذه الفكرة كان من الوضوح والتصريح بحيث يمتنع اللبس في فهم مقصوده، ويندفع الخطأ في قراءة ذلك الرأي أو استنتاجه.

- **تحريف القراءة :**

وكان الآخر (تحريف القراءة) فيما أصاب كلام د. ضيف حين نسبَ إلى ابن مضاء القولَ بإلغاء ضمائر الرفع المتّصلة (الواو، الألف، النون، التاء) من خطأٍ في الاستنتاج، وزيادةٍ على المحتَمَل احتمالاً في كلام ابن مضاء، وهو ما لا أتردّدُ في وصفه بالتحريف .

وآية ذلك أنّ د. ضيف نسب إلى ابن مضاء القولَ بإلغاء ضمائر الرفع المتّصلة البارزة الدالّة على العدد في مثل : "قاموا، قاما، قمن" حيث ذكر ذلك في كتبه، نسبةً قاطعةً لا تردّد فيها، في حين كان كلام ابن مضاء على ذلك مسُوقاً على وجهٍ من الاحتمال ليس في الكلام ما يرقى به إلى درجة الرجحان، بل إنّ إنعامَ النظر في ذلك الكلام بسياقه وقرائنه اللفظيّة، وترتيبه على منازله تقديماً وتأخيراً ؛ يدلّ القارئ على أنّه وجه مرجوح .

وقولُ د. ضيف في بعض كلامه بإلغاء ابن مضاء ضميرَ التاء المتحرّكة في مثل : "قمتُ ـ قمتَ ـ قمتِ"، وجعلِها حرفَ إشارة، وأنّ ذلك مفهوم من كلام ابن مضاء = اختلاقٌ ليس في كلام ابنِ مضاء ما يُشعر به البتّة، بل إنّ كلامه على تلك التاء حيث تناول مسألة إلغاء تقدير الضمائر المستترة دالٌّ على أنّ تلك التاءَ المتحرّكة ضميرٌ مُعادٌ لا حرفُ إشارة.

وإذا شئت أن تعرف ذلك بنفسك فاقرأ كلام ابن مضاء في هذين الأمرين قراءة مدقّقة .

قال : "فإذا قيل (زيد قام) ودلّ لفظ (قام) على الفاعل دلالةَ قَصْدٍ فلا يُحتاج إلى أن يضمر شيء، لأنّه زيادة لا فائدة فيها، كما كان ذلك في اسم الفاعل، .. وهنا احتمالان : أحدهما أنّ في نَفْسِ المتكلّم ضميراً كما في قولنا : (زيداً ضربته) لكنّه لم يُدَلّ عليه بلفظ، لعلم المخاطَب به ؛ والدليل على ذلك قولُهم في

التثنية : (قاما ويقومان) وفي الجمع (قاموا ويقومون) فهذه ضمائر دُلَّ عليها بألفاظ. والثاني : أن تكون هذه الألف والواو علامتين للتثنية والجمع ، كما قيل (أكلوني البراغيث) جعلَهما بعضُ العرب مع التقديم والتأخير، وجعلهما أكثرُهم مع تأخير الفعل عن الفاعل ، .... .فإن قيل : فما تصنع بقولهم (أنت قمتَ وأنا قمتُ) لم يُغنِهم تقديمُ الفاعل عن إعادته أخيراً؟ قيل : هذا دليلٌ ، ولكن قياس الغائب على المخاطب والمتكلّم ليس بقطعيّ ، ولعلّه يُكتفى في الغائب بالظاهر المتقدّم ولا يُكتفى به في غيره"[1] ..

وفي كلام ابن مضاء على إنكار تقدير الضمائر المستترة في المشتقات ما يقطع أنّ ألف التثنية وواو الجمع ونون الإناث عنده ضمائر. أنكرَ الاستدلالَ لقول النحاة برفع المشتقّات ضمائرَ مستترة ؛ بظهور ضمير الرفع عند العطف توكيداً لذلك الضمير في قولنا : زيدٌ ضاربٌ هو وبكرٌ عمراً " ؛ لأنّ هذا يكون في حال العطف لا غير، ولا تكون حال العطف على قلّتها أصلاً لغيرها على كثرتها ، فلا يُقاس غيرُ العطف على العطف لذلك. ثمّ إنّ قياس غير العطف عليه ظنٌّ ، "وكيف يُثبت الظنُّ شيئاً مستغنًى عنه لا فائدة للسامع فيه ، ولا داعيَ للمتكلّم إلى إثباته ، وإثباته عيٌّ"

ثمّ قال : "ويُسقط ظنَّ قياس العطف أنّ هذه الصفات لم يظهر لها **ضمير في التثنية والجمع كما ظهر في الفعل** ، فيقابل هذا الظنُّ في الإسقاط ذلك الظنّ في الإثبات ، فعلى هذا يكون الإثبات لا دليل عليه قطعيٌّ ولا ظنّيّ. وإثباته في كلام الناس بغير دليل قطعيّ لا يجوز ، فكيف بكتاب الله تعالى ، وادّعاء زائد فيه بظنّ ، والظنّ ليس بعلم"[2] .

والظاهرُ أنّ د. ضيف في آخر كتبه (تيسيرات لغويّة) رجع عمّا نسبه إلى ابن مضاء في ذلك رجوعاً لم يصرّح به ، لكن دلّ عليه تقييدُه رأيَ ابن مضاء في إنكار تقدير ضمير الرفع المستتر لدلالة الفعل عليه ؛ بالفعل إذا لم يكن معه فاعلٌ ظاهر من اسم أو ضمير.قال : ".. لأنّ ذلك مقيّد بأن يكون الماضي للمفرد الغائب أو الغائبة ، وليس معه اسم ظاهر فاعل" ، أمّا حين يكون الفاعل ضميراً أو اسماً ظاهراً مع "قامَ" في مثل : " قام زيدٌ ـ قاما ـ قاموا ـ قام الزيدون" ، فإنّ الفعل حينئذ يليه فاعل كما يلي المضارعَ والأمرَ الفاعلُ ضميراً أو اسماً ظاهراً في مثل : "يقومان ـ .... قُمْنَ " فكلّ هذه فواعل تلي الفعل ...."[3] .

على أنّ ثمة تحريفاً آخر دبّ في أوصال بعض كلام د. ضيف: أراد أن يزيّن الرأيَ الذي نسبه إلى ابن مضاء متحكّماً ومحرِّفاً في أعين القرّاء ، فزيّف بعبارته بعضَ الحقائق تزييفاً تخذه مطيّةً لمراده ، فتنقّص من مذهب الجمهور المخالف لذلك الرأي ، حين عزاه إلى"بعض النحاة" ، فقال : "ونرى ابن مضاء ينتهي في أثناء

---

(١) الرد على النحاة ٩١ ـــ ٩٢.
(٢) المصدر السابق ٨٩
(٣) تيسيرات لغويّة، د. شوقي ضيف، دار المعارف ـــ القاهرة، ط ١، ١٩٩٠، ٢٩ .

تفكيره في هذه المسألة إلى أنّ ضمائر التثنية والجمع في مثل (قاما وقاموا وقُمْنَ) ليست ضمائر كما يزعم **بعض النحاة**، بل هي علامات تدلّ على التثنية والجمع "[١].

وهذه دسيسةٌ تقتضي بمفهوم المخالفة أنّ الرأي الذي نسبه د. ضيف إلى ابن مضاء من كثرة الأنصار والأعوان، في جنب الرأي المخالف، بمكان عليٍّ. وهذا تشويهٌ للحقيقة وعكْسٌ للواقع.

ثمّ ارتقى د. ضيف بلغة (أكلوني البراغيث) مستظهراً بها لهذا الرأي، على قول من يجعل الضمائرَ فيها حروفاً دالّة على العدد تثنية أو جمعاً، فكانت بمنزلة اللغة العليا، لغة جمهور العرب، جوازاً واستعمالاً، حين أغفل ما ينبغي في وصفها والحكمِ عليها، من تقييد بالقلّة أو الشذوذ، مكتفياً بحكم الجواز، ومعتدّاً بما وقع لها من شواهد محتملة في القرآن الكريم والحديث الشريف. قال: "... وهذا نفسه ما تصنعه العربيّة بأدوات التثنية والجمع إذا كان الفاعل مثنى أو مجموعاً، فإنّه إذا تأخّر الفاعل[٢] جاز لك أن تذكَرَ هذه العلامات، وهي لغة طيئ، وبَلحارث بن كعب، وأزد شنوءة، ويسمّيها النحاة لغة (أكلوني البراغيث)، وقد جاءت أمثلة لها في القرآن الكريم والحديث الشريف. ويجوزلك أن تحذف هذه العلامات، وهي لغة جمهور العرب."[٣].

ولو كسر د. ضيف حدّة حماسته وانتصاره لابن مضاء لرجع عن ذلك، ولقال بما نصّ عليه في كتابه (تجديد النحو)[٤]: أنّ هذه اللغةَ شاذّةٌ، تخرج على قواعد النحو، وينبغي إهمالها.

- **اختلاف التلقّي والأثر:**

تجلّى ذلك في موقف د. ضيف المتردّدِ المتقلّبِ من إلغاء ضمائر الرفع المستترة والمتّصلة البارزة. فلو كان لك أن ترصد موقف د. ضيف في كتبه الخمسة من رأي ابن مضاء الداعي إلى إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة خاصّة، وأن تستبين تلقّيَ ذلك الرأي في تلك الكتب، وأثرَه في فكر د. ضيف النحوي ومشروعه في تيسير النحو وتجديده = لبدا لك جليّاً أنّ ذلك كان يختلف باختلاف تلك الكتب؛ وأنّ د. ضيف كان ينتقل فيها من حال إلى حال في حركة دائريّة يشهد لها، عند ترتيب تلك الكتب ترتيباً زمنيّاً، التقاءُ رأيه أو اختياره في أوّل تلك الكتب: المدخل إلى كتاب (الردّ على النحاة) وآخرها (تيسيرات لغوية)، دون سائرها؛ وبذلك انتهى به التقلّب في ذلك إلى حيث بدأ، والتقى رأيُه واختياره مبدأً ومنتهى.

---

[١] الرد على النحاة: المدخل ٣٠

[٢] في الأصل: الفعل، والصحيح ما أثبت

[٣] المصدر السابق ٣٠، ووازن ذلك بما ورد في كتابه تيسير النحو التعليميّ ٢٠ .

[٤] ١٥٤

- **القبول في المدخل إلى (الردّ على النحاة):**

احتفى د. ضيف في المدخل إلى كتاب (الردّ على النحاة) برأي ابن مضاء في إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة، وزيّن الرأيَ الآخر الذي نسبه إليه بشيء من التحريف[١] وحين دعا إلى تصنيف النحو تصنيفاً جديداً، وتكلّم على مسألة إلغاء التقدير والتأويل في الصيغ والعبارات، أنكر رأيَ النحاة في تقدير ضمائر الرفع المستترة جوازاً أو وجوباً، وعدّ ذلك الاستتارَ وهمياً لا دليل عليه، والتقديرَ فيه ضرباً من التكلّف يُحيل على ما لا يُرى ولا يُفهَم في الصيغ؛ وتبنّى رأي ابن مضاء؛ لأنّ الفعل إذا لم يُذكَر فاعله (حُذِفَ أو استتر) دلّ عليه الفعلُ بمادّته. واستحسن هذه الفكرةَ، ورأى جمالَها يبدو أكثر فأكثر في أبواب لا يكاد يتبيّن الإنسانُ فيها الفاعلَ كأبواب التعجّب، في مثل: "ما أحسنَ السماءَ!"، وأفعال الاستثناء: خلا، عدا، حاشا، في مثل: "قام القوم ما خلا زيداً"، ونعم وبئس، والتنازع؛ وعدَّ الفاعلَ فيها محذوفاً وجوباً.

ومدُّ هذه الفكرةِ (حذف الفاعل لدلالة الفعل عليه بلفظه أو مادّته) كما مدَّها د. ضيف، وهو اجتهاد واتّساع في التطبيق، يُغني عن التأويل والتقدير[٢]

- **الوصف والحياد في (المدارس النحويّة):**

كان من أمر د. ضيف في كتابه (المدارس النحويّة) ـ وهو كتاب تطغى عليه صبغةُ تأريخِ المذاهب النحويّة وترجمةِ أهمّ النحويّين ورَصْدِ حركة النحو العربي في تاريخه المتطاول ـ حين ذكرَ رأيَ ابن مضاء، في موضع ترجمته والتعريف بفكره، أن اكتفى بالوصف المتلفّع بالحياد، وبيّن موقعَ ذلك الرأي في سياقه التاريخي، بعيداً عن الموقف الذاتي (الرأي أو الاختيار) رفضاً أو قبولاً. فقد ذكر من رأي ابن مضاء إنكارَ تقديرِ ضمير رفع مستترٍ في نحو: "زيدٌ قام"؛ لأنه فعلٌ لا فاعل له، مبيّناً سَبْقَ الكسائيّ في القول بحذف الفاعل في التنازع، واتّساعَ ابن مضاء بذلك ـ أي حذفِ الفاعل، أو خلوِّ الفعل من الفاعل ـ هنا، ثمّ نَسَبَ إليه نسبةَ جزم وقطعِ القولَ بأنّ الألف والواو والنون في مثل: "قاما، وقاموا، وقمْنَ، ويقومون" ليست ضمائرَ، بل هي علامات تدلّ على التثنية والجمع، وأنّه كان في ذلك يستضيء برأي الأخفش[٣].

- **الرفض المتواري بالصمت في (تجديد النحو):**

لاذ د. ضيف بالصمت في كتابه (تجديد النحو)، فلم يذكر رأي ابن مضاء في ذلك تصريحاً أو إشارة، لا في الكتاب، ولا في مدخله.

---

[١] انظر في مدخل الردّ على النحاة ٢٩ ــ ٣٠.

[٢] انظر في المصدر السابق ٥٦ ــ ٥٨ .

[٣] المدارس النحويّة، ٣٠٥

ولا يبعد أن يكون تجاهلُ ذلك الرأي، وبعضِ ما اتّصل به، من لدن د. ضيف، دالّاً على موقف رافض له. يدفعني إلى ذلك ويدلّني عليه التزامُ د. ضيف في هذا الكتاب بما جرى عليه جمهورُ النحاة من تقدير ضمائر الرفع المستترة وجوباً أو جوازاً، وتصنيفُ ألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة في ضمائر الرفع المتّصلة[1].

وممّا يؤكّد ذلك أنّ ما دعا د. ضيف إلى تطبيق رأي ابن مضاء فيه من نماذجَ غابَ فيها الفاعلُ عن الفعل، وتفسيرِه في ضوء ذلك، نصّ عليه نصّاً في مدخل (الردّ على النحاة) أو أشار إليه إشارة = غاب عن كتاب (تجديد النحو) مدخلاً وكتاباً. وهو في ذلك إمّا أن يكون على خلافٍ بيِّن، وإمّا أن ينبّه على ما كان من حذف الفاعل أو خلوّ الفعل من الفاعل، دون أن يخلع عليه شيئاً من رأي ابن مضاء، ولو قليلاً، إشارة أو تصريحاً.

ترى ذلك في ألفاظ الاستثناء: خلا، عدا، حاشا، التي ترك فيها مذهبَ الجمهور وابن مضاءٍ معاً، فاقتصر على نصب ما بعدها؛ ولم يُشِر إلى جواز الجرّ إذا تجرّدت من "ما"؛ وعدَّها مع "ما" ودونها أدوات استثناء، يُنصَب ما بعدها على الاستثناء؛ وانتقدَ القولَ بفعليّة هذه الألفاظ، وما يقتضيه من تقدير فاعل مستتر وجوباً؛ لما فيه من إسرافٍ في الإعراب، وخلوّ ذلك الإعرابِ العسير من معنى الاستثناء نصّاً أو إشارة؛ وعَدَّ الرأيَ الذي اقترحه ورآه أوضحَ وأدخلَ في المنطق، يجتاز به صعوبةً بل لغزاً في باب الاستثناء[2] وتراه في كلامه على فعلي التعجّب "ما أفعَلَه! وأفْعِلْ به!" الذي قدّر فيه للفعل فيهما ضميراً مستتراً تقديره في الأوّل "هو"، يعود على "ما"؛ وفي الثاني "أنت"[3].

وتراه في كلامه على نحو "أقبل وتكلّم زيدٌ" الذي يتنازع فيه الفعلان الاسمَ يطلبانه فاعلاً؛ فقد عدّ الاسم فاعلاً للفعل الثاني، وحكم بحذف فاعل الفعل الأوّل لدلالة السياق عليه، وهو ما عزاه نصّاً إلى سيبويه والكسائي[4].

ذكر ذلك كلّه دون أن يذكر رأيَ ابن مضاء، ولو إشارة، هنا وهناك. فكأنّه كان بذلك في حال من يرضى اعتزال رأي ابن مضاء في ذلك.

---

(١) انظر مثلاً في تجديد النحو: ٦٧ ــ ٦٨، ٧٢، ٧٥ ــ ٧٦، ٧٨، ٨١، ١١٢ ــ ١١٣ .

(٢) انظر رأيه في ذلك في المصدر السابق ٢٧ ــ ٢٨، ١٨١ .

(٣) المصدر نفسه ١٩٠ ــ ١٩١ .

(٤) انظر في المصدر نفسه ١٩، ١٥٦، ٢٣٨

• الرفض المؤيّد بالنقد في (تيسير النحو التعليمي):

استولى على موقف د. ضيف في كتابه (تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده) الرفضُ والنقد. بَسَطَ القولَ في إنكار ابن مضاء تقديرَ ضمائرِ الرفع المستترة، والرأيَ الذي نسبه إليه من إحالة ألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة حروفَ عدد أو علاماتِ عدد، وضمائرِ الرفع المتّصلة البارزة (التاءات) حروفَ إشارة، في غير موضع؛ وبيّنَ موقع ابن مضاء من الرأي الأخير حين قرّر أنّه أخذ فيه ــ كما قال د. ضيف ــ برأي المازني، كما بيّن امتدادَ هذين الرأيين في مقترحات لجنة وزارة المعارف المصريّة لتبسيط قواعد النحو وتيسيرها على الناشئة سنة ١٩٣٨، وقرارات مؤتمر مجمع اللغة العربيّة في القاهرة سنة ١٩٤٥؛ ثمّ أدلى بدلوه، وأعلن موقفَه، فانتقد ذلك كلّه بما فيه من فكرة إلغاء ضمائر الرفع المستترة، وضمائر الرفع المتّصلة البارزة؛ لأنّها في رأيه تُحدِث اضطراباً وخلخلة في باب الفعل والفاعل، لما تُفضي إليه من كون الأفعال قسمين: أفعالاً لها فواعل، وأفعالاً لا فواعل لها، وهو ما يحدث بلبلةً في أذهان الناشئة[١]. ومن هنا رأى أن يظلّ النحو التعليميّ على ما هو عليه من اعتداد بضمائر الرفع المستترة، والضمائر المتّصلة البارزة، وإعرابِها فواعلَ، كما أعربها النحاة، أخذاً بقانون الاطّراد في وضع القواعد[٢].

وهذا كما لا يخفى يدلّ على رؤيةٍ تربويةٍ تعليميّة محضة تنأى عن التصوّر العلميّ الموضوعيّ الدقيق.

وكان ممّا انتصر به د. ضيف لذلك أنّ ضمائر الرفع المتّصلة بالماضي (التاءات) عند التأمّل مقتطَعَةٌ من الضمائر المنفصلة المقابلة لها "أنت" وفروعه؛ وأنّ الهمزة والنون والتاء في مضارع المتكلّم والمتكلّمين والمخاطَب على التوالي تضاهي مثيلاتِها في ضمائر الرفع المنفصلة "أنا، نحن، أنت". وعدَّ ذلك كلّه على التقدير والفرض دليلاً على أنّ النحاة كانوا في منتهى الدقّة حين عدُّوا التاءَ المتحرّكة في مثل "قمتُ" ضمير رفع متّصلاً بارزاً، وحكموا على مضارع المتكلّم بتحمّله ضمير رفع مستتر وجوباً[٣].

ويصحُّ الاستدلالُ هنا لموقف د. ضيف الرافضِ لرأي ابن مضاء بما كان من استدلالٍ في الكلام على موقفه في كتابه (تجديد النحو): من التزامِ مذهبِ الجمهور في تقدير ضمائر الرفع المستترة، وتصنيفِ ألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة في ضمائر الرفع المتّصلة[٤]؛ وغيابِ أثر رأي ابن مضاء مثلاً عن الكلام على ألفاظ الاستثناء: خلا، عدا، حاشا، مصدّرةً بـ "ما" أو مجرّدةً منها[٥]، وفعلي التعجّب: ما أفعله! وأفعل به[٦]!.

---

[١] انظر في تيسير النحو التعليمي: ١٩، ٣٥ ــ ٣٦، ٤١ ــ ٤٣، ٤٥

[٢] انظر في المصدر السابق ٣٦، ٤٢ ــ ٤٣.

[٣] المصدر نفسه ٤٢.

[٤] انظر في المصدر نفسه مثلاً ١٧١

[٥] المصدر نفسه ١٢٥، ١٢٦، وفيه أيضاً ٤٣ ــ ٤٤.

[٦] المصدر نفسه ١٢٩ ــ ١٣٠، وانظر أيضاً ٣٧، ٣٨، ٤٤.

• الاحتفاء والاتساع في التطبيق في (تيسيرات لغوية):

إذا انتهيْتَ إلى كتاب د. ضيف (تيسيرات لغوية) بدا لك فيه يتلقّى رأيَ ابنِ مضاء في منع تقدير ضمائر الرفع المستترة، لتعبيرِ الفعل بمادّته عن فاعله الذي يقدّره النحاة ضميراً مستتراً، بقبولٍ حسن، ويحتفي به أكبرَ احتفاء، ويتّسعُ في تطبيقاته.

ولقائلٍ أن يقول: وبمثلِ ذلك تلقّى د. ضيف هذا الرأي في المدخل إلى كتاب ابن مضاء (الردّ على النحاة) فهلْ كان في ذلك ضَرْبُ مطابقة ؟

وللمدقّق أن يُجيب: إنّ اتفاق الموقف في الموضعين، وما فيه من شبهٍ ظاهر، لا يبلغ عند التحقيق مبلغَ المطابقة؛ لما بينهما من اختلاف لا يقتصر على الشكل والتعبير: إجمال كان في الأوّل، وتفصيل في الثاني، بل يمتدّ إلى بنية الاستدلال وقراءة الرأي والاتساع في تطبيقاته. وفي كلّ ذلك شيءٌ من الاحتفاء وحسن التلقّي ومظاهره.

قرأ د. ضيف رأيَ ابن مضاء في ضوء كلامه وأمثلته وأدلّته كما كانت في كتابه (الردّ على النحاة) قراءةَ أناةٍ ولَبْثٍ انتهت به إلى ضبط ذلك الرأي وتقييده. فالفعلان الماضي والمضارع على مذهب ابن مضاء ما لم يظهر فاعلُهما يدلّان بمادّتهما على ذلك الفاعل الذي يقدّره النحاةُ ضميراً مستتراً جوازاً أو وجوباً.

وقد صرّح د. ضيف أنّ ذلك مقيَّدٌ بالفعل إذا لم يلِه فاعلٌ، ضميرٌ أو اسم ظاهر. فكأنّه كان بذلك، ولاسيّما في ضوء الأمثلة التي ساقها في ذلك، يبرأ ممّا نسبه إلى ابن مضاء في غير موضع من كلامه من إلغاء ضمائر الرفع البارزة المتّصلة؛ لأنّها إشارات أو علامات للعدد، لا ضمائرُ ولا فواعلُ، ويرجع عنه.

قال: أمّا حين يكون الفاعل ضميراً أو اسماً ظاهراً مع قام في مثل: " قام زيدٌ ـ قاما ـ قاموا ـ قام الزيدون" فإنّ الفعل حينئذ يليه فاعل كما يلي المضارعَ والأمرَ الفاعلُ ضميراً أو اسماً ظاهراً في مثل: "يقومان ـ يقومون ـ ..." فكلّ هذه فواعل تلي الفعل[1]..

ورأى خلال ذلك أن يمدّ رأيَ ابن مضاء الذي وقف عند الفعلين الماضي والمضارع كما تدلّ أمثلتُه، ليشملَ أمرَ المفرد المخاطب. قال: ونستطيع أن نمدَّ رأيه ليشمل الأمر للمفرد المخاطب في مثل: "اكتبْ" فهو يدلّ بصيغته على الفاعل، بل ربّما كانت دلالته أقوى، لأنّ الفاعل معه في تقدير النحاة ضمير مستتر وجوباً مثل فواعل المضارع حين تكون ضميراً مستتراً وجوبا، فإنّها واجبة الاستتار دائماً معه.[2]

---

[1] انظر: الردّ على النحاة: المدخل ص ٣٠، تيسير النحو التعليمي ١٩، ٣٥ .

[2] تيسيرات لغوية ٢٩. المصدر السابق ٢٨ .

• الاستدلال لرأي ابن مضاء:

من مظاهر الاحتفاء برأي ابن مضاء والتلقّي التي كان فيها شيء من الاختلافِ الاستدلالُ له تأييداً وانتصاراً. وإذا كان د. ضيف قد وظّف لذلك ما أمكنَ توظيفُه من قرائنَ أو أدلّةٍ بدت له في كلام ابن مضاء في المدخل إلى كتاب(الردّ على النحاة)[(١)] فإنّه ترك ذلك هنا في كتابه (تيسيرات لغويّة)، واستدلّ له بما لم يكن في كلام ابن مضاء، وتجلّى ذلك في ثلاثة أمور:

١ ـ الاستدلال بواقع فِعْلَي الأمر والمضارع اللذين يغيب الفاعل عنهما كلّيّاً في كلّ حال. فقد عدّ ذلك "من أقوى الأدلّة على صحّة رأي ابن مضاء، إذ لا يوجد بحال من الأحوال [(٢)]".

٢ ـ الاستدلال برأي بعض علماء اللغات المشهورة بـ (*الساميات*) أنّ حروف المضارعة: الهمزة والنون وتاء المخاطب في مثل: "أكتبُ ـ نكتبُ ـ تكتب" مقتطعةٌ من ضمائر الرفع المنفصلة (أنا ـ نحن ـ أنت).

قال: "وفي هذا دليل قويٌّ على سداد رأي ابن مضاء في أنّ الفعل المضارع يدلُّ بمادّته في الصيغ السابقة على الفاعل، تماماً مثل "قام" في قولك: "زيدٌ قام[(٣)]".

وهذا الدليل عند التأمّل ذو وجهين؛ لأنّه مبنيٌّ على التقدير والظنّ، لا القطع واليقين. فإذا وشَت حروفُ المضارعة تلك بفاعل ذلك الفعل، فكان الفعل دالّاً ببعض مادّته على فاعله، لم يمتنعْ أن توحيَ تلك الحروفُ بأنّ فواعلَ تلك الأفعال ضمائرُ مستترة تدلُّ عليها وتبوح بها.

ومن هنا لم يتردّد د. ضيف في الاتّكاء على هذا الدليل في غير هذا الموضع، لانتقاد رأي ابن مضاء وتأييد رأي النحاة في تقدير ضمائر الرفع المستترة[(٤)].

وبذلك كان الاستدلال بهذا الرأي هنا كما كان الاتّكاء عليه هناك بآخرة ضعيفاً لا يرقى إلى درجة القطعيّ المُحكَم، لتمكُّن الاحتمال والتقدير منه.

٣ ـ الاستدلال بغياب الفاعل غياباً مطّرداً عن الفعل في بعض الصيغ كأفعال الاستثناء وفعلي التعجّب، وكثر ما، وقلّما، وطالما، على صحّة رأي ابن مضاء. ففي حين كان يفسّر غيابَ الفاعل عن هذه الأفعال ويسوّغه برأي ابن مضاء باستغناء الفعل عن فاعله لدلالته بمادّته عليه كان يعدّ هذه الصيغَ

(١) انظر: الرد على النحاة ٣٠.

(٢) تيسيرات لغوية ٢٨ ــ ٢٩. "

(٣) المصدر السابق ٢٨

(٤) انظر: تيسير النحو التعليمي ٤٢ ــ ٤٣. على أنّ د. ضيف ثمّة لم يعزُ هذا الرأي كما عزاه هنا، ودلّ كلامه ثمّة دلالة أقرب إلى التصريح أنّه ثمرة تأمّل واستنتاج قادته إليها قريحته

برهاناً قويّاً ودليلاً واضحاً على صحّة رأي ابن مضاء في دلالة الفعل بمادّته على فاعله، حين لا يلي ذلك الفعلَ فاعلٌ ضميرٌ أو اسم ظاهر[١].

وبذلك كان د. ضيف يقلّب قولَ ابن مضاء بين الرأي يُطلَب له الدليلُ، والدليلِ يُستدَلّ به لغيره. ومن هنا كانت العلاقةُ بين رأي ابن مضاء وتلك الصيغ كما بدت في كتاب (تيسيرات لغويّة) استدلاليّةً تبادليّة: يستدلّ برأي ابن مضاء لتفسير غياب الفاعل عن الفعل في تلك الصيغ وتسويغه، وهو الغالب، وينتصر بغياب الفاعل عن الفعل في تلك الصيغ لذلك الرأي حيناً.

• • صور التطبيق والاتساع في رأي ابن مضاء:

كان تطبيقُ رأي ابن مضاء، وهو أثر من أثر التلقّي العميق، وضربٌ من الاجتهاد في التعبير عن حسن القَبول، واستيعاب الفكرة، أوسعَ ما كان في هذا الكتاب.

جزمَ د. ضيف بدقّة ابن مضاء منتهى الدقّة فيما قرّره من دلالة الفعلين الماضي والمضارِع، إذا لم يكن لهما فاعل ظاهر اسم أو ضمير، بمادّتهما على الفاعل المضمر، دون حاجة إلى تقدير ضمائرَ مستترة؛ ومدّ ذلك إلى أمر المخاطَب، ورأى ذلك قاعدةً تحلّ مشاكلَ غياب الفاعل في صيغ يطّرد فيها ذلك الغياب. ثمّ أخذ يفسّر في ضوء ذلك غيابَ الفاعل المطّردَ عن أفعال الاستثناء وفِعلَي التعجّب: ما أفعَلَه! وأفْعِلْ به! وكثرما وقلّما وطالما، والفعلِ الأوّل في صيغة التنازع، إذا لم يُذكَر فاعلُه؛ وغيابِ الفاعل في بعض آي القرآن والقراءات القرآنيّة وحديث النبيّ ﷺ، وكلام العرب شعراً ونثراً.

ثمّ كانت أوسعُ خطواته حين توسّل بقول ابن مضاء في تفسير غياب نائب الفاعل عن الفعل المبني للمجهول إذا اقتصر على ظرف غير متصرّف أو جارّ ومجرور؛ وقرّر أنّ ذلك الفعلَ حينئذ يستغني عن نائب الفاعل بمادّته أو صيغته[٢].

وإذا كانت بعضُ صور التطبيق والاتّساعِ فيه هنا: تفسيرُ غياب الفاعل في بعض آي القرآن والقراءات القرآنية وحديث النبي ﷺ وكلام العرب شعراً ونثراً، وغيابِ نائب الفاعل عن الفعل المبنيّ للمجهول إذا اقتَصَر على ظرف غير متصرّف أو جارّ ومجرور = زيادةً محضة على ما كان في المدخل إلى كتاب (الردّ على النحاة) لا تجد أثراً لها فيه، فإنّ الصورَ الأخرى لم تخلُ من زيادة تفصيل وتفسير واستدلال أو زيادة مفردات وجزئيّات، مجتمعتين أو منفردتين.

---

[١] انظر: تيسيرات لغوية ٣٠، ٣٣ .

[٢] انظر: المصدر السابق ٤٤ ــ ٤٥، ٤٨.

ـ أفعال الاستثناء:

زاد في أفعال الاستثناء على "خلا، عدا، حاشا" التي أراد أن يفسّرها في ضوء رأي ابن مضاء لغياب الفاعل غياباً مطّرداً عنها، الفعلين: لا يكون، وليس، في نحو: "قام القوم لا يكون زيداً، قام القوم ليس زيداً"، اللذين قلّبهما على النقصان وغياب الاسم عنهما على رأي البصريّين تارة، وعلى التمام وغياب الفاعل عنهما على رأي الكوفيّين كما نصّ تارة أخرى.

وزيادةُ هذين الفعلين لا تعدو في تقديري السعيَ إلى استيعاب أفعال الاستثناء جميعاً. لكنّ كلام د. ضيف عليهما عند النظر والمراجعة يدلّنا على أمرين:

١ ـ تقليبُ الفعلين على التمام والنقصان تارةً فتارة بعيداً عن القطع بأحدهما أو الميل إليه، دالٌّ على حياد وتوقّف عن الاختيار. وهو ما يعني بآخرة أن د. ضيف رجع عمّا ذهب إليه من قبلُ واعتمده ودعا إليه، على الأقلّ في كتب النحو التعليمي، من أنّ "كان" وأخواتها أفعال لازمة، يكون المرفوع بعدها فاعلاً، والمنصوب حالاً[١]؛ أو توقّف فيه.

٢ ـ نسبةُ القول بتمام هذين الفعلين أو لزومهما، وهو قطعةٌ من نسبة القول بذلك في "كان" وأخواتها عامّة مع كون المرفوع بعدها فاعلاً، والمنصوب حالاً، إلى الكوفيّين بإطلاق كما كان في معظم كلام د. ضيف[٢]، متابعةً لما وقع في كلام بعض القدماء والمتأخرين في المنصوب بعدها[٣]، أو مقيّداً بالكوفيّين بعد الفرّاء (ت ٢٠٧ هـ) كما ورد في بعض كلامه[٤] = مبنيّةٌ على تقليد مُضِلٍّ، وتفتقرُ إلى التحقيق الذي يضبط القولَ فيها على وجهه.

ولو ضبط د. ضيف ذلك في ضوء ما نُسِب إلى الكوفيين فيه، وما ورد في كتبهم التي انتهت إلينا، لقيّد ذلك فقال: في بعض ما نُسِب إلى الكوفيّين من رأيٍ في منصوب "كان" وأخواتها؛ لأنّ للكوفيّين في ذلك غيرَ رأي، والمعتمَد من ذلك في كتبهم أنّ "كان" وأخواتها ترفع اسماً وتنصب خبراً.

---

[١] انظر: الردّ على النحاة، المدخل ٥١، تجديد النحو ١٢ ــ ١٤، ١٨٤ ــ ١٨٥، تيسير النحو التعليمي ٥٠، ٦٩، ٩٠ ــ ٩٥.

[٢] انظر: الردّ على النحاة، المدخل ٥١، تجديد النحو ١٢، تيسير النحو لتعليمي ٥٠، ٦٩.

[٣] انظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، تح: د. جودة مبروك، مكتبة الخانجي ــ القــاهرة، ط ١، ٢٠٠٢م، ١٢٩ ــ ١٣٣، المسألة ١٧، ارتشاف الضرب، أبو حيان الأندلسي، تح: د. رجب عثمان محمّد، مكتبة الخانجي ــ القاهرة، ط ١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م، ١١٤٦؛ والتذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيّان الأندلسي، تح: د. حسن هنداوي، دار القلم ــ دمشق، ط ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠ م، ٤/ ١٣١، والهمع ١/ ٣٥٣. ونُسب إلى الفرّاء في مختار تذكرة أبي عليّ الفارسي وتهذيبها، ابن جني، تح: د. حسين بو عباس، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، الرياض، ط ١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١٠ م، ٢٩٢. على أنّك لا تجد في هذه المصادر أو في سواها أيّ نصّ على أن الاسم المرفوع بعدها على رأيهم فاعل. وفي بعضها كالتذييل ٤/ ١١٥، والارتشاف والهمع أنّ مذهب الكوفيين غير الفرّاء في ذلك المرفوع بقاؤه على رفعه الذي كان في الابتداء عليه.

[٤] انظر: تيسير النحو التعليمي ٩٠

فهذا الفرّاء مثلاً، وهو من أشهر أئمة الكوفيّين، كان من شأنه إذا تكلّم على بنية "كان" الناقصة في كتابه (معاني القرآن)، أن يسمّيَ المرفوع بعدها اسماً لها، دون أن يحمل المنصوبَ البتّة على الحال أو القطع[1]، وهما مصطلحان استعملهما في التعبير عن مفهوم "الحال" النحويّ.

وإذا غاب عن كلام الفرّاء في (معاني القرآن) التصريحُ بحال منصوب "كان" وأخواتها فهذا ثعلبٌ (ت٢٩١هـ) يقول: يقول: الفرّاء يقول: لدن [غدوة] ينصب ويرفع ويخفض، فتأويل الرفع: لدن كان غدوةٌ، **وينصب بخبر كان،** ويخفض بـ "عند"، أي: عند غدوةٍ ..[2].

وذاك ابن سعدان الكوفي (ت ٢٣١ هـ) يقول: واعلم أنّ كان ولم يكن وليس وأمسى ... وما اشتُقّ من هذه **يرفعن الأسماءَ ونعوتَها وينصبن الأخبار**. تقول: كان عبدُ الله الظريفُ قائماً، رفعتَ "عبد الله" لأنّه اسم لـ"كان"، ونصبت "قائماً" لأنّه خبر لـ "كان". قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ [النحل: ٥٨، الزخرف: ١٧].[3]

ـ طالما وقلّما وكثرما:

على أنّ زيادة الأفعال "طالما، قلّما، كثرما" هنا ـ وهي زيادة محضة، فقد ورد الكلام عليها قبلُ مختصَراً في كتابه (تجديد النحو) في (باب الحذف والذكر)[4] منقطعاً عن رأي ابن مضاء أو سياقه ـ في تطبيقات رأي ابن مضاء، والأمثلةِ التي تفسَّر في ضوئه، كانت عند التحقيق في غير محلّها، مختلفةً عن نظائرها؛ لأنّ اقتران هذه الأفعال بـ "ما" الزائدة منعها من طلب الفاعل، وكفّها عنه، فلم يكن بها لذلك احتياج إلى فاعلٍ غاب، فيصحّ اللجوء إلى رأي ابن مضاء لتفسيره.

ويؤكّد لك ذلك خُلُوّ كلام د. ضيف على هذه الأفعال ممّا يدلّ على ارتباطها برأي ابن مضاء، ولو إشارةً.

ونصُّه في الاستدلال بهذه الأفعال على صحّة رأي ابن مضاء، إذ قال: "وهذه الأفعال الثلاثة" قلّما، كثرما، طالما "تُعَدّ برهاناً قويّاً ... على صحّة ما ذكره ابن مضاء من أنّ الفعل حين لا يليه فاعل منطوق به يدلّ

[1] انظر مثلاً في معاني القرآن، الفرّاء، تح: محمد علي النجار، أحمد يوسف نجاتي، عبد الفتاح شلبي، عالم الكتب ــ بيروت، ط ١، ١٩٨٠ م، ١/ ١٨٦، ٢٣٧، ٢٦٩، ٢٨١، ٣٦٠ ــ ٣٦٣، ٣٧٢، ٢/ ٢٧٢، ٢٧٥، ٣٢٨، ٣/ ٢١٥.

[2] مجالس ثعلب، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف ــ القاهرة، ط ٢، ١٩٦٠، ١/ ١٦٠

[3] مختصر النحو، ابن سعدان الكوفي، دراسة وتحقيق: د. حسين أحمد بو عباس، حوليّات الآداب والعلوم الاجتماعيّة، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الرسالة ٢٣٧، الحوليّة ٢٦، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م، ٦٤، وانظر فيه أيضاً ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٨٧، ١٠٥.

[4] ٢٣٨

على فاعله بمادّته "[١] = دليل على ارتباطٍ آخرَ يختلف اختلافَ ضدٍّ يبلغ حدَّ العكس ؛ لأنّ الارتباط المراد الذي نعنيه ونبحث عنه يكون فيه رأي ابن مضاء حجّةً ودليلاً على غياب الفاعل عن تلك الأفعال .

ثمّ كيف يصحّ للدكتور ضيف أن يزجّ بهذه الأفعال في هذا الباب ، وقد نصّ على أنّها "أفعال لا فواعل لها البتّة"[٢] ؟! إلّا أن يكون قوله "لا فواعل لها" تنويعاً في العبارة يتّسع لما لم يكن له فاعل البتّة ، على تقدير النحاة ، ولما غاب عنه فاعله حذفاً أو إضماراً.

ـ رجوعه عن رأيه في فاعل "نعم وبئس" :

وإذا كان لقارئ أن يستدرك فيقول : تركَ د. ضيف هنا ما كان يرى إنفاذَ رأي ابن مضاء فيه في المدخل إلى كتاب ابن مضاء (الردّ على النحاة) ، وهجرَ ما راوده ثمّة من إمكان تفسير فاعل "نعم" و"بئس" بذلك الرأي ؛ لأنّه محذوف وجوباً.[٣]

قيل : كان ذلك منه ، إذ سكت عنه ، فلم يُشر إليه البتّة هنا أو في أيّ موضع آخر من كتبه غير ذلك الموضع ، رجوعَ فضيلة ، فلعلّه وقعَ في باله ما غفل عنه ثمّة وأخطأ فيه ، فهجره هجراناً لا عودة عنه ، بعد ما بدا له ما فيه ؛ لأنّ فاعل هذين الفعلين لا يُحذَف وجوباً ، بل الأصل ذكرُه ، وإذا حُذِف لعلّة لم يُغنِ الفعلُ فيهما عنه بمادّته أو صيغته ، بل دلّ عليه غيره ؛ فإذا أُضمِر وجوباً في نحو: "نِعْمَ رجلاً زيدٌ ، ونعم رجلين القوي والجريء فُسِّر بتمييز يعود إليه ويدلّ عليه ، وهي حالة نصّ عليها العلماء"[٤] ، فكان التمييز بذلك دليلاً له وكاشفاً عنه ، لا صيغة الفعل أو مادّته.

وكان د. ضيف إذا أراد أن يُفسِّر تلك الصيغ والتراكيب التي غاب عنها الفاعل في هذا الكتاب (تيسيرات لغوية) عرضَ آراء العلماء فيها أو توجيهاتِهم إمّا كانت ؛ فأمّا ما بُني على خلاف رأي ابن مضاء فكان من أمره فيه أن يتنقّصه ما وجد إلى ذلك فيه سبيلاً ، وأمّا ما كان منها موصولاً برأي ابن مضاء أو فيه ما يُفضي إليه ، فكان يحتفل به ، ويسوقه على أحد وجهين : إمّا أن يذكره ذِكرَ استحسان على أنّه واسطة تنتهي به إلى رأي ابن مضاء ، وإمّا أن يذكره بإزاء رأي ابن مضاء على أنّه أحد اختيارين : يذكرهما على حدٍّ سواء ، فلا تفضيلَ ولا إيثار ، أو يرجّحَ عليه قولَ ابن مضاء الذي يصفه بما يرى فيه من أوصاف التفضيل. ترى ذلك في كلامه ، ويتراءى لك من ورائه قدرٌ من تحيّز وهوى صادر عن أخيذٍ استبدَّ به رأيُ ابنِ مضاء.

---

[١] تيسيرات لغوية ٣٣ .

[٢] تجديد النحو ٢٣٨، تيسيرات لغوية ٣٢.

[٣] ٥٧ ــ ٥٨ .

[٤] انظر: شرح الرضيّ على الكافية، تصحيح وتعليق: يوسف عمر، جامعة قاريونس ــ بنغازي، ط ٢، ١٩٩٦ م، ٤/ ٢٤٣ ــ ٢٤٩، والارتشاف ٢٠٤٨ ــ ٢٠٥١، والهمع ٣/ ١٩ ــ ٢٧، والنحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف ــ القاهرة، ط ٤، ٣/ ٣٧٠ ــ ٣٧٢.

فهذا د. ضيف مثلاً حين أخذ يفسّر غيابَ الفاعل عن أفعال الاستثناء جعل يرمي المذاهبَ المبنيّةَ على تقدير الفاعل فيها ضميراً مستتراً وجوباً، ومنها رأي الجمهور: البصريين والكوفيين، بالتكلّف غايةِ التكلّف. ثمّ آثر عليها مذهبَ الفرّاء الذي رأى "حاشا" فعلاً لا فاعل له، وهو ما مدّه أبو حيّان إلى الفعلين "خلا، وعدا"، فكانت هذه الأفعال الثلاثة بذلك لا فواعل لها.حتّى إذا سدّد د. ضيف هذا الرأي، وتخذ هذه الأفعالَ دليلاً على صحّة رأي ابن مضاء، رأى طَرْدَ رأيِ الفرّاء في الفعلين الآخرين "لا يكون، وليس" ـ وهو منه ضَرْبٌ من القياس والمجانسة ربما كان فيه قلق ونُبُوٌّ؛ لأنّ المألوف فيهما على أصل استعمالهما ظهور مرفوعهما، بخلاف "خلا، وعدا، وحاشا" في غالب استعمالها، وهو الاستثناء ـ بحيث يكونان فعلين لا فاعل لهما على رأي من يرى التمامَ فيهما، أو لا اسمَ لهما؛ أو فرْضَ رأي ابن مضاء عليهما، فيستغنيان بمادّتهما عن الفاعل.

"وبذلك ـ كما قال د. ضيف ـ يحلّ لنا ابنُ مضاء مشاكلَ إعراب أفعال الاستثناء جميعا [1]".

ـ صيغتا التعجّب:

وحين خاض د. ضيف في صيغة التعجّب "ما أفعلَه!" انتقد تقديرَيِ الأخفش اللذين كانت "ما" فيهما نكرةً موصوفة، أو اسماً موصولاً، مبتدأً خبره محذوف، ووصفه بـ "غير قليل من التكلّف". وانتقد رأيَ البصريين الذين جعلوا "ما" نكرةً تامّة بمعنى شيء مبتدأ خبره الجملة الفعليّة التالية التي يُقَدَّر الفاعلُ فيها ضميراً مستتراً عائداً على "ما"، وهو رأي نفاه عن الأخفش، بل نسب إليه إنكارَه[2]، ولم يحفظه من القدح أن آثره على تقديري الأخفش؛ لأنّه"أولى منهما"؛ فاعترف "بأنّ هذا التقدير ـ أي تقدير البصريين: شيء حسّن الرياضَ ـ يحمل شيئاً من التكلّف؛ لأنه يجعل العبارة "ما أحسنَ الرياضَ!" خبريّة بينما هي تعجّبيّة إنشائيّة، ولا ريب في أنّه يُسقط منها معنى التعجّب"[3].

فرّ من هذين الرأيَين، وكأنّي به يرى في تقدير الفاعل فيهما ضميراً مستتراً شبحاً يحوم حوله، ولاذ بما قال به الكسائي من أنّ "ما" تعجّبيّة، حرفٌ لا محلَّ له من الإعراب، فاستمسكَ به، وأفاد منه، إذ رتّب عليه خلوَّ الفعل في هذه الصيغة من الفاعل، وانتهى بذلك إلى رأي أو توجيه جديد لم نعلمه في الأوّلين.

قال: وإذا أخذنا برأي الكسائي في "ما" التعجبية كان الفعلُ الماضي بعدها لا يحمل ضميراً مستتراً وجوباً فاعلاً لها، بل كان فارغاً تماماً من الضمير[4].

---

[1] انظر رأي د. ضيف في كتابه تيسيرات لغوية ٢٩ ـــ ٣٠.

[2] وهذا فيه نظر؛ لأنّ ذلك ممّا نُقِل عنه، أو نُسِب إليه. انظر: شرح الرضيّ ٤/ ٢٣٣، والارتشاف ٢٠٦٥

[3] تيسيرات لغويّة ٣١ .

[4] تيسيرات لغويّة ٣١ .

حتى إذا وصل إلى مبتغاه ، ووجده منفذاً إلى رأي ابن مضاء فزعَ إليه في حلّ مشكلة خلوّ الفعل من الفاعل ، فقال : "والحلّ مفتاحه بسيط ، هو رأي ابن مضاء في أنّ الفعل قد يستغني عن الفاعل لدلالته عليه بمادّته ...."[1] .

وكلام د. ضيف هنا فيه شيء من التخليط والتحكّم دعّهُ إليهما التحيُّزُ دعّاً .

أمّا الأوّلُ فتراه في التعقيب على رأي البصريّين الذي رأى أنّ تقديرَهم فيه : "شيءٌ حسّن الرياضَ" ينزع من الصيغة معنى التعجّب والإنشاء ، فتؤول خبريّة.

وهذا عند التحقيق غيرُ متعيّن ؛ لأنّ هذا التقدير تقديرُ تقريبٍ ، لا يلزم منه مطابقةُ حقيقة العبارة ونمطِها الأسلوبيّ خبراً أو إنشاءً ، فـ "كلُّ مؤوّل بشيء ليس حكْمُه حكمَ ما أُوِّل به"[2] . وهو عند النظر يشبه أن يكون تقدير إعراب ، فلا يتضمّن لزوماً الدلالة النحويّةَ أو البلاغيّةَ ، إذ "ليس يمتنعُ أن يكون تفسيرُ المعنى مخالفاً لتقدير الإعراب" كما نصَّ ابنُ جنّي[3] ، ولا أن يكون تقديرُ الإعراب مخالفاً للمعنى. وذلك المعنى النحويُّ أو البلاغيّ يولّده حينئذ أو يبيّنه السياقُ أو المقام ، أو يكون ثمرةَ دلالةٍ عرفيّةٍ تواطأ عليها المتكلّمون في استعمال هذا التركيب أو ذاك في كلامهم لمعنى بعينه .

على أنّ معنى التعجّب في هذه الصيغة على هذا التقدير كما قال بعضُ العلماء مستقًى من التنكير ؛ لأن التنكير يناسب معنى التعجّب.[4]

على أنّ د. ضيف قدّره في بعض كلامه في غير هذا الكتاب تقديرَ استفهام ، فقال : "كأنّك تقول : ما الذي جمّله ؟ تعجّباً"[5] .

فهل كان ذلك لوناً آخر من التعبير عن تحفُّظه من هذا التقدير الذي تحفَّظَ منه هنا ، ورماه بما رماه ؟

وأما الثاني فكان في توظيف رأي الكسائي في "ما" ؛ إذ نمّاه ، ورتّب عليه أنّ الفعل الماضي بعدها لا يحمل ضميراً مستتراً وجوباً فاعلاً له ، بل يكون فارغاً من الضمير .

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكلّيات، أبو البقاء الكفويّ، تح: د. عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة ناشرون ــ بيروت، ط ٢، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م، ص ١٠٠٢. وفيه "الشيء" محلّ "بشيء"، وهو تصحيف.

(٣) المنصف شرح كتاب التصريف، ابن جني، تح: إبراهيم مصطفى، عبد الله أمين، وزارة المعارف، إدارة الثقافة العامّة ــ القاهرة، ط ١، ١٣٧٣ هـ، ١٩٥٤ م، ١/ ١٣١ .

(٤) انظر: شرح الرضي ٤/ ٢٣٣ .

(٥) تيسير النحو التعليمي ٣٧.

وهذا الترتيب أو التفريع تسري فيه روحٌ من الحتميّة والجبريّة غريبةٌ لا نعلم في كلام العلماء ما يفسّرها أو ينصرها، إذ لا يلزم من متابعة الكسائي في أنّ "ما" حرف تعجّب، سقوطُ الفاعلِ أو تخلّفُه.[١]

وحين وصل د. ضيف إلى صيغة التعجّب الأخرى "أفعِلْ به!" عرض أقوال العلماء فيها، ونظر فيها نظر من يبحث عن رأي تسكن به نفسه وترضى. فلمّا فقد ذلك فيها أعرض عنها بعد ما رماها بما وجد فيها، فرمى قولَ البصريين الذين يرون الفعل في هذه الصيغة فعلاً ماضياً جاء على صورة الأمر، زيدت الباءُ فيه على فاعله، وقولَ ابن كيسان القائلِ بعودة الضمير المستتر إلى مصدر الفعل، بما فيهما من لفّة طويلة لا يؤدّيها ظاهرُ التعبير، دعا إليها البحثُ عن الفاعل.

ولم يكنِ سكوته عن رأي الفرّاء، ومَنْ تبعَه كالزمخشري، وفيه كان الفعل في هذه الصيغة فعلَ أمرٍ حقيقيٍّ، فاعلُه ضمير تقديره "أنت"، والباء فيها زائدة على المفعول = بشارةَ قَبول وسكوتَ رضا؛ لأنّه لم يجد فيه بغيتَه. لذلك أسرع إلى ابن مضاء، فاقترض منه رأيَه في أنّ الفعل قد يستغني بمادّته عن الفاعلِ، وقال بما لم يقلْ به أحدٌ قبله: إنّ "أجملْ" في "أجملْ بالروض!" فعلُ تعجّبٍ لا فاعلَ له، وعَدَّ ذلك إراحةً "للنحاة جميعاً من اللفّ المتكلّف حول إيجاد فاعل للفعل" أجمل "دون حاجة إلى البحث عنه، إذ هو محاولة لإيجاد ما ليس بموجود فعلاً"[٢].

وكان من تمام رأيه تعليقُ الجارّ (الباء) والمجرور بعد الفعل به، على أنّ الباء غير زائدة، وهو الذي اعتمده قبلُ في بعض كلامه في غير هذا الموضع، وعدَّه قطعةً من إعراب الكوفيّين حيناً، وإعرابِ الفرّاء وغيره حيناً آخر[٣] أو أن تكون الباء زائدة على المفعول، وهو بعض ما كان في الرأي الذي نسبه إلى الفرّاء هنا، وعليه كان المعتمَدُ في بعض كلامه قبلُ[٤].

على أنّ في نسبة ذلك الرأي إلى الفرّاء، متابعةً لما كان في بعض مصادره، نظراً؛ لأنّ الظاهر من كلام الفرّاء في كتابه (معاني القرآن) أنّ الباء زائدة على الفاعل، وهو ما يقتضي بآخرة التزاماً نفيَ كون الفعل أمراً حقيقةً، لفوات التناسب بين الأمرين: زيادةِ الباء في الفاعلِ، وكونِ الفعل أمراً حقيقة، قال: ".. وإنّما يجوز **دخول الباء في المرفوع** إذا كان يُمدَح به صاحبُه، ألا ترى أنّك تقول: كفاك به، ونهاك به و**أكرمْ به رجلاً**،

---

[١] على أنّ الكلام على مذهب الكسائي مقترناً بمذهب البصريين في (الارتشاف) مشعر بأنّ الكسائي كالبصريين يقدّر ضميراً فاعلاً في الفعل بعد "ما". قال ـــ ٢٠٦٥ ـــ: " وأَفْعَلَ: مذهبُ البصريين والكسائيّ أنّه فعل، و"زيداً" مفعول به، والهمزة في "أفعل" للتعدية، وفي "أحسَنَ" ضمير فاعل يعود على "ما". على أنّ عود الضمير على "ما" لا يناسب قول الكسائيّ؛ لأنّ "ما" في رأيه حرف لا محلّ له من الإعراب .

[٢] تيسيرات لغويّة ٣٢

[٣] مع كون الفعل أمراً على الحقيقة، والفاعل ضميراً مستتراً تقديره "أنت" انظر: تيسير النحو التعليمي ٣٧، ٥٤، وتجديد النحو ٢١.

[٤] فعل ذلك مع كون الفعل أمراً على الحقيقة، وعزاه إلى الكوفيين وبعض البصريين، انظر: تيسير النحو التعليمي ١٢٩ .

وبئسَ به رجلاً ، وطاب بطعامك طعاماً ، وجاد بثوبك ثوباً. ولو لم يكن مدحاً أو ذمّاً لم يجز دخولها ..."[١] .

وهذا النص يدفع عن الفرّاء ما نسبه إليه د. ضيف في كتابه (تجديد النحو) من تعليق الجارّ والمجرور في هذه الصيغة بالفعل ، وهو ما اعتمده ثمّة وعزاه إليه وإلى ابن كيسان والزجّاج والزمخشري[٢] ، أو يدعو إلى التوقّف والنظر فيه.

ولا يخفى بعدُ ما في كلام د. ضيف في نسبة بعض هذه الأقوال بين موضع وآخر من اختلافٍ ظاهرٍ كان يحسن ضبطُه وتحقيقُه ، وما في الاختيار والاعتماد هنا وهناك من تقلّبٍ بين الآراء.

ـ فاعل الفعل الأول في التنازع :

وحين ذهب يفسّر غيابَ الفاعل عن الفعل الأوّل في نحو : "جلس وكتب زيدٌ" استحضر ثلاثةَ آراءٍ يحرّكُها الغيابُ ، ورأياً آخر موصولاً بالحضور. فذكر قول سيبويه باستغنائهم عن فاعل الفعل الأول بالفعل الثاني ومعموله ، لعلم المخاطَب به من الكلام ؛ وقولَ الكسائي بحذف فاعل الفعل الأوّل لوجود ما يدلّ عليه (القرينة اللفظيّة) ، ورأيَ ابن مضاء القائمَ على استغناء الفعل بمادّته عن فاعله. ونبّه على ما بينها من رباط أو التقاء. وذكر المشهور من رأي الفرّاء أنّ الفاعل المذكور في هذه الحالة فاعل للفعلين معاً.

حتى إذا أخذ يفسّر غياب الفاعل عن الفعل الأوّل في قول بعض الشعراء في هذا الباب ، ومنه :

ما جادَ رأياً ولا أجدى محاولةً إلا امرؤ لم يُضع دنيا ولا دينا[٣]

غيّب رأي الفرّاء لأمر لا يتعذّر فهمه ، لأنّه مبنيّ على مفهوم الحضور الذي كان على النقيض من فكرة الغياب والخفاء التي ألقت بظلالها على هذا الباب بقوّة ؛ ثمّ نحّى قول سيبويه لأمر لا نعلمه ، واقتصر على رأيَي الكسائي وابن مضاء ، يفسّر بهما ذلك الغياب ، على حدٍّ سواء على الاختيار والسعة ، فإمّا أن نقول مع الكسائي بحذف فاعل "جاد" في قول الشاعر لدلالة القرينة اللفظيّة عليه ، وإمّا أن نقول مع ابن مضاء باستغناء الفعل عنه بمادّته ، ورأيه ـ كما قال ـ أوسع تطبيقاً.

على أنّ الاعتماد على رأي ابن مضاء هذا هنا ، وتوظيفه في باب التنازع ، عند التحقيق ، تصرّفٌ في غير محلّه ؛ لأنّ له رأياً خاصّاً بغياب الفاعل في باب التنازع ، ورد في كتابه (الردّ على النحاة) ، إذ آثر رأيَ الكسائي في مشهور ما نُقِل عنه ، وصحّحه ، وقال بما قال من حذف الفاعل في مثله متابعة وترجيحاً[٤] .

---

(١) ٢/ ١١٩

(٢) تجديد النحو ١٩١. ومذهب الفرّاء والزجّاج والزمخشري وابن خروف في (الارتشاف ٢٠٦٧) أنّ الفعل أمر حقيقة، والباء زائدة في المفعول.

(٣) البيت في الهمع ٣/ ٩٨ بلا نسبة.

(٤) انظر: الردّ على النحاة ٩٤ ــ ٩٥، ١٠١، وانظر: التذييل ٦/ ٢١٧، والارتشاف ٢١٤٣ ــ ٢١٤٤، والهمع ١/ ٥١٢

والواجب مراعاة المحلّ، واستعمال ألصق الرأيين به فيه. واستبدال العامّ بالخاصّ دون حاجة أو دليل في تقديري خللٌ منهجيّ لا ينبغي، ينمّ هنا على تحكّم وتفسير رَغْبِيّ.

وقد ارتبط رأيُ الكسائي ورأي ابن مضاء عند د. ضيف هنا، حيث فسّر غياب الفاعل في بعض آي القرآن والقراءات القرآنيّة وحديث النبيّ ﷺ وكلام العرب شعراً ونثراً ارتباطاً شديداً، فكانا ركيزةً ثنائيّةً اعتمد عليها كثيراً في ذلك. فقد اجتمعا في تسعةِ مواضعَ من المواضع الأحد عشر التي تناول فيها ذلك.

ـ الفاعل الغائب في بعض آي القرآن والشواهد الشعريّة والحديث النبويّ:

كان د. ضيف في هذه المواضع التسعة يُؤثرُ القولَ بحذف الفاعل آخذاً بما رآه الكسائيُّ، على قول من يقدّر الفاعلَ ضميراً، ولاسيّما إذا لم يتبيّن عائدُ الضمير ولم يتعيّن، أو كان في تقديره ـ على ما يرى ـ ما فيه من تكلّف، ويرجّح عليه غالباً رأيَ ابن مضاء. وهذا الترجيحُ فيما أظنُّ كان بعضَ ما دعا د. ضيف إلى الاقتصار، إذ ختم بحثَه وقرّر خلاصتَه، على رأي ابن مضاء في تفسير غياب الفاعل في تلك الأمثلة والشواهد[(١)].

وكان يزكّي أكثرَ ذلك بأنّ الغرض من الكلام بيانُ وقوع الفعل (الحدث) لا مَنْ أحدثه، وهو ما صرّح به بآخرة بعبارة أخرى إذ قال: "ليس الغرض منها جميعاً بيانَ الفاعل الذي وقع منه الفعل، وإنّما الغرض بيان وقوع الفعل على المفعول، ولذلك أُغفِل الفاعل مع تلك الأفعال، ولم يُذكَر[(٢)]".

وهو ما استند إليه في القاعدة العامّة التي أجمل بها صنيعَه إذ قال: "قد يستغني الفعلُ في العربيّة عن الفاعل أحياناً إذا كان الغرضُ إيقاعَه على المفعول به دون عناية بذكر من أوقعه[(٣)]".

و كلام د ضيف في هذه المواضع جميعاً قطعةٌ أخرى دالّة على عميق أَثَرِ رأي ابن مضاء في تصوُّره النحويّ، تعبّر عن اختيارٍ وموقفٍ معلَن، واتّساعٍ في التطبيق. وذلك ما لا تثريب عليه فيه في ذاته، لكنّ بعضَ ما في كلامه من دقائقَ وتفاصيلَ، عند النظر، تنطوي على زلّاتٍ لا يعلّلُها إلّا هوًى مستحكم.

ليس من ذلك عندي أن يقدّر د. ضيف الفاعلَ حيث يعتقد حذفَه؛ لأنّ تقدير الفاعل يقتضي الإضمارَ، وهو خلاف الحذف. فذلك ـ على دقّته ـ أثر سهوٍ أو غفلة.

---

(١) انظر: تيسيرات لغويّة ٣٩.

(٢) المصدر السابق ٣٩

(٣) المصدر السابق ٣٩

عرض د. ضيف قراءةَ الحسن البصريّ ﴿ ذَكَّرَ رحمةَ ربّك عبده زكريّا ﴾ [مريم : ٢][١]، وعقّب برأي ابن جنّي[٢] أنّ الفاعل ضمير عائد على مفتتح السورة ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : ١] ، أي المتلوُّ من القرآن، وهو ما نفى عنه د. ضيف الوضوحَ ، ثمّ قال : وفي رأيي أنّه ينبغي أن نأخذ إمّا برأي الكسائي القائلِ بجواز حذف الفاعل ، فالفاعل محذوف وتقديره : "هذا القرآن"، وإمّا أن نأخذ برأي ابن مضاء ـ وهو الأرجحُ ـ القائل..."[٣]

لكنّ منه ـ فيما أرى ـ اختلافَ الرأي أو الحكم في الأشباه والنظائر. وهو ما لا مناص من وصفه بالتحكُّم. وقد بدا لي ذلك هنا في أمرين :

١ ـ تجاهَلَ د. ضيف استنادَ العلماء في بعض كلامهم إلى دلالة السياق في تقدير عائد الضمير المستتر الواقع فاعلاً ؛ لأنّ ذلك الدليلَ يزكّي ما كان خلافَ رأيه واختياره ؛ والتفتَ إليه لمّا تعلّق ببعض رأيه واختياره ، وكان له دليلاً ونصيراً.

فحين عرض حديثَ النبيّ ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[٤] ذكر مذهبَ النحاة في أنّ فاعل "يشرب" ضميرٌ مستتر عائد على اسم فاعل مشتقٍّ منه. وعقّب عليه بقوله : "والتكلّف واضح في تصوّر هذا الضمير المستتر وعائده ، ورأيُ الكسائيّ في أنّ الفاعل محذوف في مثل ذلك أوضح ، وأكثر منه وضوحاً رأي ابن مضاء في أنّ الفعل "يشرب" في الحديث لا فاعل له ، وأنّه إنّما يدلّ على فاعله بمادّته التي تقتضي حدوث الشرب من شخص .على كلّ حال الفعل في الحديث استُغني عنه بتصوّر حدوثه ، وليس الغرض بيان وقوع الشرب من شخص معيّن ، وإنّما الغرض بيان إيقاعه على المفعول به ، ...."[٥]

وحين تكلّم د. ضيف على استغناء الفعل عن فاعله في التنازع آخرَ الأمر لم يجد حرجاً من أن يزكّيَ ذلك بدلالة السياق ، فقال : "واستغناؤه في صيغة التنازع المذكورة واضح بدلالة السياق [٦]".

---

[١] انظر: المحتسب، ابن جني، تح: علي النجدي ناصف، د. عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، وزارة الأوقاف ــ القاهرة ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م، ٢/ ٣٧.

[٢] انظر: المحتسب، ابن جني، تح: علي النجدي ناصف، د. عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، وزارة الأوقاف ــ القاهرة ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م، ٢/ ٣٧.

[٣] تيسيرات لغويّة ٣٦.

[٤] أخرجه أحمد والشيخان والنسائيّ وابن ماجه.

[٥] تيسيرات لغويّة ٣٧

[٦] المصدر السابق ٣٨. وعليها كان معتمَدُه في غير هذا الموضع أيضاً في تفسير حذف الفاعل في التنازع، انظر: تجديد النحو، ١٥٦، ٢٣٨.

فهل من المحكَم أن يصف د. ضيف تقديرَ الفاعل ضميراً مستتراً عائداً على "الشارب" بـ "التكلّف الواضح"، والكلامُ بسياقه يرشّحُ هذا التقديرَ: الفعلُ "يشرب" في موضعيه: "يشرب ... يشربها" بمادّته ودلالته، والفاعلُ المشتقّ من فعله "الزاني" في التركيب الأول من الحديث المبني على بنية تركيبية متوازنة متناظرة: "لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن = ولا يشرب الخمر حين يشربها، وهو مؤمن" ؟.

أولا يزكّي رأيُ ابن مضاء المبنيُّ على دلالة الفعل على فاعله بمادّته هذا المعنى والتقديرَ؟. أليس "الشارب" قطعة من مادّة الفعل "يشرب"؟.

ثمّ إنّ تقدير الفاعل ضميراً يعود على "الشارب" الذي يدلّ عليه الفعل بمادّته لفظاً ومعنًى لا يقيّد الفعل "الشرب" بشخص معيّن، وهو من ثَمّ لا يتعارض وما رآه من أنّه "ليس الغرض بيان وقوع الشرب من شخص معيّن، وإنّما الغرض بيان إيقاعه على المفعول به...".

ومن هنا يبدو حكم د. ضيف على هذا التقدير بـ "التكلّف الواضح" اتّهاماً ينبئ عن رغبةٍ وهوًى، لا حكماً صادراً عن وصف واقعٍ مجرّد.

٢ ـ استحسنَ د. ضيف تقديرَ البصريين الفاعلَ في قوله تعالى ﴿ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآياتِ ليسجنُنَّه حتى حين﴾ [يوسف: ٣٥] وقوله تعالى ﴿وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم﴾ [إبراهيم: ٤٥] ضميراً يعود على المصدر الذي دلّ عليه الفعل، "البداء" في الموضع الأوّل، و"التبيُّن" في الموضع الثاني = استحساناً يدلّك عليه نصُّه على أنّهم يلتقون مع ابن مضاء مباشرة في قوله إنّ الفعل يستغني بمادّته عن الفاعل[(١)]؛ وتصريحُه بأنّ مادّته المصدر[(٢)]، وانصرافُه عن نبز ذلك التقدير انصرافاً يشبه سكوتَ الرضا المبرّأ من السخط والإنكار؛ في حين تحفّظ من تقدير الفاعل في قراءة يحيى وإبراهيم ﴿فيرى الذين في قلوبهم مرض﴾ [المائدة: ٥٢] بالياء[(٣)]، وفي (لا يشرب الخمر)، وقول عمرو ابن مِلقَطٍ[(٤)]: أودى بنعليّ وسرباليه = ضميراً يعود على فاعل مشتق من تلك الأفعال: رائيهم ومتأمّلهم، الشارب، مودٍ، تحفّظاً دعاه إلى الإعراض عنه حيناً ورميه

---

(١) المصدر نفسه ٩.

(٢) المصدر نفسه ٣٥ ــ ٣٦.

(٣) انظر: المحتسب ١/ ٢١٣.

(٤) صدر البيت: مهما لي الليلة مهما ليه . وهو أول قصيدة لعمرو بن ملقط، وهو جاهليّ، في النوادر في اللغة، لأبي زيد الأنصاري، تحقيق ودراسة: محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق ــ بيروت والقاهرة، ط ١، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م، ٢٦٧، وخزانة الأدب، البغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ــ القاهرة، ط ٣، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦ م، ٩/ ١٨ ــ ٢٥، وغيرهما. ونُسب إلى بشر بن أبي خازم في كتاب الجمل في النحو المنسوب إلى الخليل، تح: د. فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة ــ بيروت، ط ١، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م، ٢٦٥.

بالتكلّف الواضح حيناً آخر[(١)] أليس اسمُ الفاعل المأخوذُ من فعله قطعةً من مادّته، أم هو التمييز يَنبُتُ بماء الهوى؟!

ولعلّ ممّا يؤكّد القولَ باستحسان د. ضيف تقديرَ البصريين السالفَ أن تراه، حيث طبّق رأيَ ابن مضاء في تفسير غياب نائب الفاعل عن الفعل المبنيّ للمجهول إذا لم يلِهِ إلّا ظرفٌ غيرُ متصرّف أو جارٌ ومجرور، يهجم على ما بُني من آراء العلماء وتوجيهاتهم على تقدير نائب الفاعل في ذلك ضميراً مستتراً يعود على مصدر الفعل المفهوم من بنيته، أو ضميراً مبهماً مستتراً يدلّ على ما يدلّ عليه الفعل من مصدر أو ظرف، وفيها ما لا يختلف البتّة عن تقدير البصريين ذاك، هجومَ المُنكِر، ويرميها دون تردّد بالتمحّل الشديد، والمشقّة في التصوّر، والتعسّف في التقدير.

وهذا شيء منه يدعوك إلى التعجّب، تراه ينظر إلى الشيء في موضع بعين الرضا، ثمّ تراه في موضع آخر يصير إليه ينظر إلى ذلك الشيء أو إلى نظيره بعينِ سخطٍ تُبدي المساوئ.

ـ نيابة الظرف غير المتصرّف والجار والمجرور عن الفاعل:

وبمثل تلك العينِ التي أذكت في نفس د. ضيف شهوةَ المخالفةِ شقَّ العصا، إذ نبذَ آراءَ العلماء قاطبةً في نائب الفاعل في هاتين المسألتين جملة وتفصيلاً، وآثر أن يسلّط على القضيّة فيهما رأيَ ابن مضاء باستغناء الفعل بمادّته عن فاعله، ويولِّدَ رأياً جديداً لم يُعهَد عند الأوّلين والآخرين.

ترك د. ضيف الرأيَ المنقولَ عن الأخفش في جواز قيام الظرف غير المتصرّف نائبَ فاعلٍ، وانتقدَه بما في تلك الظروف المنصوبة لفظاً المرفوعة موضعاً من "مباينةٍ واضحة للظاهر الملفوظ والمضمر الخفيّ"[(٢)]. ثمّ ردّ ما ذهب إليه الجمهورُ في ذلك من أنّ نائب الفاعل مع تلك الظروف ضمير مستتر قبلها يعود على المصدر المفهوم من بنية الفعل المبنيّ للمجهول، ففي قوله تعالى ﴿وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون﴾ [سبأ: ٥٤] يقدّرون: حيل الحولُ بينهم، وفي قول الشاعر:

ويُبَشُّ بالترحيب عند قدومه ويُقام عند سلامه ويُقرَّب[(٣)]

يقدّرون: تُبشّ البشاشة، ويُقام القيامُ. ...

---

(١) انظر: تيسيرات لغويّة ٣٥، ٣٧، ٣٨ .

(٢) تيسيرات لغويّة ٤٥ . والكوفيّون على نحو قول الأخفش من جواز ذلك كما في الهمع ١/ ٥٢٢.

(٣) البيت من قصيدة تُعرَف بالزينبيّة، تُنسَب إلى عليّ رضي الله عنه، والبيت منها في ديوان الإمام عليّ، جمعه وضبطه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة ــ بيروت، ٤٩

ورمى رأيَ الجمهور بالتمحّل الشديد، ووصفَ تقديرَهم بالاضطرار، "غيرَ ملتفتين إلى أنّ الفعل المبنيّ للمجهول يدلّ على المصدر الذي يقدّرونه ببنيته، وأنّه لا حاجة له إليه."[١]، كما رماهم بالغفلة إذ قال: "وفاتهم أنّ النائب للفاعل حين يكون مصدراً لا يضيف للسامع فائدة، إلّا إذا خُصِّص بشيء من أنواع التخصيص، ... إذ اشترطوا له إمّا الإضافة وإمّا الوصف وإمّا العدد..."[٢].

واتّهامُ د. ضيف هنا للجمهور بالغفلة أو بنحوها يحتمل أن يكون عن غفلة منه وسهو؛ غفل عمّا نصّ عليه العلماء من أنّ تقييد المصدر بـ "ال" نوع من الاختصاص[٣] ـ والمصادر التي قدّرها الجمهور في تلك الشواهد التي ساقها د. ضيف من هذا القبيل، مختصَّة بـ "ال" ـ ثمّ حكم بما حكم؛ إلّا أن يكون د. ضيف قد أخفى من رأيه، أو في كلامه، ما لا أعلمه.

ولم تكن مذاهب النحاة في نيابة الجارّ والمجرور عن الفاعل عند د. ضيف بأحسنَ حالاً؛ فأنكر مذاهبَهم جميعاً، ما قام على نيابة الجار وحدَه عن الفاعل، أو نيابة المجرور وحده، أو الجارّ والمجرور معاً[٤] كما أنكر رأيَ من يرى أنّ نائب الفاعل إذا اقتصر الفعل المبنيّ للمجهول على الجارّ والمجرور في نحو: "يُحذَر منه، لا يُحتاج إليه" هو ضميرٌ مبْهَم مستتر يتحمّل ما يدلّ عليه الفعل من مصدر أو ظرف، وهو ما عزاه د. ضيف متابعةً لبعض مصادره إلى ابن هشام ومن تابعه[٥]، أو ضميرٌ مبهمٌ عائد على المصدر المفهوم من الفعل، وهو ما عزاه إلى بعض النحاة، ومنهم ابن درستويه والرُّندي الأندلسي؛ ووصف هذين الرأيين بالمشقّة في التصوّر، والتعسّف في التقدير؛ لأنّ الفعل يدلّ على المصدر والظرف التزاماً، أو بعبارة أخرى: بصيغته، فهو في غنى عن ذكرهما أو تقديرهما[٦].

حتى إذا انتهى د. ضيف من هذه الآراء وتلك في هاتين المسألتين، خلص بآخرة، مستنداً إلى رأي ابن مضاء، إلى القول بما لا عهدَ به من أنّ الفعل المبنيّ للمجهول إذا لم يكن معه إلّا ظرف غير متصرّف أو جارّ ومجرور يستغني عن نائب الفاعل بمادّته أو صيغته[٧].

---

[١] تيسيرات لغويّة ٤٥

[٢] تيسيرات لغويّة ٤٥

[٣] انظر: التذييل ٦/ ٢٣٥، والارتشاف ١٣٣٢

[٤] انظر: تيسيرات لغويّة ٤٦ ــ ٤٧

[٥] نسبه السيوطي في الهمع ــ ١/ ٥٢٢ ــ إلى ابن هشام نسبة فيها نظر، وعزاه أبو حيّان إلى الكسائيّ وهشام في التذييل ٦/ ٢٣١

[٦] انظر: تيسيرات لغويّة ٤٨ .ومنع نيابة الجار والمجرور عن الفاعل هنا رجوع عمّا كان عليه د. شوقي ضيف في (تجديد النحو) ١٥٩ ــ ١٦٠ من جواز ذلك.

[٧] انظر: المصدر السابق ٤٥، ٤٨ .

- **نتائج :**

هذا ما قادني إليه النظرُ في قراءة د. ضيف رأيَ ابن مضاء في إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة ؛ لاستغناء الفعل بمادّته عن فاعله إذا غاب واستتر. ولو أراد المرءُ أن يبيّنَ بعضَ ملامح تلك القراءة أو معالمها ، وبعضَ ما صدر عند. ضيف في أثناء ذلك ، تبيينَ إجمال ؛ لقال :

ـ كان لرأي ابن مضاء الذي تناوله هذا البحث أثرٌ عميقٌ في فكر د. ضيف وتصوّره النحويّ ، فاحتفل به في كثير من كلامه ، ولاسيّما في آخر كتبه ، عظيمَ احتفال ، وكان يلهج به ، ويلوذ به كلّما صادفه فعل خفِيَ فاعله ؛ نمذَجَهُ ، واتّخذه مفتاحاً يحلّ به مشاكلَ القول بحذف الفاعل أو غيابه عن بعض الصيغ والتراكيب المسموعة ، وبعض القراءات القرآنية وشواهد العربية من شعر أو حديث ، التي فسّرها في ضوئه ، فآلت إلى حظيرته ، وكان له فيها آراءٌ وتوجيهات لم يُسبَق إليها.

ـ كان من منهج د. ضيف أحياناً إذا عرض آراء ابن مضاء أو درسها ❖ ربطُ الرأي الفرعيِّ أو الجزئيِّ منها بالأصل الكلّيّ أو العامّ من أصول ابن مضاء التي صدر عنها. من ذلك مثلاً ربطُ إنكار تقدير ضمائر الرفع المستترة لدلالة الفعل بمادّته واستغنائه بها عن فاعله بنقض فكرة المعمولات المحذوفة .

❖ التنبيهُ على جذور تلك الآراء في رأي من كان قبل ابن مضاء من علماءَ ، وامتداداتِها في آراء خالفيه من علماءَ وباحثين أو هيئات علميّة ، وبيانُ أثرها أو وجوهِ التقاء آرائه بآراء أولئك الباحثين أو تلك الهيئات والمؤسسات ، كلّما وجد لذلك سبيلاً ، أو بدا له فيه بُدوٌّ ، وكان له فيه دليلٌ ومساعد.

وإذا كان ذلك ممّا يقتضيه البحث العلميّ على وجهه الحقّ ، لما فيه من بيان منزلة هذا الرأي أو ذاك ، والتنبيه على موقعه في سياقِه التاريخيّ ؛ فإنّ فيه نفحةً من مؤازرة معنويّة أو نفسيّة تزيّن هذا الرأيَ أو ذاك في نفس القارئ ، وتلقي عليه صبغة من قبول.

ـ كان من أمر د. ضيف في آخر كتبه ، إذا تكلّم على غياب الفاعل فيما وقف عنده من قراءات قرآنية وشواهد شعريّة أو حديث نبوي ، أن يبيّن غرضَ ذلك الحذف أو الغياب ، وهو بيان وقوع الفعل (الحدث) لا بيان فاعله.

ـ كان د. ضيف أحياناً يستغلّ بعضَ ما يقع له من أقوال بعض العلماء وأفكارهم ، ينمّيه ويرتّبُ عليه ما يدفعه إلى مبتغاه الذي يحدوه إليه فكرةٌ مسبقة ، حتّى إذا وصل إليه لاذ بقول ابن مضاء ، يفسّر هذا التوجيهَ أو الرأيَ الذي أنبته نباتاً جديداً.

ـ وقع في كلام د. ضيف هنا وهناك ، خلال قراءته ، من مظاهر القول والبحث والاستدلال ، ما يدلّ على تمكّن رأي ابن مضاء منه ، واستبدادِه به استبداداً كان يدُعُّه إلى أن يسلّط ذلك الرأيَ على بعض

الصيغ والتراكيبِ والقراءات والشواهد الشعريّة والنثريّة كالسيف المُصلَت ، فإذا نظر القارئ في ذلك ثم نظر تراءى له الحيادُ أحياناً يقطر دماً أو يتلوّى ألماً على سرير بروكرست prokrustes [1].

ـ خالط قراءة د. ضيف ذلك الرأي شيءٌ من تحريف ، فكان فيها شيءٌ من الخطأ في الاستنتاج ، وزيادةُ ما لا أصل له على رأي ابن مضاء ، والارتقاءُ بالمحتمل والمرجوح إلى درجة اليقين والرجحان ، واختلاقُ ما لا يُشعر به كلامُ ابن مضاء البتة ، بل ما يدلّ ذلك الكلام على خلافه. على أنّ كلامه في آخر كتبه (تيسيرات لغوية) يدلّنا عند النظر والتأمّل على رجوعه عن بعض ما ندّ عنه من ذلك قبلُ رجوعاً خفيّاً لا تصريح فيه .

ـ كان من أمر د. ضيف إذ قرأ ذلك الرأيَ أن يجتزئ ببعض كلام ابن مضاء ويقتصرَ عليه ، معرضاً عن معارضة جميع كلامه الموصول بذلك الرأي بعضِه ببعض حيث وجد. وهو ما أفضى حيناً بآخرة إلى رأيٍ غير مُتقَن ، ونتيجة غير محكَمة .

ـ وقع في بعض كلام د. ضيف من مظاهر التحكّم والتحيّز والهوى ، ما كان يطلّ برأسه تارة فتارة. ومن ذلك مثلاً تزييفُ بعض الوقائع تزييفاً يشوّه الحقيقةَ تزييناً لرأي ابن مضاء في أعين القرّاء ؛ واختلافُ الرأي أو الحكم في الأشباه والنظائر ؛ والاستدلالُ بما لا يرقى إلى القطعيّ المُحكَم لتمكّن الاحتمال والتقدير منه.

ـ ألقت ثنائيّةُ الرضا والسخط المبنيّةُ على نقيضين غير متكافئين ظلالاً لا تخفى على قراءة د. ضيف ، فكان الاحتفاءُ والحماس ، وكانت محاسنُ الأوصاف والنعوت ، إذا ذُكِر رأيُ ابن مضاء وما كان له به صلة فعلاً أو اقتضاءً ، وكان التنقّصُ والانتقاد ، وكانت الأحكام أو الأوصاف السلبيّة ، إذا ذُكِرَ ما خالف ذلك الرأيَ وما كان ذا صلة به ، من آراء العلماء وتوجيهاتهم.

ـ تسلّل إلى بعض كلام د. ضيف شيء من الحتميّة ولزوم ما لايلزم ، فرتّب مثلاً على قول الكسائي إنّ "ما" في صيغة التعجّب "ما أفعلَه!" حرفُ تعجّبٍ ، سقوطَ الفاعل أو تخلُّفَه ؛ ودلّ كلامُه إذ تعقّب بعض الآراء والأعاريب ، في بعض ما تكلّم به على "خلا ، وعدا ، وحاشا" ، وعلى صيغة التعجّب "ما أفعَلَه!" دلالةَ اقتضاء على لزوم دلالة الإعراب أو التقدير النحويّ على المعنى النحويّ كالاستثناء أو البلاغي من خبر أو إنشاء. وكلّ ذلك غير لازم.

---

[1] في الأسطورة اليونانية أنّ بروكرست، وهو حدّادٌ وقاطعُ طريق، كان يستضيف المسافرَ، ويدعوه إلى النوم في سريره الحديديّ، فإذا زاد الرجلُ على السرير طولاً بتر تلك الزيادةَ، وإذا قصر عنه شدّه ومطله؛ فكان بذلك دالّاً على التعسّف والجبريّة والتحكّم وقَهْرِ التنوّع والاختلاف !

ـ اختلف تلقّي د. ضيف لذلك الرأي بين كتبه الخمسة إمّا في أصل الموقف رفضاً وقبولاً ، وإمّا في الصفة والدرجة ، فكان يتقلّبُ في ذلك من حال إلى حال في حركة دائريّة ، من القَبول إلى الحيادِ ، فتجاهُلِ الرافضِ المتخفّي بالصمت ، فالرفضِ الصريح المسلّح بالنقد ، فالقبولِ الحسن والاحتفاء الكبير والاتّساع في التطبيق. وبذلك التقى حدّاً هذه الدورة من التلقّي ابتداءً وانتهاءً في القبول ، وتباينا فيه صفةً ودرجة.

ـ مدٌّ د. ضيف الفكرةَ التي قام عليها رأيُ ابن مضاءٍ عن اجتهاد واتّساع في التطبيق ــ وهو أثرٌ من أثر التلقّي العميق ، وضرب من الاجتهاد في التعبير عن حسن القبول ، واستيعاب الفكرة ــ قاده تدريجياً أو دَفعةً واحدة إلى اختلاق ما لا عهد للناس به من آراءٍ أو توجيهات جديدة. من ذلك مثلاً ما انتهى إليه من أنّ " ما " في صيغة التعجّب "ما أفعلَه!" حرف تعجّب لا محلّ له من الإعراب ، والفعل بعدها لا فاعل له ، فارغ من الضمير ؛ وما رآه من أنّ الفعل في صيغة التعجّب الأخرى "أفعِلْ به!" فعل تعجّب لا فاعل له.

ـ سرى الاختلاف في رأي د. ضيف في بعض مسائل العربيّة التي تردّدت في بعض كتبه ، إما عن قصد بعد مراجعة ونظر ، وإمّا عن شديدِ ولَعٍ برأي ابن مضاء ، وانسياقٍ غيرِ منضبط في تطبيق ذلك الرأي في بعض الكلام .

وإذا أراد المرء هنا أن يتبيّن رأيَ د. ضيف المعتمَدَ في مسألة من تلك المسائل التي تعدّد فيها رأيُه أو اختلفَ ، كان عليه أن يعولَّ على ما كان في آخر كتبه (تيسيرات لغوية) إمّا وُجِد ، وكان كلامُه عليه مفسّراً معلّلاً جمع له فيه أدلّته. وهذا ما تراه مثلاً في كلامه على "خلا ، عدا ، حاشا" التي آمن بفعليّتها واستغنائها عن فاعلها بمادّتها بعد أن جَحَدَ ذلك وعدّها أدواتِ استثناء يُنصَب ما بعدها على الاستثناء ، وعلى صيغتي التعجّب : "ما أفعله! وأفعل به!" اللتين أفرَغَهما من الفاعل ؛ وعلى مَنْعِ نيابة الجارّ والمجرور عن الفاعل إذا اقتصر الفعل المبني للمجهول عليهما.

ـ ندّ عن د. ضيف في بعض كلامه على بعض مسائل العربية شيءٌ من سهو أو غفلة ، وورَدَ فيه شيء من الخطأ في نسبةَ بعضِ الأقوال والآراء صدر فيه عن تقليدٍ ومتابعةٍ مفتقرةٍ إلى التحقيق. وكلٌّ أولئك ممّا نبّهت عليه حيث أمكن أو انبغى.

ـ لم تكن قراءةُ د. ضيف في بعض جزئيّاتها ومتعلّقاتها ، إذ قرأ رأيَ ابن مضاءٍ ، في كتبه الخمسة ، على حال ثابتة تأسرها كينونةٌ واحدة ، بل كانت متفاوتةً متغيّرةً تحرّكها صيرورةٌ دائمة دالّةٌ على تطوّر رأيِ د. ضيف أو فكرِه النحويّ بين حين وآخر ، وتنمُّ على نظر ومراجعة. واللهُ تعالى أعلم .

❑❑

المصادر والمراجع

ـ ارتشاف الضرب، أبو حيان الأندلسي، تح: د. رجب عثمان محمّد، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط ١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م. ـ الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢م.

ـ الإنصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، تح: د. جودة مبروك، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢م.

ـ بغية الملتمس، الضبّي، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري ـ القاهرة، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، ط ١، ١٤١٠ هـ، ١٩٨٩ م.

ـ بغية الوعاة، السيوطيّ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط ٢، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م.

ـ تجديد النحو، د. شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة، ط ٣، ١٩٩٠.

ـ التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيّان الأندلسي، تح: د. حسن هنداوي، الجزءان الرابع والسادس، دار القلم ـ دمشق، ط ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

ـ تيسيرات لغويّة، د. شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة، ط ١، ١٩٩٠.

ـ تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً، مع نهج تجديده، د. شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة، ط ٢، ١٩٩٣.

ـ الجمل في النحو المنسوب إلى الخليل، تح: د. فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥ م.

ـ خزانة الأدب، البغدادي، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط ٣، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦ م.

ـ الديباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب، ابن فرحون المالكي، تح: مأمون الجنّان، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م.

ـ ديوان الإمام عليّ، جمعه وضبطه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة ـ بيروت.

ـ الذيل والتكملة، ابن عبد الملك، تح: محمد بن شريفة، السفر الأوّل، القسم الأول، دار الثقافة ـ بيروت.

ـ الردّ على النحاة، ابن مضاء القرطبي، تح: د. شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨.

ـ شرح الرضيّ على الكافية، تصحيح وتعليق: يوسف عمر، جامعة قاريونس ـ بنغازي، ط ٢، ١٩٩٦م.

ـ غاية النهاية في طبقات القرّاء، ابن الجزري، تح: برجستراسر، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م ـ كشف الظنون، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، مصوّرة من طبعة إستانبول.

ـ الكلّيات، أبو البقاء الكفويّ، تح: د. عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة ناشرون ـ بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

ـ المحتسب، ابن جني، تح: علي النجدي ناصف، د. عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، وزارة الأوقاف ـ القاهرة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

ـ مجالس ثعلب: أحمد بن يحيى، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف ـ القاهرة، ط ٢، ١٩٦٠.

ـ مختار تذكرة أبي عليّ الفارسي وتهذيبها، ابن جني، تح: د. حسين بو عباس، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، الرياض، ط ١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١٠م.

ـ مختصر النحو، ابن سعدان الكوفي، دراسة وتحقيق: د. حسين أحمد بو عباس، حوليّات الآداب والعلوم الاجتماعيّة، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الرسالة ٢٣٧، الحوليّة ٢٦، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م ـ المدارس النحويّة، د. شوقي ضيف، دار المعارف ـ القاهرة، ط ٧، ١٩٩٢م.

ـ معاني القرآن، الفرّاء، تح: محمد علي النجار، أحمد يوسف نجاتي، عبد الفتاح شلبي، عالم الكتب ـ بيروت، ط ١، ١٩٨٠م

ـ معجم المؤلفين، عمر رضا كحّالة، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

ـ المنصف شرح كتاب التصريف، ابن جني، تح: إبراهيم مصطفى، عبدالله أمين، وزارة المعارف، إدارة الثقافة العامّة ـ القاهرة، ط ١، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م.

ـ النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف ـ القاهرة، ط ٤.

ـ النوادر في اللغة، أبو زيد الأنصاري، تحقيق ودراسة: محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق ـ بيروت والقاهرة، ط ١، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م

ـ همع الهوامع، السيوطي، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

❑❑

شيخ زادة في ضوء شرحه لقواعد الإعراب

د. إسماعيل مروة

مُحيي الدين مُحمد بن مُصلح الدين القوجوي(١)، والقُوجه كما أفادني أحد العارفين باللغة التركية(٢)، تعني الشيء الكبير، والشيخ الكبير المسن، والعالم الكبير أيضاً. ولعل هذا الأخير هو الأقرب إلى شارحنا شيخ زاده، لأنه كان معلماً متصدراً للإقراء، وهذا الرأي يفسر لنا أيضاً كثرة ورود هذه النسبة في أسماء العلماء الأتراك في تلك الحقبة. واستعراض سريع لأعلام كتاب "الشقائق النُعمانية في علماء الدولة العثمانية" لطاشكبري زاده، يبين هذا الأمر بجلاء ووضوح.

وقد أجمعت المصادر جميعها على تسميته.

حياته

إن شيخ زاده، شأنه شأن كل العلماء المتأخرين، غير العرب خاصة، لم يلق العناية التي يستحقها في كتب التراجم، فلا ذكر لتاريخ مولده، ولا إشارة إلى عمره وكم عمّر، ولا إلى الأشياء الخاصة في حياته العلمية.

ونحن إن شئنا أن نستقي ترجمة وافية لحياة هذا العلم فإننا سنبدأ من كتاب "الشقائق النعمانية"، وهو أقرب المؤلفين إليه روحاً وزمناً، ثم ننتقل إلى الكتب التي أخذت عن "الشقائق" ترجمته جملة، دون أي زيادة مثل: "الكواكب السائرة" و"شذرات الذهب" و"الأعلام" و"معجم المؤلفين".

فما كتبه معاصره المتأثر به طاشكبرى زاده، هو المصدر الأول لترجمته بل الأوسع.

"العالم العامل الفاضل الكامل محيي الدين محمد ابن الشيخ العارف بالله تعالى مصلح الدين القوجوي، قرأ على علماء عصره، ثم وصل إلى خدمة المولى الفاضل ابن أفضل الدين، ثم صار مدرساً بمدرسة خواجة خير الدين بمدينة قسطنطينية، وتزوج بنت الشيخ العارف بالله الشيخ مُحيي الدين القوجوي، ثم غلب عليه داعية الفراغ والعزلة، وترك التدريس، وعُين له كل يوم خمسة عشر درهماً بطريق التقاعد وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يستكثر ذلك ويقول: يكفيني عشرة دراهم، ولازم بيته واشتغل بالعلم الشريف والعبادة، وكان متواضعاً متخشعاً، مرضيّ السيرة، محمود الطريقة، وكان محباً لأهل الصلاح، وكان يشتري من السوق حوائجه بنفسه، ويحملها إلى بيته بنفسه، مع رغبة الناس في خدمته، وهو لا يرى إلا أن يباشره متواضعاً لله تعالى، وهضماً للنفس، وكان يروي التفسير في مسجده، ويجتمع إليه أهل البلد، ويستمعون كلامه، ويتبركون بأنفاسه، وانتفع به كثيرون"(٣) زاد صاحب "الشقائق النعمانية" في ترجمته ما يتصل به مباشرة فقال: (وكانت له محبة عظيمة لهذا العبد الفقير، وأنه من جملة ما افتخرت به، وما اخترت منصب القضاء إلا بوصيته منه، وكان قد أوصاني به)(٤). ونقل صاحب "الكواكب السائرة" هذه الترجمة من "الشقائق" وكذلك فعل ابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب" وصاغ قول طاشكُبري "وممن أخذ عنه صاحب "الشقائق" قال: وهو من جلّة من افتخرت به، وما اخترت منصب القضاء إلا بوصيته منه"(٥). "فالشقائق" هو المصدر الأول لترجمته، وعنه أخذ من جاء بعده وكان كلامهم ترديداً لما قال.

ولم تذكر المصادر عمّن أخذ شيخ زاده علمه، واكتفت بقولها عن جملة علماء عصره.

ولم تذكر من طلابه أحداً اللهم إلا ما جاء من كلام ابن العماد عن طاشكبري، والمرجح أنه لم يأخذ عنه أخذ العلم، فهما متعاصران، متقاربان علماً، ووفاة.

وربما فسّر رأيه في اختياره للقضاء بالأخذ عنه، وأنا لا أرجح ذلك كما أنني لا أنفيه، وهو للثاني أرْجَحُ.

وهذا من الجوانب المغفلة في حياته، وحياة غيره من علماء هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية.

أما وفاته فتجمع المصادر على أنها كانت عام ٩٥٠ هـ، غير أن الزركلي ذكر أن وفاته كانت عام ٩٥١ هـ(٦)، وهذا وهم لست أدري مصدره، والأصح ما ذكره أحد معاصريه، صاحب "الشقائق" عن وفاته وهو أقرب المؤرخين إليه، وعنه نقل مَنْ جاء بعده من المؤرخين.

مكانته العلمية:

مع أن المصادر لم تذكر شيئاً عن حياته العلمية إلا أن الظاهر من ترجمته أن حياته كانت مليئة بالعلم، فهو مدرس، درس وحصل، وهو بعد ذلك متفرغ للعلم الشريف والكتابة.

وإن لم يصلنا الكثير عن تفصيلات حياته العلمية، إلا أن مؤلفاته التي وصلتنا تبين مكانته، فهو من تصدى لكتب صعبة فشرحها وقربها للناس في الفنون المختلفة.

وأجمعت المصادر التاريخية، وكتب الفهارس أن حاشيته على "تفسير البيضاوي" من أجلّ كتبه، بل من أجلّ حواشي "أنوار التنزيل". فشيخ زاده واحد من العلماء المشاركين، والمدرسين العاملين بعلمهم، وما أخلاقه، وتواضعه وزهره، إلا شواهد عدل على علمه، وعمله بهذا العلم.

وكتبه من بَعْدُ تشهد بهذه المكانة، ويضاف إليها اليوم كتاب جديد لم تلتفت إليه كتب الفهارس قديماً: "شرح قواعد الإعراب".

مذهبه النحوي:

درجت العادة أن يُحدد الدارس مذهب مؤلف كتابه الذي يدرسه، وذلك من خلال استقراء النص، وتفحص آراء المؤلف في الكتاب المدروس، وتحديد اتجاه هذه الآراء.

وغالباً ما يقتصر هذا التحديد على مدرستي البصرة والكوفة، وهما المدرستان الشهيرتان في النحو العربي، وهناك من يحاول إثبات وجود مدارس أخرى كالبغدادية والشامية والأندلسية.

لكن المتابع لهذه المدارس يجد أنها تدور في فلك المدرستين الأساسيتين في النحو العربي؛ البصرية والكوفية.

ولن أتتبع في هذا الفصل دراسة نشوء المدرستين وأعلامهما فذلك أمر تاريخي بحت لا مُسوغ له هنا، وكل ما يهمنا هو أن ندرس الكتاب خاصة، ولتلك الأبحاث التاريخية مجالاتها الأخرى.

إن ما سأفعله هو تحديد مذهب شارح "قواعد الإعراب" (شيخ زاده) وهذا أمر لابد منه، وعليه سيقوم فيما بعد تحديد موقفه من الاحتجاج والاستشهاد، الذي هو أس الخلاف وأساسه بين أتباع هاتين المدرستين الجليلتين.

إن خلافات كثيرة قائمة بين أصحاب هاتين المدرستين، في القياس والسماع، وغيرهما، ومن خلال استقراء آراء المؤلف في هذه الأمور يتم تحديد هوية المؤلف النحوية.

شيخ زاده، إلى أي من المدرستين ينتمي، أو على الأصح نقول نحو أي مدرسة ينحو شيخ زاده؟

إن النص الذي ندرسه "شرح قواعد الإعراب" يحدد لنا مذهب الشارح من خلال استقرائه ، وتحديد مصادره ، فالكتب التي عاد إليها واحتج بها تبين مذهبه.

فأكثر كتب شيخ زاده من كتب البصرية ، وهو يحتج بها موافقاً(٧). مثل كتب سيبويْه ، والمُبَرد ، والأخْفَش.

أما عندما يورد كتب الكوفيين ، فإنه يوردها معززة لقاعدة حسب أصول البصرية ، أو لنقض ما جاءت به.

ومنهجه يظهر لنا مذهبه أيضاً(٨) ، فشيخ زاده يضيّق على نفسه في الشواهد ، شأنه في ذلك شأن أصحاب المدرسة البصرية ، فشواهده تندرج على الشكل التالي :

١- القرآن الكريم.

٢- الشعر العربي.

٣- الأقوال.

٤- الحديث الشريف.

فهو لم يأخذ من الأحاديث الشريفة إلا بأقل القليل مع أنه متأخر ، وعدد من المتأخرين توسعوا في الاستشهاد في الحديث(٩) كابن مالك. أما استقراء النص فإنه يبين ميله إلى المذهب البصري بجلاء ووضوح ، فهو يذكر القاعدة النحوية حسب المذهب البصري ، دون إشارة إلى الخلاف ، إن لم يكن هناك من خلاف ، ويعود ليقول في مكان آخر : أما الكوفيون فيقولون كذا..

وكذلك يورد مذهب سيبويه حجة ، ويورد بعد ذلك رأي الكسائي والفراء وغيرهما مرجحاً رأي سيبويه ، وهكذا..

ومن عباراته الدالة على مذهبه :

يقول الشلويين أحد شيوخ الكوفيين.

أما عند الكوفيين والأخفش منا.

خلافاً للكوفيين.

الجمهور = البصرية.

فعندما حدد أن الشلويين من شيوخ الكوفيين ، فقد دفع مذهبه عنه على غير عادته في الرسالة ، وكذلك العبارات التالية.

وفي الرسالة عموماً يطلق عبارة النحاة والجمهور على البصرية.

أما في قواعد الاحتجاج، فإننا نلمس ذلك من خلال موقفه من السماع والقياس.

فهو يعتمد السماع: نقلاً عن الارتشاف.

وكذلك القياس: على غير القياس.

لا يقاس على الشاذ.

والشذوذ يورد بعضه، ولا يقيس عليه.

فَضِلَ يفضُل: تداخل الأبواب التصريفية: شاذ.

دخول حتى الناصبة على المضمر يجوزه المبرد، وهو شاذ.

حذف حرف العطف مع ذكر المعطوف فشاذ نادر.

وهو لا يقيس على اللغات كلها، وإنما يذكر تلك اللغة، دون أن يقيس عليها وهذا لا يعني أن (شيخ زاده) أخذ بالمدرسة البصرية وحسب، بل إننا نجده شأنه في ذلك شأن النحاة المتأخرين، يأخذ من المدرسة الأخرى من مبدأ التوفيق بين المدرستين. والسبب في ذلك يكمن في أن الشارح مفسر وفقيه قبل أن يكتب في النحو وشرحه، وهذه الطائفة من العلماء لها موقف في الاحتجاج والحكم عليه.

والمفسرون وإن لم يأخذوا بالقراءات الشاذة في التعبد، إلا أنهم يأخذون بها للاستشهاد النحوي، لأن مادة القراءات تشكل عندهم مادة كبيرة من الشواهد التي تسمو إلى أعلى درجات الفصاحة.

فالاحتجاج عنده يبدأ بإجماع أهل البصرة والكوفة، ثم بما انفردت به مدرسة البصرة، وما هو مقنع من آراء الكوفيين.

أما القياس على الشاذ فإنه يذكره ولا يأخذ به كما في نصب الفعل بعد (لم) عند بعض العرب.

وإذا تعارض القياس والسماع، أخذ بالسماع غير الشاذ كمذهب البصريين والفصاحة عنده كما عند أغلب علماء اللغة:

فقريش أولاً، وقيس، وتميم، وأسد، وهذيل..

وقد اتفق مع النحاة بأن البصريين أصحّ قياساً، لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع، ولا يقيسون على الشاذ، والكوفيون أوسع رواية في ذلك(١٠).

الاستشهاد في الشرح:

حدد النحاة الاستشهاد في اللغة بـ:

القرآن، القراءات، وفيها خلاف، الحديث الشريف، الشعر، النثر.

القرآن والقراءات القرآنية:

يحدد السيوطي في "الاقتراح" كيفية الاحتجاج بالقرآن وقراءاته، رابطاً ذلك الاحتجاج بالسماع والقياس فقال:

"أما القرآن فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواتراً أم آحاداً أم شاذاً، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً، بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه، وإن لم يجز القياس عليه"(١١).

ومن المعاصرين يقف الأستاذ سعيد الأفغاني في كتابه "في أصول النحو" من قضية القراءات موقف السيوطي، فقال في هذا المجال:

"لم يتوفر لنص ما توفر للقرآن الكريم من تواتر روايته، وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متناً وسنداً، وتدوينها بالمشافهة عن أفواه العلماء الأثبات الفصحاء والأنبياء من التابعين عن الصحابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فهو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطريق التي وصل إلينا بها في الأداء والحركات والسكنات، ولم تعتن أمة بنص ما اعتنى المسلمون بقرآنهم، وعلى هذا يكون هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به"(١٢). أما فيما يخص القراءات فقد قال الأفغاني وهو يرى عزوف النحاة عن الاستشهاد بها:

"وبَعْد، فقراءات القرآن جميعها حجة في العربية متواترها وآحادها وشاذها، وأكبر عيب يوجّه إلى النحاة عدم استيعابهم إياها، وإضاعتهم على أنفسهم ونحوهم مئات من الشواهد المحتج بها، ولو فعلوا لكانت قواعدهم أشد إحكاماً(١٣).

الخلاف بين النحاة كبير حول الاستشهاد بالقراءات، وكذلك الخلاف بين النحاة والقراء، وليس المجال هنا لدراسة هذا الخلاف والبتّ فيه، خاصة وأن العلماء لم يصلوا إلى نتيجة واضحة موحدة.

إن ما يهمنا هو موقف شيخ زاده من هذا الخلاف، فهو يستشهد بالقرآن استشهاداً كاملاً في (٢٢٠) موضعاً، يأخذ بالقراءات المتواترة وقراءات الآحاد والقراءات الشاذة أيضاً، أما المتواترة فهي مبثوثة في الكتاب كاملاً، أما الآحاد والشاذة، فهي في مواضع محددة بـ(١٤) موضعاً في الرسالة، لكن اللافت للنظر

أن الشارح لم يُشِر إلى كون هذه القراءة شاذة أم لا ، بل ذهب شيخ زاده إلى الاستشهاد بقراءات شاذة لم تحوها كتب القراءات الشاذة ، ولدى العودة إلى المظان وجدت هذه القراءات جميعها في تفسير أبي حيان الأندلسي "البحر المحيط" الذي يشير إلى شذوذها ، بينما لم يفعل ذلك شارح الرسالة(١٤).

ومن ذلك يتضح مذهب الشارح ، فهو يحتج بالقرآن وقراءاته جميعاً دون أي حرج كما اعتاد النحاة من قَبْلُ حيث اقتصروا على المتواترة كسيبويه وغيره من أئمة النحو قديماً.

الحديث الشريف :

في الاستشهاد بالحديث الشريف خلاف بين النحاة ، لكن الإجماع كان على عدم الاستشهاد إلا بما صح نقله عن النبي صلى الله عليه وسلم لفظاً.

"انقسم اللغويون فيما يروى من الأحاديث فريقين : فريقاً غلب على ظنه أنه لفظه ــ عليه السلام ــ ، فأجاز الاحتجاج بها ، وفريقاً غلب على ظنه أنها مروية بالمعنى لا باللفظ ، وإذاً لا يجيز الاحتجاج بها"(١٥).

والسيوطي في "الاقتراح" يبين أسباب عدم الاحتجاج به ، مع رأي المدرستين بقوله :

"أما كلامه صلى الله عليه وسلم فيستدل منه بما ثبت أنه قال على اللفظ المروي ، وذلك نادر جداً ، إنما يوجد في الأحاديث القصار على قلة أيضاً. فإن غالب الأحاديث مروي بالمعنى ، وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها ، فرووها بما أدت إليه عبارتهم ، فزادوا ونقصوا وقدموا وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بأخرى.

البصريون والكوفيون لم يستدلوا بالحديث النبوي كثيراً ، وإن فعله بعض المتأخرين كابن مالك"(١٦).

ومنهج الشارح هو منهج النحويين القدامى من أتباع المدرستين ، لم يستشهد بالحديث الشريف إلا في مواضع محددة ، كاستشهاده به على لغة "أكلوني البراغيث" في حديث "يتعاقبون فيكم"(١٧).

وقد ألمع إلى رأي ابن مالك ومن تبعه في الاستشهاد بالحديث ، لكنه لم يأخذ به ، وليس ذلك إلا من باب الخوف والخشية والحيطة.

الشعر :

أجمع النحاة على الاستشهاد بالشعر الموثوق المعروف قائله ، وأسقطوا من شواهدهم الشعر غير معروف القائل(١٨). وحددوا ذلك بزمان ومكان محددين ، لكن ذلك لا يعني أنهم لم يخرموا هذه القاعدة ، ففي سيبويه عدد غير قليل من الشواهد مجهولة القائل ، وأخرى مروية بروايات متعددة ، وثالثة متنازعة بالنسبة.

والشارح في شرحه تبع المنهج نفسه في الاستشهاد، فأخذ بهذه القواعد لكن بغير صرامة ونرى ذلك من خلال هذا الجدول:

عدد الشواهد الشعرية ٢٩ شاهداً.

عدد الشواهد معروفة القائل ١٨ شاهداً.

عدد الشواهد غير معروفة القائل ٧ شواهد.

عدد الشواهد متنازعة النسبة ٤ شواهد.

فالشارح بقي على المنهج الذي جاءه من السابقين في استشهاده ورؤية نسبة الشواهد، وتماشيها مع القاعدة تؤكد تمسكه الشديد بالقواعد التي وصلته، وربما كان السبب الرئيسي في ذلك أنه لم يصل مرتبة الاجتهاد التي تسمح له بأن يختط طريقاً خاصة كما فعل ابن مالك، مع أنه يعرف ذلك ويدركه.

النثر:

استشهد النحاة بالنثر الذي قاله الفصحاء، ورواه الثقات(١٩) والشارح اكتفى بهذا الشرط، وبقي ملازماً له في رسالته، وقد اكتفى في شرحه بالاستشهاد بـ:

قولين لسيدنا عمر رضي الله عنه(٢٠).

قولين لسيدنا علي كرم الله وجهه(٢١).

ثلاثة أمثال(٢٢).

ذكر هذه الشواهد، وهي من أقوال الفصحاء، ورواها الثقات في كتبهم وقد روى مجموعة أخرى من الأقوال النثرية التي تداولها النحاة في كتبهم من سيبويه إلى يومنا، من مثل: قام زيد.. وغيرها من كلام النحاة الذي صيغ من أجل تعزيز قاعدة، أو تأكيد حكم نحوي، لم أقف مع هذه الأقوال لعدم الضرورة، ولأن شيخ زاده كما أشرت كان ناقلاً لآراء النحاة، جامعاً لها، مردداً لعباراتهم.

فشيخ زاده من أتباع المذهب البصري في الأخذ بأصول النحو، من سماع وقياس واحتجاج، وكذلك من أتباعه في الاستشهاد، لكنه توسع في ذلك قليلاً، في القراءات خاصة أخذاً بمذهب ابن جنّي في الاستشهاد بالقراءات القرآنية مهما كانت نوعيتها؛ متواترة، أم آحاداً، أم شاذة.

ولذلك المذهب ما يُسوغه عند القدماء، والمحدثين، من ابن جني إلى أبي حيان الذي أخذ بما عنده في "البحر المحيط" إلى المُرادي الذي اعتد بذلك في "توضيح المقاصد والمسالك" وقد أخذ ذلك عن أبي حيان

بإشارة إليه، وبغير إشارة وكذلك شارحنا المتأثر بالمُرادي وأبي حيان معاً، وقد ظهر ذلك واضحاً في كتابيه: "حاشيته على أنوار التنزيل" و"شرح قواعد الإعراب".

وبذلك يتضح لنا أنه كان من أتباع الأصول النحوية، لم يشأ أن يخرج عن إجماع النحاة، وإن وفق بين المذاهب أحياناً، في كثير من الدقة والأمانة العلمية في عزو الآراء إلى أصحابها..

آثاره:

لشيخ زاده مصنفات عديدة، متنوعة الاتجاهات، في الفقه واللغة والشعر والفرائض والتفسير، وهذا ما سأقف عنده وهو يحمل أكثر من دلالة على غزارة علمه، ومشاركته العلمية.

والمتتبع لهذه المصنفات يلحظ أنها جميعها تنتمي إلى كتب الأمليات العلمية، والسبب في ذلك ينبع من قيادة دفة التدريس، وهذه المهنة تقتضي من صاحبها أن يعطي من كل علم طرفاً، خاصة في تلك الحقبة التي لم يكن الاختصاص ذا قيمة فيها، بل كانت المشاركة في العلوم هي الدالة على طول باع المدرس، وحسن تعليمه.

وقد ذكر له صاحب الكشف(٢٣):

١- "حاشية على أنوار التنزيل للبيضاوي"، ذكر حاجي خليفة هذا المصنف في مواضع عدة من كتابه، وذكر أن هذا الكتاب "حاشية شيخ زاده" هو أفضل حواشي "أنوار التنزيل" من بين الحواشي الكثيرة التي كُتبت على "تفسير البيضاوي" وفي ذلك دلالة على مكانة "الشارح" في عالم التفسير والتصنيف..

وفي الوقت نفسه أشار حاجي خليفة، وغيره من مؤرخي الكتب العربية إلى أن هذا الكتاب "حاشيته على أنوار التنزيل" أفضل مصنفاته، وعند العودة إلى مصنف شيخ زاده هذا ما شدني إليه فالكتاب على قدر كبير من الأهمية، وفيه الكثير من العلم الدال على المشاركة وقد طبع هذا الكتاب في أوائل هذا القرن، وعرفه الباحثون، وقدروه حق قدره، ووضع في مكانته اللائقة بين كتب التفسير وحواشيها.

ولعل هذا الكتاب هو السبب الأول في شهرة شيخ زاده، ورفعه إلى مرتبة الشرّاح الكبار، في الوقت الذي كثرت فيه كتب الحواشي.

وقد ردد ذكره المصنفون مثل: (معجم المطبوعات العربية لسركيس ـ ومعجم الأعلام للزركلي ـ ومعجم المؤلفين لكحالة..).

حتى إن كتب التراجم نسبت شيخ زاده إليه، وأضفت صفة الكتاب على الكاتب فذكر كحالة: "مفسّر، فرضي، مشارك في بعض العلوم، كان مدرساً بالقسطنطينية"(٢٤) ونقل الزركلي في أعلامه نقلاً عن حاجي خليفة قوله:

"هي أعظم الحواشي فائدة وأكثرها نفعاً، وأسهلها عبارة"(٢٥).

٢- شرح "مفتاح العلوم" للسكاكي، وهو واحد من أهم كتب هذا الفن وأشهرها تصدى شيخ زاده لشرحه، وقد أشار إلى هذا الشرح في "شرح قواعد الإعراب".

وهو من دلائل مشاركة شيخ زاده، وغزارة علمه، وقد ذكرته كتب الفهارس والتراجم(٢٦).

٣- شرح "مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية"(٢٧) للصاغاني وقد سماه الزركلي (حاشية)، والشرح والحاشية في تلك الحقبة المتأخرة أخذا اسماً واحداً، مع أن الشرح أرفع رتبة عند المصنفين القدامى من الحاشية. حتى إن التأليف في هذا العصر عُرف بتأليف الحواشي والشروح، مدحاً كان أم ذماً.

٤- شرح "وقاية الرواية في مسائل الهداية"(٢٨) في الفقه الحنفي، وشيخ زاده من الفقهاء الأحناف، وقد أسهم إسهاماً كبيراً في إغناء مكتبة الفقه الحنفي بعدد من الكتب والشروح، وهذا واحد من كتبه المهمة في هذا الباب، كما نقل أصحاب الفهارس والتراجم.

٥- شرح "الكواكب الدرية في مدح خير البرية"(٢٩) للبوصيري، المعروفة بـ: "البردة وهي من مشاركاته البلاغية والشعرية معاً، وهذه القصيدة من أهم قصائد المدح النبوي، وهي من أشهر تلك القصائد التي عرفت فيما بعد باسم "البديعية" وذلك لاهتمامها الكبير بالجانب البديعي في هذا الجانب(٣٠).

٦- تعليق على "الهداية في الفروع" للمرغيناني الحنفي(٣١)، وهو من إسهاماته في الفقه الحنفي أيضاً.

٧- شرح "الفرائض السراجية"(٣٢)، وهو من الكتب المشهورة في بابه أيضاً، ويعزز نسبة شيخ زاده الفقهية.

٨- "شرح قواعد الإعراب" لابن هشام وهو الكتاب الذي أقدّمه في هذه الدراسة، ولم تشر الكتب إلى هذا الكتاب غير إشارات لا تروي غلة، لكن المخطوطتين نسبتا إلى شيخ زاده.

وقد جمع في هذا الكتاب مجموعة علومه التي سبق ذكرها وأهمها، بل جلها في التفسير والفقه.

لابد في هذه الوقفة مع مؤلفات (مصنفات) شيخ زاده من تسجيل ملاحظات وتعاليق حولها:

١- ليس في تآليف (شيخ زداه) إبداع تأليفي خاص به، أي لم ينشئ المصنف كتاباً خاصاً به، وإن حملت كتبه شيئاً من بصمته الخاصة، لكن الحق أنه كان في تصانيفه مرتكزاً على غيره.

٢- مصنفاته عديدة، والعلوم التي تعلمها وعلمها متنوعة، لكن طابعها العام فقهي تفسيري.

٣- مصنفات شيخ زاده كافة تحمل اسم شرح أو حاشية فهو من المحشين الشارحين، وهذا الصنف من المؤلفين لا يبلغ درجة الإمامة مهما بلغ.

٤- أثر مهنته التدريسية، - وقد كان أستاذاً في استانبول- في مؤلفاته واضح للغاية، وذلك من خلال النوعية، وقد ألفت لتقريب مؤلفات الأصول إلى الطلاب الذين يجلسون إليه في حلقته التدريسية.

ويظلم كثير من النقاد مثل هذه النوعية من التأليف، ويعدونها هامشية لا قيمة لها، ويعدها آخرون عظيمة في مرتبة التأليف، لكن الحق يقتضي أن تأخذ مكانها السليم، فهي ثقافة عصر، ومنهج جيل من المؤلفين المصنفين، ولو حاولنا إحصاء أسماء الشروح لأعجزنا ذلك.

وكم من الشروح ضاعت لأنها ليست أصيلة، وكم منها عاشت لأنها تحمل بصمة الشارح، ولا ريب في أن سُمعة شروح شيخ زاده الجيدة، جعلتها من الطائفة التي ترتقي لتلتقي التأليف، وإن أدنى درجة.

❑❑

هوامش:

(١) كذا جاء اسمه في المصادر التي ترجمت له، وترجمته في "الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية" ٢٤٥، و"الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة" ٥٩/٢، و"شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ٤٠٩/١٠، و"معجم المطبوعات العربية ١١٦٦/٢، و"الأعلام ٩٩/٧، و"معجم المؤلفين" ٣٢/١٢.

(٢) الأستاذ المحقق إبراهيم صالح.

(٣) ترجمته كما في "الشقائق النعمانية" ٢٤٥.

(٤) "الشقائق النعمانية" طبعة د. أحمد صبحي فرات، واستعنت بها لأنها أفضل من حيث الفهرسة والدقة، وقد أطلعني عليها المحقق الفاضل محمود الأرناؤوط، بعد أن اصطحبها من تركيا.

(٥) "شذرات الذهب": ٤١٠/١٠.

(٦) "الأعلام": ٩٩/٧.

(٧) "الكتب الواردة في المتن" يدل عليه.

(٨) للموازنة بين أنواعها وكثرتها.

(٩) للتوسع في "أصول النحو" للأستاذ سعيد الأفغاني: ٤٧ وما بعدها.

(١٠) تفصيل الآراء في القياس والسماع، والشاذ، والفصاحة، والاحتجاج في "الاقتراح" للسيوطي: ٥٢، ٥٥، ٦٦، ١٢٢، ١٢٨، فلينظر الحديث النظري هناك.

(١١) "الاقتراح" السيوطي: ٣٦.

(١٢) "في أصول النحو" سعيد الأفغاني: ٢٨.

(١٣) "في أصول النحو": ٤٥.

(١٤) مواضع القراءات في شرحه.

(١٥) "في أصول النحو": ٤٧.

(١٦) "الاقتراح": ٤٠.

(١٧) الحديث ص ٤٦، وفي رواية أخرى سقط الاستشهاد به.

(١٨) "الاقتراح": ٥٥.

(١٩) "الاقتراح" ٥٥.

(٢٠) "الشرح": ٩٤- ١٣٤.

(٢١) "الشرح": ٤٣- ١٣٧.

(٢٢) "الشرح": ٩، ٢٥، ١٦٠.

(٢٣) "الشرح": ٩، ٢٥، ١٦٠.

(٢٤) كشف الظنون: ١٨٨، ١٢٤٧، ١٣٣٢، ١٦٨٩، ١٧٦٤، ٢٠٢٢، ٢٠٣٨.

(٢٤) "معجم المؤلفين" عمر رضا كحالة: ٣٢/١٢.

(٢٥) "الأعلام" للزركلي: ٩٩/٧.

(٢٦) "كشف الظنون": ١٧٦٤، "الأعلام": ٩٩/٧، "معجم المؤلفين": ٣٢/١٢.

(٢٧) "كشف الظنون": ١٦٨٩، "الأعلام": ٩٩/٧.

(٢٨) "كشف الظنون": ٢٠٢٢، "الأعلام": ٩٩/٧، "معجم المؤلفين": ٣٢/١٢.

(٢٩) "كشف الظنون": ١٣٣٢، "الأعلام": ٩٩/٧، "معجم المؤلفين": ٣٢/١٢.

(٣٠) لمزيد دمن التفصيل انظر "البديعيات في الأدب العربي" تأليف علي أبو زيد.

(٣١) "كشف الظنون": ٢٠٣٨.

(٣٢) "كشف الظنون": ١٢٧٤، "الأعلام": ٩٩/٧، "معجم المؤلفين": ٣٢/١٢.

المصادر والمراجع

- الإعراب عن قواعد الإعراب، ابن هشام، تحقيق رشيد العبيدي، دار الفكر- بيروت ط١ ١٩٧٠.
- أنوار التنزيل مع حاشية شيخ زادة، البيضاوي، المكتبة الإسلامية، ديار بكر- تركيا.
- التبيان في إعراب القرآن، العكبري، تحقيق محمد علي البجاوي- دار الجيل- بيروت ط٢ ١٩٨٧.
- حروف المعاني للزجاجي، تحقيق د. علي توفيق الحمد- مؤسسة الرسالة- بيروت ط٢ ١٩٨٦.
- شرح قواعد الإعراب، الكافيجي، تحقيق د. فخر الدين قباوة- دار طلاس- دمشق ١٩٨٩.
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة- بيروت- ط٢ ١٩٨٧.
- الكشاف، الزمخشري، دار المعرفة- بيروت ط مصورة.

- كشف الظنون، حاجي خليفة، دار الفكر- بيروت ط ١٩٨٢.
- اللامات، الزجاجي، تحقيق د. مازن المبارك، مجمع اللغة العربية ط٢ ١٩٦٩.
- معجم المطبوعات العربية، إليان سركيس، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت.
- مغني اللبيب كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق سعيد الأفغاني، المبارك، حمد الله دار الفكر- بيروت ط٥ ١٩٧٩.
- من رسائل ابن هشام النحوية، تحقيق حسن إسماعيل مروة، مكتبة سعد الدين، دمشق ط١ ١٩٨٨.
- ابن هشام حياته وآثاره د. عصام نور الدين، دار الكتاب العالمي- بيروت.
- ابن هشام النحوي، د. سامي عوض، دار طلاس دمشق ط١ ١٩٨٧.

❑❑

رسالة في (كان) الناقصة وأخواتها لأحمد بن محمد القطان (ت بعد ١١٠٠هـ)

د. ملاذ زليخة*

ملخص البحث

بدأ البحث بمقدمة تحدثت فيها عن سبب اختياري الموضوع، وعن طريقة المؤلف في عرض مادة موضوعه، وأثبت صحة عنوان المخطوط، وصحة نسبته إلى المؤلف، وأشرت إلى أني لم أقف على ترجمة المؤلف، وبينت أني اعتمدت على نسخة مخطوطة وحيدة، ثم وصفت النسخة المخطوطة التي اعتمدتها، وعرضت الورقة الأولى والأخيرة منها، ثم ذكرت منهجي في التحقيق، وعرضت بعد ذلك النص محققًا.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فهذا البحث تحقيق لمخطوط بعنوان[1]: (رسالة في كان الناقصة وأخواتها) قام فيه صاحبه أحمد بن محمد القطان بجمع آراء النحاة في "كان" الناقصة وأخواتها من جهة أنها قيد أو مسندة أو زائدة، لأن النحاة مختلفون في هذه المسألة.

* مدرسة في جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة العربية

(١) عثرت في النت على تحقيق سابق للمخطوط للدكتور خليل السامرائي مكتوب على صفحة العنوان أنه حققها ونشرها سنة ٢٠١١م، لكني لم أعثر على مكان النشر. وقد وجدت أن تحقيقه ينقصه التوثيق في بعض المواضع، وعثرت على بعض الأخطاء في نسخ المخطوط، مما دعاني إلى إعادة تحقيقه.

وقد عرض المصنف فيها آراء النحاة وناقشها نقاشًا علميًا دقيقًا، وبين رأيه فيها ورجح رأيا على آخر، وعقب على بعض الأقوال بأسلوب سهل واضح جلي لا تعقيد فيه مستعينا بالأمثلة للتوضيح مستندًا إلى أقوال أئمة النحو في ذلك ومستشهدًا بالآيات القرآنية، مختارًا بعد ذلك ما رآه صوابًا.

وعنوان المخطوط صحيح لا شك فيه كما يبدو، لأنه قال في بداية المخطوط: (اعلم أن العلماءَ اختلفَ رأيُهم في "كان" الناقصة وأخواتِها من جهة أنها قيدٌ أو مسندةٌ).

أما مؤلف الرسالة فهو كما جاء في آخر ورقة من المخطوط أحمد بن محمد القطان ولم أهتدِ إلى ترجمته فيما عدت إليه من مصادر، ويبدو أنه توفي بعد سنة ١١٠٠ للهجرة لأنه قال في آخر الرسالة: (انتهى جمعُها يومَ الثلاثاء، سابعَ ذي القَعدة الحرام، سنةَ مئةٍ وألفٍ على يد جامعِها أحمدَ بنِ محمدٍ القَطّان)[١].

وقد اعتمدت في تحقيق هذا المخطوط على نسخة وحيدة، وهي نسخة مكتبة جامعة الملك سعود في الرياض، ولم أهتد بعد البحث إلى نسخة أخرى

وقد رغبت في تحقيقها ونشرها على الرغم من كونها وحيدة، لأنها تامة وغير مخرومة، وواضحة، ولأن جلّ ما كتبه المؤلف هو نقل عن العلماء، وهذا ما جعل مصنفات الذين نقل عنهم نسخًا أخرى مساعدة إضافة إلى هذه النسخة الوحيدة. ولما رأيته من فوائد فيها تتعلق بكان الناقصة وأخواتها. فآثرت أن أخرج هذا المخطوط ليرى النور، وليكون بين يدي طلبة هذا العلم، فينهلون منه ما ينفعهم.

والله أسأل أن يحقق هذا العمل الأمل المرجو في خدمة طلبة العلم، وأن يجعله عملاً خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعني وينفع به في الدنيا والآخرة، آمين.

منهج المؤلف ومصادره

أولا ـ منهجه:

قام منهج المؤلف في رسالته على جمع آراء العلماء ثم عرضها واستنباط الأحكام منها وترجيح مذهب على آخر معللاً تعليلاً منطقيًا بأسلوب موجز وسهل وواضح لا تعقيد فيه، مستندًا في تعليله أيضًا إلى أقوال العلماء.

ومما يلحظ في منهجه أنه كان إذا رأى في الرأي المنقول فوائد زائدة عن الفكرة التي يتحدث عنها فإنه يذكره كاملاً ولا يضن على القارئ بمزيد فائدة. مثال ذلك قوله بعد أن نقل عن ناظر الجيش[٢]: (وإنما سقتُه بطولِه وإن كان المقصودُ حاصلاً من بعضِه لحسنِه وكثرةِ فوائدِه).

---

(١) انظر ما ذكره الدكتور خليل السامرائي في تحقيقه ص ٤٢٦ وما بعد

(٢) انظر النص المحقق ص ١٢

وهو في أثناء عرضه لآراء العلماء قد يتعقب أحيانًا قول أحد العلماء الذين ينقل عنهم وينتقده معتمداً على التعليل المنطقي محتجًا بالآيات القرآنية. مثال ذلك قوله بعد أن نقل عن ناظر الجيش أيضًا[١] : (أقول: وفي كونِ قولِ سيبويه يحققُ ذلك نظرٌ).

وبعد عرضه الآراء تراه يعتمد رأيًا بعينه معبرًا عن ذلك بقوله[٢] : (وهذا هو الصحيح)

وفي ختام بحثه أوجز مضمون الآراء التي عرضها وما استنتج منها بأسلوب بسيط واضح مؤيداً ما ذهب إليه بقول أحد أئمة أعلام العربية[٣].

ثانيًا ـ مصادره:

استقى المؤلف مادته من مصادر عدة، تعد من أجل المؤلفات في علوم العربية، وجل مادته كانت من التسهيل لابن مالك وشروحه.

وهو في نقله عن تلك المصادر يسلك طريقين، فهو إما أن يصرح بذكر اسم المصدر، أو بذكر اسم صاحبه ربما لشهرته له.

المصادر التي صرح بذكر اسمها:

الإيضاح للقزويني، والتلخيص للقزويني، وشرح التلخيص للسعد التفتازاني، وشرح التخليص للشيخ محمد بن سليمان، وشرح التسهيل للدماميني، وشرح التسهيل لناظر الجيش، وشرح التسهيل لابن مالك[٤].

المصادر التي صرح بذكر اسم مؤلفها:

الجوهري[٥]، الرضي[٦]

---

[١] انظر النص المحقق ص ١٤

[٢] انظر النص المحقق ص ١٥

[٣] وذلك عندما قال: (ثم أقولُ ـ واللهُ أعلمُ ـ أن المذهبَ الأولَ ناظرٌ إلى معنى الكلام...) إلى آخر النص. انظر النص المحقق ص ١٦.

[٤] انظر النص المحقق ص٨٤ وما بعدها.

[٥] انظر النص المحقق ص ٨٤ وما بعدها.

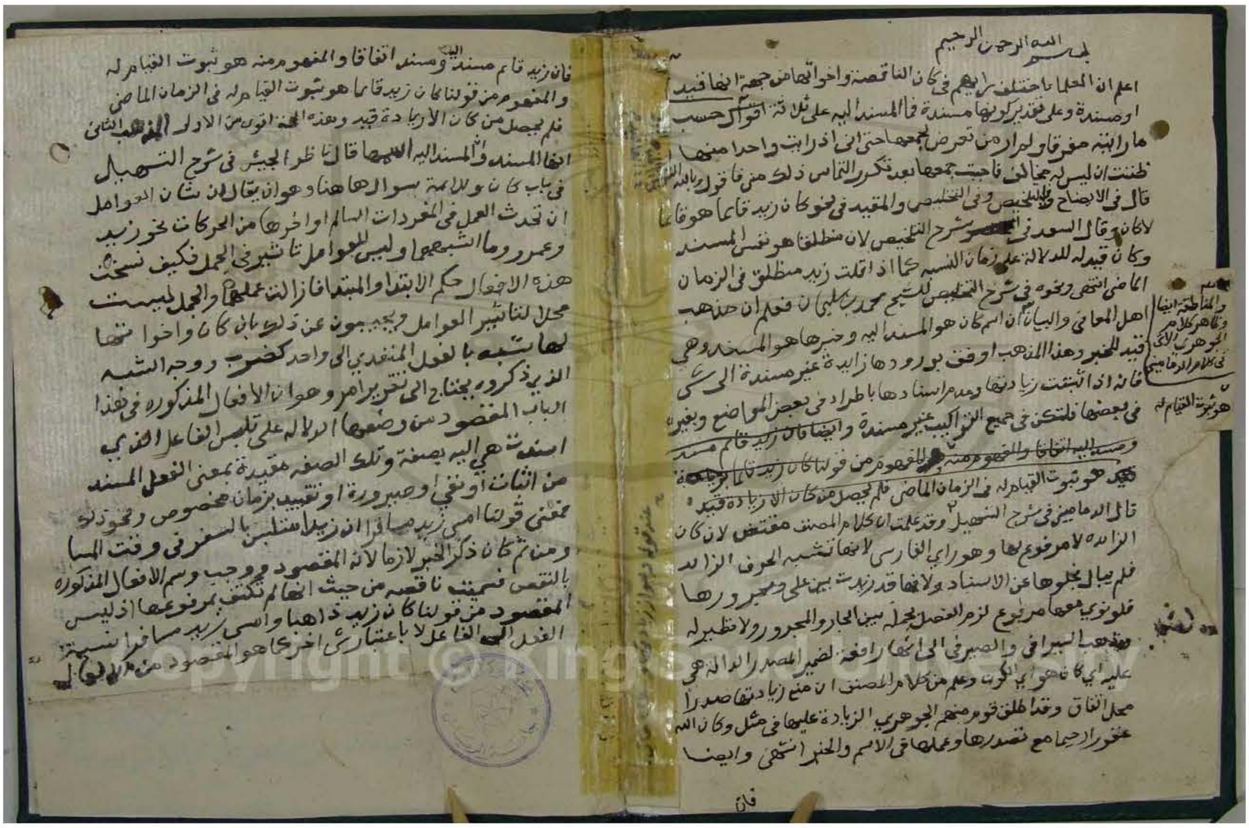
[٦] انظر النص المحقق ص٨٤ وما بعدها.

وصف النسخة المخطوطة

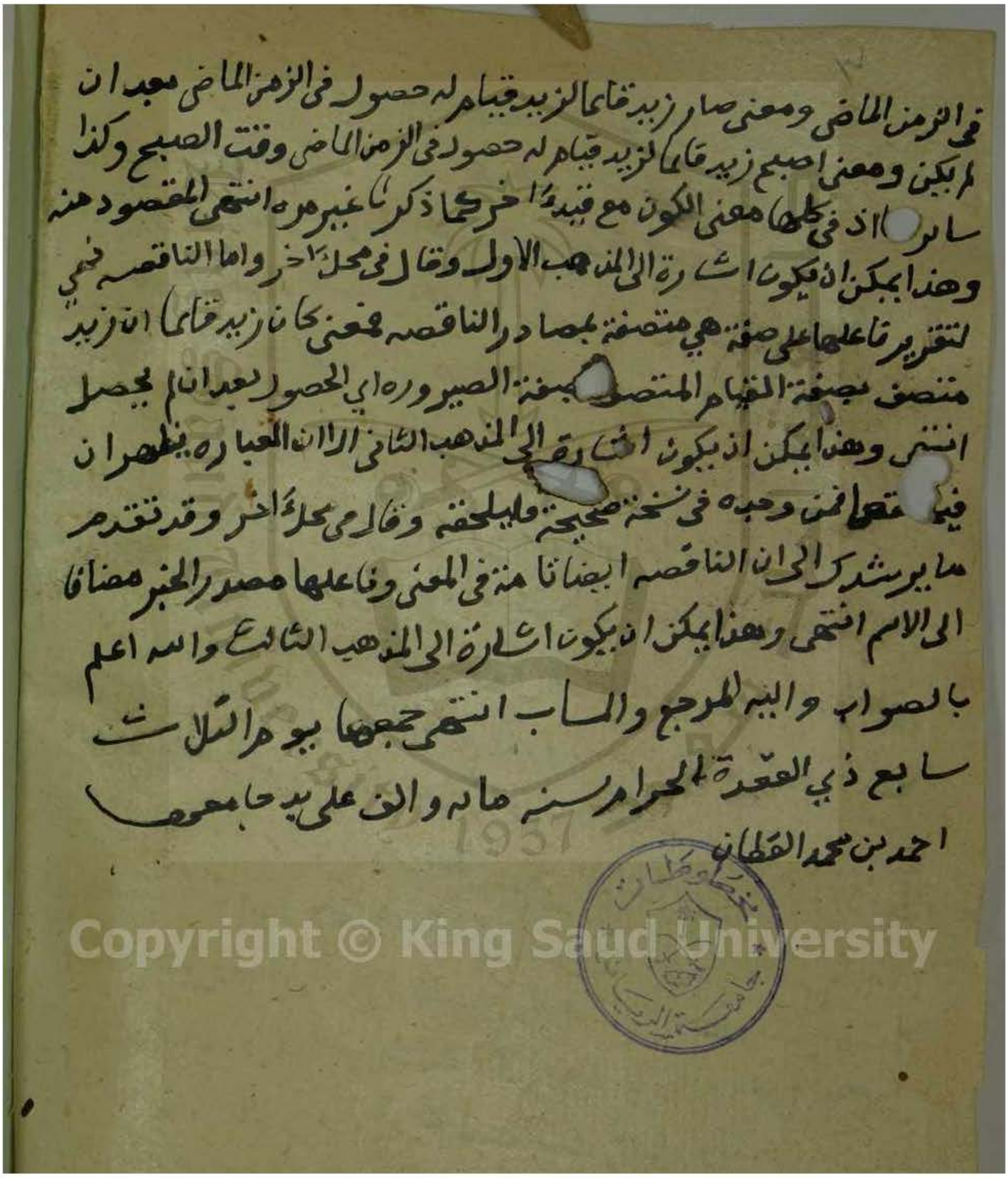
نسخة تامة حسنة ، محفوظة في مكتبة جامعة الملك سعود في الرياض تحت رقم ١٩٩٩ ، وهي نسخة متوسطة الحجم ، عدد أوراقها أربع ، وعدد سطورها تسعة عشر سطرًا ، ما عدا الصفحة الخيرة فعدد سطورها ثلاثة عشر سطراً ، قياس ١٩ × ١٤سم ، وخطها واضح ومعتاد باستثناء الصفحة الأخيرة طمست بعض كلماتها.

بدأها المؤلف بقوله : (اعلم أن العلماء اختلف رأيهم في كان الناقصة وأخواتها).

وختمها بقوله : (انتهى جمعها يوم الثلاثاء ، سابع ذي القعدة الحرام ، سنة مئة وألف على يد جامعها أحمد بن محمد القطان).



أول ورقة من المخطوطة


في الزمن الماضي ومعنى صار زيد قائما الزيد قيام له حصول في الزمن الماضي بعد ان
لم يكن ومعنى اصبح زيد قائما الزيد قيام له حصول في الزمن الماضي وقت الصبح وكذا
سائرها اذ في كلها معنى الكون مع قيد آخر كما ذكرنا غير مرة انتهى المقصود منه
وهذا يمكن ان يكون اشارة الى المذهب الاول وقال في محل آخر واما الناقصة فهي
لتقرير فاعلها على صفة هي متصفة بمصادر الناقصة فمعنى كان زيد قائما ان زيد
متصف بصفة القيام المتصف بصفة الصيرورة اي الحصول بعد ان لم يحصل
انتهى وهذا يمكن ان يكون اشارة الى المذهب الثاني الا ان العبارة يظهر ان
فيها سقطا فمن وجده في نسخة صحيحة فليلحقه وقال في محل آخر وقد تقدم
ما يرشدك الى ان الناقصة ايضا تامة في المعنى وفاعلها مصدر الخبر مضافا
الى الاسم انتهى وهذا يمكن ان يكون اشارة الى المذهب الثالث والله اعلم
بالصواب واليه المرجع والمآب انتهى جمعها يوم الثلاث
سابع ذي القعدة الحرام سنة مائة والف على يد جامعه
احمد بن محمد القطان

آخر ورقة من المخطوطة

منهج التحقيق

قام منهج تحقيق هذه الرسالة على :

- إخراج النص على نحو مقبول يخلو من التصحيف والتحريف والسقط قدر الإمكان.
- قمت بمقابلة النصوص التي نقلها المؤلف من المصادر التي وثقتها منها إضافة إلى النسخة المخطوطة.
- التعريف الموجز بالأعلام التي رأيت أن قد يحتاج القارئ إلى معرفة شيء عنها
- تخريج الآيات القرآنية والشواهد الشعرية من مظانها، مع الإشارة إلى اختلاف الرواية إن وجد، وكذا أشرت إلى اسم صاحب الشعر الذي لم ينسبه إليه المؤلف.
- توثيق النصوص التي نقلها المؤلف عن سابقيه ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلمْ أن العلماءَ اختلفَ رأيُهم في "كان" الناقصة وأخواتِها من جهة أنها قيدٌ أو مسندةٌ.

وعلى تقدير كونِها مسندةً، فالمسندُ إليه على ثلاثة أقوال حسَبَ ما رأيته مفرقًا، ولم أرَ من تعرَّضَ لجمعِها، حتى إني إذ رأيتُ واحدًا منها ظننتُ أنْ ليس له مخالفٌ، فأحببتُ جمعَها بعد تكررِ التماسِ ذلك مني، فأقول ـ وبالله التوفيق ـ :

قال في الإيضاح وفي التلخيص[1] : ((والمقيدُ في نحو: "كان زيدٌ قائمًا" هو "قائمًا" لا "كان")). وقال السعدُ[2] في شرح التلخيص[3] : ((((لأنَّ "منطلقًا" هو نفسُ المسندِ، و"كان" قيدٌ له، للدلالة على زمانِ النسبة، كما إذا قلت: "زيدٌ منطلقٌ" في الزمانِ الماضي)) انتهى.

ونحوه في شرح التخليص للشيخ محمدِ بنِ سليمانَ[4]، فعُلم أن مذهبَ أهلِ المعاني والبيان والمناطقة

---

(١) في الأصل هنا زيادة: (وفي التلخيص) ولا وجه لها. انظر النص المنقول في الإيضاح للقزويني ٩٦، وشرح التلخيص للتفتازاني ٢/ ٣٣ وفيه: (منطلقًا) بدلا من (قائمًا).

(٢) مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين: من أئمة العربية والبيان والمنطق. ولد بتفتازان (من بلاد خراسان) وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، فتوفى فيها سنة ٧٩٣ هـ، ودفن في سرخس. كانت في لسانه لكنة. انظر بغية الوعاة ٢/ ٢٨٥، والأعلام ٧/ ٢١٩

(٣) شرح التلخيص للتفتازاني ٢/ ٣٣

(٤) لم أجد الكتاب ولا صاحبه فيما عدت إليه من مصادر ولم أجد أيضا فيما عدت إليه من كتب التراجم ترجمة لصاحب الكتاب المذكور، وفي هدية العارفين ٢/ ٢٩٨ كتاب تخليص التلخيص في مختصره في المعاني للسوسي الروداني، واسمه محمد بن محمد بن سليمان بن فاسي بن طاهر المالكي نزيل الحرمين، توفي بدمشق سنة ١٠٩٤هـ

أيضًا، وظاهرُ كلامِ الجوهري [(١)] الآتي في كلامِ الدماميني [(٢)] أن اسمَ "كان" هو المسندُ إليه، وخبرُها هو المسندُ، وهي قيدٌ للخبر. وهذا المذهبُ أوفقُ بورودِها زائدةً غيرَ مُسندةٍ إلى شيء، فإنه إذا ثبتَ زيادتُها وعدمُ إسنادِها باطّرادٍ في بعض المواضع وبغيره في بعضِها، فلْتكنْ في جميع التراكيبِ غيرَ مسندةٍ.

والمفهومُ من قولِنا: "بزيادةِ قيدٍ" هو ثبوتُ القيامِ له في الزمانِ الماضي، فلم يحصلْ مِن "كان" إلا زيادةُ قيدٍ.

قال الدمامينيُّ في شرح التسهيل [(٣)]: ((وقد علمتَ أنّ كلامَ المصنّفِ مُقتضٍ لأن "كان" الزائدةَ لا مرفوعَ لها ـ وهو رأيُ الفارسيّ [(٤)]، لأنها تُشبِهُ الحرفَ الزائدَ، فلم يبالِ بخلوِّها من [(٥)] الإسناد، ولأنها قد زيدت بين "على" ومجرورها، فلو نُويَ معها مرفوعٌ لُزِمَ الفصلُ بجملةٍ بين الجار والمجرور، ولا نظيرَ له. وذهب السيرافيّ والصَّيْمَريّ [(٦)] إلى أنها رافعةٌ لضميرِ المصدرِ الدالةِ هي عليه، أي: "كان هو"، أي الكَوْنُ. وعُلِمَ من كلامِ المصنّفِ أن مَنْعَ زيادتِها صدراً محلُّ اتفاقٍ [(٧)]، وقد أطلق قومٌ منهم الجوهريُّ [(٨)] الزيادةَ عليها في مثل: ﴿ چ چ چ ﴾ [(٩)] مع تصدُّرِها وعملِها في الاسمِ والخبر)). انتهى.

وأيضًا [١/أ] فإن "زيدٌ قائمٌ" مسندٌ إليه ومسندٌ اتفاقًا. والمفهومُ منه هو ثبوتُ القيامِ له. والمفهومُ من قولنا: "كانَ زيدٌ قائمًا" هو ثبوتُ القيامِ له في الزمانِ الماضي، فلم يحصلْ من "كان" إلا زيادةُ قيدٍ، وهذه الحجةُ أقوى من الأولى.

(١) عبارته في الصحاح (كون): ("كان" إذا جعلته عبارة عما مضى من الزمان احتاج إلى خبر، لأنه دل على الزمان فقط، تقول: كان زيدٌ عالمًا، وإذا جعلته عبارة عن حدوث الشيء ووقوعه استغنى عن الخبر، لأنه دل على معنى وزمان، تقول: كان الأمرُ، وأنا أعرفه مذ كان، أي مذ خُلق).

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد، المخزومي القرشي، بدر الدين المعروف بابن الدماميني: عالم بالشريعة وفنون الادب. ولد في الاسكندرية، واستوطن القاهرة ولازم ابن خلدون. وتصدر لإقراء العربية بالأزهر، توفي سنة ٨٥٦هـ انظر: الضوء اللامع ٧: ١٨٤ وما بعد، وبغية الوعاة ١/ ٦٦، ٦٧، والأعلام للزركلي ٦/ ٥٦- ٥٧

(٣) انظر تعليق الفرائد للدماميني ٣/٢٢١

(٤) في تعليق الفرائد هنا زيادة: (قال) وانظر رأي الفارسي في شرح الرضي على الكافية ٤/ ١٩٢، وهمع الهوامع للسيوطي ٢/ ١٠١

(٥) في الأصل (عن) والصواب ما أثبته

(٦) في الأصل: الصيرفي والصواب ما أثبته. وانظر رأي السيرافي والصيمري في همع الهوامع ٢/ ١٠١، والصيمري هو عبد الله بن إسحاق أبو محمد، نحوي، توفي سنة ٥٤١هـ. معجم المؤلفين ٦/ ٨٧

(٧) في تعليق الفرائد: (محل وفاق)

(٨) الصحاح (كون)

(٩) النساء ٤/ ٩٦

المذهبُ الثاني أنّها المسندُ وأن المسندَ إليه اسمُها، قال ناظرُ الجيشِ[(١)] في شرحِ التسهيلِ في باب كان[(٢)]: ((وللأئمةِ سؤالٌ ههنا، وهو أن يُقالَ: إن شأن العواملِ أن تُحدثَ العملَ في المفردات السالمِ أواخرها من الحركات، نحو: زيدٌ وعمرٌو وما أشبههما، وليس للعوامل تأثيرٌ في الجمل، فكيف نسخت هذه الأفعالُ حكمَ الابتداء والمبتدأ[(٣)] فأزالت عملَهما[(٤)]، والجملُ[(٥)] ليست محلا لتأثير العواملِ؟ ويُجيبونَ عن ذلك بأنَّ "كان" وأخواتِها لها شبهٌ بالفعل المتعدي إلى واحد[(٦)]، كضَرَبَ. ووجهُ الشبهِ الذي ذكروهُ يحتاجُ إلى تقرير[(٧)] أمرٍ، وهو أن الأفعالَ المذكورةَ في هذا البابِ المقصودُ من وضعِها الدلالةُ على تلبّسِ الفاعلِ الذي أُسندتْ هي إليه بصفة، وتلك الصفةُ مقيدةٌ بمعنى الفعل المسندِ، من إثباتٍ، أو نفيٍ، أو صيرورةٍ، أو تقييدٍ بزمانٍ مخصوصٍ، ونحوِ ذلك. فمعنى قولِنا: "أمسى زيدٌ مسافرًا" أن زيدًا تلبّسَ بالسفر في وقتِ المساء، ومن ثَمّ كانَ ذِكْرُ الخبرِ لازمًا، لأنه [هو][(٨)] المقصودُ، ووجبَ وَسْمُ الأفعال المذكورةِ بالنقص، فسُميتْ ناقصةً من حيثُ أنّها لم تكتفِ بمرفوعِها، إذ ليس المقصودُ من قولِنا: "كان زيدٌ ذاهبًا"، و"أمسى زيدٌ مسافرًا" نسبةَ الفعلِ إلى الفاعلِ، لا باعتبار شيءٍ آخر، كما هو المقصودُ من الأفعال[١/ب] التامةِ إذا أُسندَت إلى فاعليها، نحو: "ضَرَبَ [زيدٌ]"[(٩)]، بل المقصودُ نسبتُها إلى الفاعل باعتبارِ صفةٍ اتصفَ بها وثبتتْ له مقيدةً بمعنى ذلك الفعلِ، الفعلِ، فبمقتضى هذا التقديرِ قالوا صارَ كلٌّ من هذه الأفعالِ من حيث إنه يستدعي صفةً وصاحبَها شبيهَ[(١٠)] الفعلِ التامِّ المتعدي إلى واحدٍ؛ لاستدعائه شيئين[(١١)].

والفعلُ المتعدي إلى واحدٍ يرفعُ الفاعلَ وينصبُ المفعولَ، فكانت هذه الأفعالُ الناقصةُ كذلك ترفعُ المبتدأَ تشبيهًا بالفاعلِ وتنصبُ الخبرَ تشبيهًا بالمفعول، وحينئذ يقالُ: إنما عملتْ "كان" وأخواتها في الاسمين بعدها لشبهها[(١٢)] والفعلُ المتعدي إلى واحدٍ يرفعُ الفاعلَ وينصبُ المفعولَ، فكانت هذه الأفعالُ الناقصةُ

(١) هو محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، عالم بالعربية، من تلاميذ أبي حيان، توفي في القاهرة سنة ٧٧٨هـ. انظر شذرات الذهب ٨/ ٤٤٦، والأعلام ٧/ ١٥٣

(٢) تمهيد القواعد ٣/ ١٠٦٧- ١٠٦٨

(٣) في تمهيد القواعد: أو المبتدأ

(٤) أي عمل الابتداء في المبتدأ وعمل المبتدأ في الخبر

(٥) في تمهيد القواعد: والجملة

(٦) في تمهيد القواعد: لواحد

(٧) في تمهيد القواعد: تقدير، والصواب ما أثبته من الأصل

(٨) ما بينهما سقط من الأصل وأثبته من تمهيد القواعد

(٩) ما بينهما زيادة من تمهيد القواعد

(١٠) في تمهيد القواعد: يشبه

(١١) في تمهيد القواعد زيادة: (كضربَ)

(١٢) في تمهيد القواعد: تشبيها

كذلك ترفعُ المبتدأ تشبيهًا بالفاعلِ وتنصبُ الخبرَ تشبيهًا بالمفعول، وحينئذ يقالُ: إنما عملتْ "كان" وأخواتها في الاسمين بعدها لشبهها[1] محمولةً في العمل عليها، وستعرفُ في باب "ظن" أنها إنما عَمِلتْ هي وأخواتُها لشبهها لشبهها بالأفعال الطالبةِ مفعولين ليس أصلُهما المبتدأ والخبر، كأعطيتُ. فمن ثمّ ساغَ تأثيرُ "إنّ" وأخواتِها، و"ظَنَنتَ" وأخواتها في أجزاء الجملة)). انتهى كلامُ الناظر. وإنما سقتُه بطوله وإن كان المقصودُ حاصلاً من بعضِه لحسنِه وكثرةِ فوائدِه. وهذا المذهبُ أوفقُ بكونِها أفعالاً، لأن كلَّ فعلٍ عاملٌ مُسندٌ، فلتكنْ هي مسندةٌ أيضًا.

وهذه الأفعالُ إذا استُعملتْ تامةً مسندةً اتفاقًا فلتكنْ عند استعمالِها ناقصةً مسندةً أيضًا، ويكون مالا يستعملُ منها تامًا محمولاً على ما يستعملُ تامًا، فإن قولَنا: "كان الشتاءُ" بمعنى: "حَدَثَ الشتاءُ". "كان" فيه مسندةٌ إلى الشتاءِ من غير قيدٍ. وقولنا: "كان الشتاءُ شديدًا"، "كان" فيه مسندةٌ إلى الشتاءِ المتلبِّسِ بالشدةِ المقيدةِ بكان.

المذهبُ الثالثُ أنّها المسندُ، وأنّ المسندَ إليه النسبةُ التي بين معموليها، قال ابنُ مالكٍ في شرح التسهيلِ[2]: ((زعم جماعةٌ [٢/أ] منهم ابنُ جنيّ وابنُ بَرْهانَ[3] والجرجانيُّ[4] أنّ "كان وأخواتِها" تدلُّ على زمنِ وقوعِ الخبر، ولا تدلُّ على حدَث. ودعواهم باطلةٌ من عشرةِ أوجه))

ثم ذكر العشرةَ الأوجه، وذكرَها عنه الدمامينيُّ في شرح التسهيل، وقال بعدَها[5]: ((ولا يخفاكَ ما في بعض هذه الوجوه من الضَّعف)). ثم قال ابنُ مالكٍ[6] بعد إيرادِه الوجهَ العاشرَ: ((وما ذهبتُ إليه في هذه المسألة من كون هذه الأفعال دالةً على مصادرها هو ظاهرٌ من قول سيبويه[7] والمبرد[8] والسيرافي[9]، وأجاز السيرافي[9]، وأجاز السيرافيُّ الجمعَ بين "كان" ومصدرها توكيدًا، ذكَرَ ذلك في شرحِ الكتاب[10]، وإذ قد بينتُ بالدلائل المذكورة أن هذه الأفعالَ غيرَ "ليس" دالةٌ على الحدث والزمان كغيرها من الأفعال، فلْيُعلمْ أن سببَ تسميتِها نواقصَ إنما هو لعدمِ اكتفائها بمرفوع، وإنما لم تكتفِ بمرفوع؛ لأن حدثَها مقصودٌ إسنادُه إلى

(١) في تمهيد القواعد زيادة: (إذن)
(٢) شرح التسهيل ٣٣٨/١
(٣) عبد الواحد بن علي، ابن برهان الاسدي العكبري، أبو القاسم: عالم بالأدب والنسب، واللغة والنحو، توفي سنة ٤٥٦هـ. انظر إنباه الرواة ٢/ ٢١٣، والأعلام ٤/ ١٧٦
(٤) همع الهوامع ٢/ ٧٤
(٥) تعليق الفرائد ٣/ ١٧٤
(٦) شرح التسهيل ١/ ٣٤٠- ٣٤١
(٧) الكتاب ٤٦/١
(٨) المقتضب ٤/ ١٠١ وما بعده
(٩) شرح كتاب سيبويه للسيرافي ٢/ ٣٦٣ وما بعد
(١٠) المصدر السابق ٢/ ٣٦٧

النسبة التي بين معموليها، فمعنى قوله: "كان زيدٌ عالمًا" وُجد اتصافُ زيدٍ بالعلم. والاقتصارُ على المرفوعِ غيرُ وافٍ بذلك، فلهذا لم يستغنَ به عن الجزء الثاني[1]، وكان الفعلُ جديراً بأن ينسبَ إلى النقصان. وقد أشار إلى هذا المعنى سيبويه[2] بقوله: "كان عبدُ اللهِ أخاكَ"، فإنما أردتَ أن تخبرَ عن الأخوّة، فبيّنٌ أن "كان" مسندةٌ على النسبة، فمن ثَمّ نشأ[3] عدمُ الاكتفاءِ بالمرفوع)). انتهى كلامُ ابنِ مالك.

قال ناظرُ الجيش[4] بعد أن نقلَه من أوله، وذكر العشرةَ الأوجه ـ: ((ولا يخفى وجهُ حسنهِ ولطفِه[5]، لكنْ قولُه في الأفعالِ المذكورة أنّ حدَثها مقصودٌ إسنادُه إلى النسبة التي بين معموليها غيرُ ظاهرٍ، فإن الإسنادَ ظاهره[6] إنما هو إلى الاسمِ الواقعِ بعدها ٢/ ب لكنه إسنادٌ إليه بقيدِ تلبُّسِه بصفة، كما تقدم تقريرُه، ومن ثَمّ كان الإخبارُ بالصفة هو المقصودُ. وقولُ سيبويه[7] في: "كان عبدُ اللهِ أخاكَ" إنما[8] أردتَ أن تخبرَ عن الأُخوّة، يحققُ ذلك[9])). انتهى.

أقول: وفي كونِ قولِ سيبويه يحققُ ذلك نظرٌ، بل يصحُ تنزيلُه عليه وعلى ما قاله ابنُ مالك.

أما تنزيلُه عليه فلأن "كان" إذا قلنا أنها مسندةٌ إلى الاسم المقيد بتلبّسه بصفة، فكأنها مسندةٌ إلى تلك الصفة، لأن الكلامَ إذا كان مقيداً بقيد كان ذلك القيدُ هو المقصودُ منه.

وأما تنزيلُه على ما قاله ابنُ مالك فظاهرٌ، لأن النسبةَ التي بين "زيد أخوك" هي الأخوّة.

وأما تنزيلُ كلامِ سيبويه على المذهب الأول ـ وهو أن "كان" قيدٌ للمسند ـ فيحتاج إلى عناية وإلى تكلف بأن تجعلَ كلامَ سيبويه بمعنى الباء، كما قيل به في قوله تعالى[10]: ﴿ ٻ ٻ ٻ ٺ﴾ أي: به.

ثم قال ناظرُ الجيش[11]: ((ثم اعلمْ أن من ذهب إلى أن هذه الأفعالَ سُلبت الدلالة على الحدث وتجردت للدلالة على الزمان قال إنها لا يتعلقُ بها حرفُ جر ولا عملَ لها في ظرف الزمان ولا ظرف المكان، ومن ذهب إلى أنها لم تُسلبِ الدلالةَ على الحدث أجازَ لها العملَ في ذلك كله)) وهذا هو الصحيحُ، ولذلك

---

(١) في شرح التسهيل: (الخبر التالي)
(٢) الكتاب ١/ ٤٥
(٣) في شرح التسهيل: (بيّنا)
(٤) تمهيد القواعد ٣/ ١٠٨٩
(٥) (ولطفه) غير موجودة في تمهيد القواعد
(٦) في الأصل ظاهرا والصواب ما أثبته عن تمهيد القواعد
(٧) الكتاب ١/ ٤٥
(٨) في سيبويه: (فإنما)
(٩) أي أن "كان" مسندة إلى النسبة. وعبارة: (يحقق ذلك) لم أجده ا في نص سيبويه.
(١٠) النجم ٥٣/ ٣
(١١) تمهيد القواعد ٣/ ١٠٨٩

علق بعضهم[١] المجرورَ في قوله تعالى[٢] : ﴿ﭗ ﭘ﴾ بكان. وقد تقدّم نقلُ المصنفِ عن السيرافي أنه أجاز الجمعَ بين كان ومصدرِها[٣]، لكنّ الجمهورَ على أن ذلك لا يجوز، وذلك لأنهم عوضوا عن النطق بمصدرها الخبرَ، إذ هو المسندُ في الحقيقة لاسمِها[٤].

ثم بعد كُرّاسٍ قال[٥] : ((وقد قال ابنُ عصفور[٦] أن[٧] كلاً من الجزأين في هذا الباب لا يجوز حذفُه اقتصاراً ولا اختصاراً[٨] قال: أما المرفوعُ وإن كان مبتدأً في الأصل ـ والمبتدأُ قد يجوز حذفُه لفهم المعنى، فلأنه[٩] لما ارتفعَ بالفعل صار يشبه الفاعلَ، والفاعلُ [٣/ أ] لا يحذف، فكذا ما أشبهه. وأما المنصوبُ مع أنه أنه إن[١٠] نظرتَ إلى أصله وهو الخبرُ، فحذفُه جائزٌ لفَهْمِ المعنى، وإن نظرتَ إلى لفظِه الآن، وهو أنه يشبهُ المفعولَ، والمفعولُ يجوزُ حذفُه، فيجوزُ حذفُ ما أشبهَه، فلأنه ـ أي المنصوبَ ـ قد صار عِوضًا من المصدر، ولذلك لا يجوزُ: "كان زيدٌ قائمًا كونًا" كراهةَ الجمعِ بين عِوَض والمُعَوَّضِ عنه، ولولا أنه عِوَضٌ لجاز التصريحُ بالمصدر، فلما صارَ الخبرُ عوضًا من المصدرِ صارَ كأنه من كمالِ الفعل، وكأنه جزءٌ من أجزائه، فلم يُحذفْ لذلك)).

ثم قال[١١] : ((وقد يُحذفُ الخبرُ[١٢] في الضرورة، نحوَ قولِه[١٣] :

لَهفْي عليك لِلَهْفَةٍ من خائفٍ يبقى جِوارَكَ حين ليس مُجيرُ

يريد: "ليس في الدنيا مجيرُ"، فحَذَفَ لفَهمِ المعنى)) انتهى ما ذكَرَه الناظرُ.

وإنما ذكرتُه لحسنِه، إذ ليس هو مختصاً بمذهبٍ من المذاهبِ الثلاثة التي أنا بصددِها.

---

(١) هو ابن يعيش، انظر شرح المفصل ٤/ ١٤٠
(٢) يونس ١٠/٢
(٣) انظر ص ١٠
(٤) انظر همع الهوامع ٧٥/٢
(٥) تمهيد القواعد ٣/ ١١٥٠
(٦) شرح الجمل ٤١٠/١ وما بعدها
(٧) في تمهيد القواعد: وإن
(٨) في تمهيد القواعد: اختصارا ولا اقتصارا
(٩) في تمهيد القواعد: لأنه
(١٠) في تمهيد القواعد: إذا
(١١) تمهيد القواعد ٣/ ١١٥٠
(١٢) (الخبر) سقط في تمهيد القواعد
(١٣) قائله الشمردل بن شريك الليثي، وروي: (حين لات مجيرُ)، انظر: شرح الحماسة للمرزوقي ٩٥٠، والضرائر الشعرية ١٨٢، وأوضح المسالك ١/ ٢٠٥، ومغني اللبيب ٦/ ٤٤٨، والعيني ٢/ ١٠٣، وشرح الأشموني ١/ ٢١٣، والهمع ٢/ ٨٤، والخزانة للبغدادي ٤/ ١٧١

ثم أقولُ ـ واللهُ أعلمُ ـ أن المذهبَ الأولَ ناظرٌ إلى معنى الكلام، لأن "كان زيدٌ قائمًا" لم يزدْ في المعنى إلا قيدًا، فلهذا كانت "كانَ" قيدًا.

والمذهب الثاني ناظرٌ إلى اللفظ، لأن "كان" فعلٌ عاملٌ يتصلُ به الضميرُ ويسكّن آخرُه، لأجل ضميرِ الرفعِ المتحرك، فلهذا كانت مسندةً كسائرِ الأفعال.

والمذهب الثالث ناظرٌ إلى ما يؤولُ إليه المعنى، لأن معنى قولِنا: "كانَ زيدٌ قائمًا" يرجعُ إلى قولنا: ثبُت اتصافُه بالقيام، أو ثبُت قيامُه. وفي كلامِ الرضي ما يشيرُ إلى المذاهبِ الثلاثة، فإنه قال[1]: ((ولا تقع أخبارُ هذه الأفعال جملاً طلبيةً، وذلك لأن هذه الأفعالَ ـ كما تقدم ـ صفاتٌ لمصادرِ أخبارِها في الحقيقة، ألا ترى أن معنى: "كان زيدٌ قائمًا": لزيدٍ قيامٌ له حصولٌ [٣/ ب] في الزمن الماضي؟ ومعنى: "صار زيدٌ قائمًا": لزيدٍ قيامٌ له حصولٌ في الزمن الماضي بعد أنْ لم يكن؟ ومعنى: "أصبح زيدٌ قائمًا": لزيدٍ قيامٌ له حصولٌ في الزمن الماضي وقتَ

الصبح؟. وكذا سائرُها[2]، إذ في كلّها معنى الكونِ مع قيدٍ آخرَ، كما ذكرنا غيرَ مرة)). انتهى المقصودُ منه. وهذا يمكن أن يكونَ إشارةً إلى المذهب الأول.

وقال في محل آخر[3]: ((وأما الناقصةُ فهي لتقرير فاعلِها على صفة هي متصفةٌ بمصادر الناقصة، فمعنى "كان زيد قائمًا" أن زيدًا متصفٌ بصفة القيام المتصف بصفة الصيرورة، أي الحصولُ بعد أن لم يحصل شيءٌ)).

وهذا يمكن أن يكونَ إشارةً إلى المذهبِ الثاني، إلا أن العبارةَ يظهرُ أن فيها نقصًا، فمَن وجده في نسخةٍ صحيحةٍ فلْيلحقْه.

وقال في محل آخر[4]: ((وقد تقدم ما يرشدُك إلى أن الناقصةَ أيضًا تامةٌ في المعنى، وفاعلُها مصدرُ الخبر الخبر مضافًا إلى الاسم)). انتهى.

وهذا يمكن أن يكونَ إشارةً إلى المذهب الثالث، واللهُ أعلمُ بالصواب، وإليه المرجعُ والمآب.

انتهى جمعُها يومَ الثلاثاء، سابعَ ذي القَعدة الحرام، سنةَ مئةٍ وألفٍ على يد جامعِها أحمدَ بنِ محمدٍ القَطّان.

---

[1] شرح الكافية للرضي ٤/ ٢٠٢ نقله عنه المصنف بتصرف

[2] في الأصل: (سائر) والهاء مطموسة أثبتها من شرح الكافية

[3] شرح الكافية للرضي ٤/ ١٨٢ وعبارته بتمامها: ((وأما الناقصة فهي لتقرير فاعلها على صفة، متصفة بمصادر الناقصة، فمعنى كان زيد قائما: أن زيدا متصف بصفة القيام المتصف بصفة لكون أي الحصول والوجود، ومعنى صار زيد غنيا: أن زيدا متصف بصفة الغني المتصف بصفة الصيرورة أي الحصول بعد أن لم يحصل)).

[4] شرح الكافية للرضي ٤/ ١٩٠

المصادر والمراجع

- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، (١٩٨٠م)
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ط١، (١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ)
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٥، ١٩٦٦م
- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٩٨م
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، سوريا، دمشق، ط٢، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م
- تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، محمد بدر الدين الدماميني، تحقيق د. محمد بن عبد الرحمن بن محمد المفدى، ط١، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد الحنبلي، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
- شرح ألفية ابن مالك في النحو، علي بن محمد الأشموني، دار إحياء الكتب العربية، ط١
- شرح التسهيل، ابن مالك، تحقيق د. عبد الرحمن السيد، ود. محمد بدوي المختون، دار هجر للطباعة، مصر، ط١، ١٩٩٠م، ١٤١٠هـ
- شرح التسهيل المسمى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، ناظر الجيش، دراسة وتحقيق د. علي محمد فاخر وآخرون، دار السلام للطباعة، مصر، القاهرة، ط١، (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)
- شرح التلخيص للقزويني، سعد الدين التفتازاني، دار الكتب العلمية، بيروت
- شرح جمل الزجاجي، ابن عصفور، تحقيق صاحب أبو جناح، بغداد
- شرح ديوان حماسة أبي تمام، أبو علي المرزوقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م

- شرح الكافية لابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، مصورة عن طبعة الشركة الصحافية العثمانية، ١٣١٠هـ
- شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي، حققه وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.
- شرح المفصل في صنعة الإعراب، ابن يعيش، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م
- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، أبو نصر الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط٤
- ضرائر الشعر، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق السيد إبرهيم محمد، دار الأندلس، ط١، ١٩٨٠م
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، دار الجيل، بيروت، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)
- الكتاب، عمرو بن عثمان سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت
- معجم المؤلفين، عمر بن رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق وشرح د. عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ط١، (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)
- المقاصد النحوية (شرح الشواهد الكبرى) على هامش الخزانة للبغدادي، بدر الدين العيني، بولاق، ط١
- المقتضب، أبو العباس المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل بن محمد البغدادي، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١م، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت — لبنان
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق وشرح د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م)

❑❑

التنجيم السياسي في العصر العباسي الأول (دراسة في تطور التاريخ التنجيمي)

د. عبدو القادري*

التنجيم هو التصور الذي يحاول وضع علاقة بين بعض الأجرام الفلكية والأحداث الأرضية. ويقوم بدرجة أساسية على رسم خريطة البروج أو الطوالع (Horoscope) لكل حدث.

التاريخ التنجيمي: مفهوماً ودلالة

إن التاريخ التنجيمي(السياسي) أو استطلاع البروج يسر حاجات عملية جعلت بعض العلماء، في المراحل القديمة، يرون في التنجيم قمة العلوم. وقد شهد التنجيم محاولة الاستفادة منه في العصر العباسي الأول. والوساطة الفهلوية(١) في نقل الأعمال المُترجمة لنصوص في التنجيم كانت أساسية وهامة،

مع الإشارة في هذا المجال إلى أن هناك أعمالاً تنجيمية تُرجمت من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية قبل تولي العباسيين السلطة وتشكل هذه الترجمات جزءاً من سياسة الدولة في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

* باحث سوري.

(١) اللغة الفهلوية Pahlavi: هي اللغة الفارسية في القرون الميلادية الأولى استعملت رسمياً أيام الدولة الساسانية ٢٢٦-٦٢٦م.

والتاريخ التنجيمي هو "التاريخ المبني على التنجيم. وهو رواية التاريخ الأُسري على أساس دورات زمانية مختلفة في طول أزمانها، إذ إنها تقع تحت سيطرة النجوم والكواكب السيارة"(١). ويندرج التنجيم السياسي أو تاريخ العالم في إطار نظرية القران، والتي تؤكد على أن تاريخ العالم هو سلسلة من القرانات لكوكبين هما أبعد ما يكونان عن الأرض في علم الفلك القديم والوسيط: زحل والمشتري.

وتم توظيف التنجيم السياسي لتأسيس نوع من التاريخ وهو "**التاريخ السياسي**" وذلك يرجع إلى توظيف التنجيم في الحكم. ويبدو تأثيره في الأدوار الأولى؛ مثلاً إشارات اليعقوبي(٢) إلى الخلفاء كانت تسبقها قراءة أبراجهم المأخوذة من كتاب ما شاء الله(٣) المعروف باسم **المواليد**. ومن ثم لم يكن التنجيم مجرد واحد من الموضوعات التي عالجها المؤرخون، بل كان يشكل أيضاً دافعاً قوياً إلى كتابة هذا النوع من التاريخ(السياسي)، وهذا يتضح من قضية أبي سهل بن نوبخت(٤) وحمزة الأصفهاني.

وكما ذكرت مسبقاً فإن التنجيم السياسي مرتبط بنظرية القران: قران زحل والمشتري؛ فإن لقران هذين الكوكبين العلويين(٥) خاصة من بين سائر الكواكب دلالة على أعمار الدول والملل إذ هما يقترنان في درجة واحدة من الفلك، مرة واحدة في كل ألف سنة إلا أربعين عاماً، وهو ما يُقال له القران الأكبر. ويمكن في هذا المجال الإشارة إلى ما نقله ابن خلدون عن جراس بن أحمد الحاسب، أحد أبرز المنجمين في العصر العباسي، من أن الملة الإسلامية بدأت لدى اقتران زحل والمشتري في برج العقرب عندما ذكر: "ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب: ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات ستمئة الزهرة، وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت، ومدة ذلك ستمائة

---

(١) غوتاس، ديمتري، الفكر اليوناني والثقافة العربية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص:٩٥

(٢) لقب بالمصري والأصبهاني والكاتب واليعقوبي. وفاته على أغلب الروايات سنة ٢٩٢ للهجرة/٩٠٥م

(٣) كان يهودياً. بدأ نشاطه منجماً منذ مطلع الخلافة العباسية واشترك عام ١٤٥/٧٦٢م في قياسات المساحة بغرض تأسيس بغداد. شهد بداية خلافة المأمون، ويظن أنه مات نحو عام ٢٠٠للهجرة/٨١٥م.(راجع: سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد السابع: أحكام النجوم – الآثار العلوية وما شاكلها، مطابع جامعة الملك سعود ١٤١٠هـ، ص: ١٤٠.

(٤) هو ابن منجم المنصور موسى بن نوبخت، وقد خلف أبيه في ذلك المنصب.

(٥) الكوكب العلوي هو الكوكب السيار الذي يقع مداره خارج مدار الكرة الأرضية، أي الأبعد عن الشمس من الأرض إليها... في تراثنا الفلكي اعتبر الفلكيون المسلمون أن الكواكب السيارة الثلاثة المعروفة: المريخ والمشتري وزحل هي كواكب علوية، تقع فوق فلك الشمس في نظام مركزية الأرض، أي الأبعد عن المركز(الأرض) (راجع: عبد الأمير مؤمن: قاموس دار العلم الفلكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط١، ٢٠٠٦م، ص:٤٠١)

وعشر سنين"[١] . وهذا النوع من التنجيم ، والذي يُستدلُ به على أعمار الدول وعلى أعمار الملوك ، يُطلق عليه اسم الحِدْثان وقد أُلف فيه كتب كثيرة[٢] .

المصادر التاريخية للتنجيم السياسي :

المصدر الإيراني (الساساني) القديم :

في هذا الجزء من البحث سوف أحاول أن أبرهن على قضية أساسية وأولية وهي **الأصول الساسانية للتنجيم السياسي**. في البداية يمكن القول : "إن إمكانية تطبيق أساليب خريطة الطالع (البروج) من أجل التبوء أو إعادة بناء الأحداث التاريخية ارتبطت أولاً بالحضارة الساسانية القديمة في إيران"[٣] .وإن مصادر التنجيم السياسي يمكن تتبعها ورصدها في المصادر التي تناولت تاريخ إيران قبل الإسلام والتي تعرضُ عناصر التنجيم السياسي وموضوعاته الأساسية. "وعلى كل حال فإن الكتب العربية والفارسية تتضمن تاريخ إيران في الفترة الواقعة ما بين وفاة كسرى الثاني ، والذي ينتهي عنده كتاب : "**خداى نامه**" ، حتى عهد يزدجرد أيضاً. وكتاب "**خداى نامه**" هو كتاب بهلوي ، ويشكل مصدراً أصيلاً لأقدم الكتب العربية والفارسية التي تناولت تاريخ إيران قبل الإسلام"[٤] . وقد "ألف في عهد يزدكرد الثالث وهو كتاب عن ملوك إيران وأحداث حكمهم"[٥] . "وقد عرب اسم الكتاب فأصبح اسمه : "كتاب سير ملوك العجم أو سير الملوك". وسُمي بالفارسية "**شاهنامه.**"[٦] وأشهر التراجم لهذا الكتاب هو ترجمة ابن المقفع (المتوفى حوالي ١٤٣ للهجرة/٧٦٠م) ، "ثم ترجم بعد ذلك في سنة ٣٤٦ هجرية (٩٥٧ميلادية) إلى اللغة الفارسية بواسطة

---

[١] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ج٢، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٨٠، ص:٨٣١

[٢] حِدْثان: فصل في ابتداء الدول. وكلمة "ابتداء" تحريف لكلمة حِدْثان. وعرفها ابن خلدون: وكل أمة من الأمم لها كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم، ومدة بقاء الدولة، وعدد الملوك فيها، والتعرض لأسمائهم، ويسمى مثل ذلك الحِدْثان.انظر:ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج٢، ص:٨٢٢

[3] "*Astrology and Astronomy in Iran*", in: Encyclopaedia Iranica, edited by: Ehsan Yarshater, vol.II, PP:858-871, 1987, p:870.

[٤] كريستنس، أرثر، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة: يحيى الخشاب، بيروت: دار النهضة العربية، د.ت، ص:٤٨

[٥] بيرنيا، حسن، تاريخ إيران القديم: من البداية حتى نهاية العهد الساساني، ترجمة: محمد نور الدين عبد المنعم والسباعي محمد السباعي، مراجعة وتقديم: يحيى الخشاب، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٢، ص:٣٣٢

[٦] كريستنس، أرثر، إيران في عهد الساسانيين، ص:٤٨

أربعة من الزرتشتيين من هراة وسيستان وغيرهما، وذلك لحاكم طوس أبي منصور بن عبد الرزاق"[١] ، إلا أن حمزة الأصفهاني، وحسب روايته، أشار إلى وجود عدة نسخ لهذا الكتاب مختلفة وغير متفقة[٢] ، ومشيراً إلى هذه النسخ بقوله: "فاتفق لي ثماني نسخ وهي: كتاب سير ملوك الفرس من نقل ابن المقفع، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل محمد بن الجهم البرمكي، وكتاب تاريخ ملوك الفرس المستخرج من خزانة المأمون وكتاب سير ملوك الفرس من نقل زادويه بن شاهويه الأصبهاني وكتاب سير ملوك الفرس من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصبهاني، وكتاب تاريخ ملوك بني ساسان من نقل أو جمع هشام بن قاسم الأصبهاني وكتاب تاريخ ملوك بني ساسان من إصلاح بهرام بن مردانشاه موبد كورة شابور من بلاد الفرس"[٣] .

ويُعتبر نص أوستا الكتاب المقدس أو كتاب الزرتشتيين الديني(دينكرد، الكتاب الثالث جمع في القرن التاسع الميلادي وهو كتاب ديني زرواستري). و"الأوستا الساسانية، التي لم يبق منها اليوم غير أقلها، والتي لدينا مختصر منها في الكتابين الثامن والتاسع من الدينكرد، جمع لنصوص بهلوية[٤] ترجعُ إلى القرن التاسع لم تكن قاصرة على النصوص الخاصة بالعبادات فحسب، بل كانت في الوقت نفسه نوعاً من دائرة معارف تحوي العلوم كلها: فعلوم المبدأ أو المعاد وأساطير الأولين والنجوم وعلم التكوين والعلوم الطبيعية والتشريع والحكمة العملية للعهد الساساني كلها مقتبسة من الأحد والعشرين نسكاً التي تنقسم إليها الأوستا"[٥] . ولابد من الإشارة في هذا المجال إلى أن قسماً كبيراً من الأوستا الساسانية قد اختفى أيام الإسلام؛ "وقد رأينا أن معظم الأوستا الساسانية كان موجوداً إلى القرن التاسع الميلادي في الترجمة البهلوية التي كانت مصحوبة بالتفسير على الأقل"[٦] .

---

[١] بيرنيا، حسن، تاريخ إيران القديم: من البداية حتى نهاية العهد الساساني، ص: ٣٣٢

[٢] أشار حمزة الأصفهاني إلى أن موسى بن عيس الكسروي اطلع على كتاب خداى نامه وسمي كتاب: تاريخ ملوك الفرس، وبين عدم وجود اتفاق بين نسخ هذا الكتاب عندما ذكر: "فكررت النظر في نسخ هذا الكتاب وبحثها بحث استقصاء فوجدها مختلفة حتى لم أظفر منها بنسختين متفقتين وذلك كان لاشتباه الأمر كان على الناقلين بهذا الكتاب من لسان إلى لسان". راجع: الأصفهاني، حمزة بن الحسن، كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، د.ت، ص:١٦

[٣] الأصفهاني، كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص:٨-٩

[٤] اللغة البهلوية هي لغة العصر الساساني، وكانت شائعة حتى القرن الثاني والثالث الهجريين(الثامن والتاسع الميلاديين)

[٥] كريستنس، أرثر، إيران في عهد الساسانيين، ص: ١٣١

[٦] المرجع السابق، ص: ١٣١

إن النصوص التنجيمية الزرواسترية[١] المُتضمنة في نص أوستا (الكتاب المقدس) كانت توثق التاريخ السياسي ؛" حيث درج الفرس في تقويمهم على بدئه بتاريخ جلوس كل ملك. وإذا لم يل عرش إيران أحد بعد يزدكرد الثالث فإن الزردشتيين قد استمروا حتى اليوم في احتساب السنين تبعاً لسنة ارتقائه العرش، وهو ما يُسمى بالتقويم اليزدكردي"[٢].

والفرس قد ضبطوا تأريخهم ما بين مبدأ ملك أردشير[٣] إلى وقت هلك فيه يزدجرد. وقد أسس الفرس حركة التاريخ السياسي وذلك عندما تمكن أردشير من الملك، فأرخ الفرس تاريخهم بابتداء أيام ملكه وتابعه بذلك ملوك بني ساسان على منهاجه ؛ فأرخ كل ملك بسنين ملكه(سنوات ملكه)[٤].

وقد أشار (نلينو) في كتابه "**علم الفلك**" إلى **ضبط الأزياج لقاعدة التأريخ** (وهي القضية التالية في هذا البحث) وذلك في معرض حديثه عن **زيج الشهريار** المُترجم إلى العربية ؛" حيث أُلف في أيام يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس، إذ جُعل أصل الأوساط فيه لتاريخ ابتداء ملكه. وتاريخ **يزدجرد** مشهور عند فلكيي العرب وقع في اليوم السادس عشر من شهر يونيه سنة ٦٣٢م الموافق لليوم الحادي والعشرين من ربيع الأول سنة ١١ للهجرة. ومن المحتمل على حسب قول أبي معشر من أن زيج الشاه أجرى حساب حركات الكواكب على أدوار سنين المعروفة بالهزارات"[٥]. كما يشير ابن النديم إلى رواية أبي معشر في كتاب منسوب له: "**اختلاف الزيجات**" ؛ مبيناً "أن الكلدانيين إنما كانوا يستخرجون أوساط الكواكب السبعة من هذه السنين والأدوار... واستخرج منها المنجمون في ذلك الزمان زيجاً سموه زيج الشهريار. ومعناه ملك الزيجات. هذا آخر لفظ أبي معشر"[٦].

---

[١] الزرواسترية أو الزرادشتية Zoroastrism:هو الدين الذي دعا إليه زرواستر(٦٦٠-٥٨٣ق.م) وقد عاش في بكْتريا وهو الذي يعتبره الفرس القدماء نبيهم. ودعوته تتلخص في أن الكون فيه قوتان الخير والشر يمثلهما على التوالي أَرْمُزْدا وأهْريمان، والخصومة بينهما مستمرة. وقد جمعت تعاليم زرواستر في كتاب اسمه أفستا أو أوستا

[٢] كريستنس، أرثر، إيران في عهد الساسانيين، ص:٤٨٩

[٣] يشير ابن النديم وفقاً لرواية أبي سهل بن نوبخت إلى أن ملك أردشير بن بابك من نسل ساسان. ويشير كذلك إلى ابنه سابور ودورهما في نسخ الكتب بالفارسية على ماكان هرمس البابلي الذي كان ملكاً على مصر. راجع: ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بالوراق، كتاب الفهرست، تحقيق:رضا-تجدد، ص:٣٠٠

[٤] حسب رواية الأصفهاني حاكياً عن الكسروي من أنه بحث بحث استقصاء حتى حصل له مدة سني بني ساسان. فيذكر:" فلما تمكن أردشير من الملك لم تؤرخ إلا بابتداء أيام ملكه ثم جرى من بعده من ملوك بني ساسان على منهاجه فأرخ كل ملك منهم بسني ملكه، فاضطربت بما فعلوه تواريخهم". (راجع: الأصفهاني، كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص:٢٣)

[٥] نلينو، كرلو، علم الفلك: تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، مدينة روما، سنة ١٩١١م، ص:١٨٤

[٦] ابن النديم، الفهرست، ص٣٠٠.

وقد درج الملوك العرب على هذه القاعدة في تأسيس حركة التاريخ السياسي من ابتداء الهجرة إلى ما يبلغ من السنين، وتم ضبط هذه القاعدة في الأزياج أو حساب الزيج. وقد أشار المسعودي في كتابه: **"مروج الذهب ومعادن الجوهر"** إلى **قاعدة مبدأ التواريخ** التي اعتمدها المنجمون في حساب الأزياج؛ حيث أشار إلى أن "تاريخ العرب من أول السنة التي هاجر فيها النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وكان أولها يوم الخميس. وتاريخ الفرس من أول السنة التي ملك فيها يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز، وكان أولها يوم الثلاثاء. وتاريخ الروم والسريانيين من أول السنة من ملك الاسكندر وكان أولها يوم الاثنين"(١).

وبناء على المعطيات السابقة: فإن المنجمين في الحضارة العربية الإسلامية **أسسوا لحركة تاريخية سياسية (التنجيم السياسي) ما بين ابتداء سني الاسكندر إلى ابتداء سني الهجرة ليشكل أصلاً ثابتاً لحركة التاريخ**(٢).
وهذا التأسيس كان مثبتاً في زيج الرصد(حساب المنجمين في الزيجات) كما أشار إلى ذلك المسعودي عندما قال: "بين تاريخ الاسكندر وتاريخ يزدجرد تسعمئة واثنتان وأربعون سنة من سني الروم ومائتان وتسعة وخمسون يوماً، وبين تاريخ يزدجرد وتاريخ الهجرة من الأيام ثلاثة آلاف وستمئة وأربعة وعشرون يوماً(٣)، فأول هذه التواريخ تاريخ البخت نصر، ثم تاريخ فيلقوس، ثم تاريخ ابنه الاسكندر، ثم تاريخ الهجرة، ثم تاريخ يزدجرد"(٤).

وضبط هذه المعايير في تأسيس حركة التاريخ السياسي تنجيمياً تؤكد على العلاقة بين التاريخ والتنجيم. وبالنسبة للمنجمين، في الحضارة العربية الإسلامية، فإن تاريخ الهجرة قد أسس قاعدةً لحركة التاريخ السياسي، وهو يتميز عن سائر التواريخ لكونه ذا مبدأ واحد على خلاف ما للتواريخ الأخرى من كونها تتميز بأنها ذات مبادئ متعددة مرتبطة بالملوك وتواريخ سني ملكهم(٥)، وهذا ما بينه البيروني في كتابه:

---

(١) المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: قاسم الشماعي الرفاعي، المجلد الثاني، بيروت: دار القلم، ١٩٨٩م، ص١٩٨

(٢) أشار إلى هذا الأمر الأصفهاني في كتابه: "تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء"، عندما ذكر:" فطلبنا ما بين سني الإسكندر إلى ابتداء سني الهجرة لنجعله أصلاً فوجدنا ذلك مثبتاً في زيج الرصد". (راجع: الأصفهاني، كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص:١٦-١٧)

(٣) وفي رواية الأصفهاني:" وزعم المنجمون أن الذي بين سني الاسكندر وبين سني الهجرة وذلك من نصف نهار يوم الخميس من المحرم ثلاثمئة ألف وأربعون ألفاً وتسعمئة يوم ويوم واحد، فيكون هذه الأيام سنين قمرية تسعمئة وإحدى وستين سنة ومئة وأربعة وخمسين يوماً". راجع: الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص:١٧.

(٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المجلد الثاني، ص:١٩٨.

(٥) رواية الأصفهاني:" واتفق لملوك قريش ما لم يتفق لمن تقدمهم من الملوك، وذلك أن تاريخ الهجرة قد خص من الصحة بما عرى من سائر التواريخ؛ إذ كان تأسيسه وقع على تدبير يؤمن معه دخول فساد عليه، لأنه تاريخ ذو مبدأ واحد، وتاريخ الفرس وغيرهم لها مبادئ كثيرة، لأنه كلما ملك ملك منهم ساقوا التاريخ من يوم ملكه فإذا مضى ذلك الملك استأنفوا لمن يملك بعده تاريخاً من ==

الآثار الباقية عن القرون الخالية عندما أشار إلى أن "تاريخ هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة وهو على السنين القمرية برؤية الأهلة لا الحساب، وعليه يعمل أهل الإسلام بأسرهم"(١) كما أشار إلى أن الفرس "في مجوسيتها فأنها كانت تؤرخ بقيام ملوكهم أولاً فأولاً فإذا مات أحدهم تركوا تاريخه وانتقلوا إلى تاريخ القائم بعده منهم ومُدد ملوكهم مثبتة في الجداول فيما بعد"(٢). فالعرب اتفقوا على أن مبدأ تأريخهم (سنيهم)هو مبدأ التاريخ الهجري.

نظرية القران:

١- تعريف القران:

أما القضية الأساسية الأخرى في هذا البحث فهي تنص **على أن نظرية القران تعتبر مصدراً من المصادر الهامة للتنجيم السياسي**. وقبل أن أحلل هذه القضية لابد من التعريف بهذه النظرية؛ فنظرية القران(٣) هي نظرية تتضمن انتقال القران من مثلثة إلى مثلثة أخرى. وهذه النظرية قد أسست لإمكانية التنبؤ بحركة مسار التاريخ بالنسبة للتنجيم في العصور الوسطى. وتشير بعض المراجع "إلى أن بعض الباحثين يفترضون أن نظرية القران التنجيمي قد تأسست في إيران الساسانية القديمة"(٤).

والقران "يُعنى به اجتماع زحل والمشتري خاصة إذا أطلق، فإذا عُني قران كوكبين آخرين قُيّد بذكرهما"(٥). وذكر القنوجي أن القران هو "اجتماع كوكبين أو أكثر من الكواكب السبعة السيارة في درجة واحدة من برج واحد"(٦) وقد زعم القدماء أن منها ما يكون "في كل عشرين، ومنها ما يكون في كل مئتين

يوم وصول الملك إليه وساقوه إلى انقضاء عمره اضطربت تواريخهم -- وفسدت فساداً لا مطمع في اصطلاحه". راجع: الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص: ١٥٥.

(١) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية، مكتبة المتنبي، ١٩٢٣، ص:٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص:٣٤

(٣) الاقتران Conjunction هو اللحظة التي يقع فيها جرمان سماويان في النظام الشمسي على نفس خط الطول السماوي كما يشاهدهما الراصد من سطح الكرة الأرضية. كما أن- الاقتران أو المقارنة مصطلح فلكي تراثي استخدمه الفلكيون والمنجمون للدلالة على مواقع الكواكب بعضها إلى بعض. راجع: مؤمن، القاموس الفلكي، ص: ٦١.

(4) Kennedy, Edward S, *Ramifications of the World Year Concept in Islamic Astrology*, in; Actes du dixieme congres international d'histoire des sciences, Paris, pp: 23- 45,1964,p:41.

(٥) الخوارزمي الكاتب، أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف، كتاب، مفاتيح العلوم، القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية، ١٩٢٢، ص: ٢٣٢.

(٦) القنوجي، صديق بن حسن(ت ١٣٠٢للهجرة/١٨٨٩م)، أبجد العلوم: السحاب المركوم الممطر بأنواع الفنون وأصناف العلوم، أعده للطبع ووضع فهارسه: عبد الجبار زكار، الجزء الثاني: القسم الثاني، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٨، ص:١١٧

وأربعين سنة ومنها ما يكون في كل سبعمائة وستين سنة. ومنها ما يكون في كل ثلاثة آلاف سنة وثمانية وأربعين سنة مرة. ومنها ما يكون في كل سبعة آلاف سنة مرة. فيُبحث في هذا العلم عن الأحكام الجارية في هذا العالم بسبب القرانات المذكورة"[١].

ومن ثم يمكن القول: إن "القران أو الاقتران، أو المقارنة، إحدى الصور الرئيسة الخمس[٢] التي تُحدثها مواقع الكواكب بعضها على بعض، وعليها تُبنى أحكام المنجمين. ويشير المنجمون إلى أن لاقتران زحل والمشتري، هذين الكوكبين العلويين، خاصة من بين سائر الكواكب، دلالة على أعمار الدول والملل إذ هما يقترنان في درجة واحدة من الفلك، مرة واحدة في كل ألف سنة إلا أربعين عاماً، وهو ما يُقال له القران الأكبر. وأشار طاش كبرى زاده إلى ملخص نظرية الاقتران بقوله: "واعلم أنّ أرباب النجوم زعموا أن الكواكب السبعة كانت مقترنة في أول الميزان في مبدأ العالم، ثم تفرقت. فمتى اجتمعوا في برج واحد يكون سبباً لحدث عظيم بإذن الفاطر الحكيم القادر العليم في عالم الكون والفساد كحدوث طوفان عظيم، منها طوفان نوح عليه السلام؛ أو تبدل ملة: كبعثة الأنبياء، أو دولة كغلبة اسكندر وجنكيزخان وتيمور وأمثالهم، حسب تفاوت القرانات في البروج، وفي قران الكل أو البعض"[٣].

والاقتران يحدث" عندما يكون فرق الطول صفراً، وهو يتم في الكواكب الداخلية[٤] عندما يقع الكوكب بين الشمس والأرض على خطٍ واحد، أو عندما يقع الكوكب في وجهة الأرض على خط مستقيم معها ومع الشمس كما هو في الكواكب الخارجية"[٥]. والاقتران هو الصورة الرئيسية لمناظرة الكواكب في البروج؛ حيث أشار البيروني إلى هذه المناظرة مبيناً أنه إذا كان "الكوكبان في برجين متناظرين تناظرا أيضاً، فإن كانا في برج واحد سميا مجتمعين، وإن كانا في درجة واحدة منه سميا مقترنين"[٦].

---

(١) القنوجي، أبجد العلوم، الجزء الثاني: القسم الثاني، ص:١١٨

(٢) أما الصور الأربع فهي الاستقبال والتسديس والتربيع والتثليث، وعليها تُبنى أحكام المنجمين.

(٣) طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، بيروت: دار الكتب العلمية، المجلد الأول، د.ت، ص:٣٦٣-٣٦٤

(٤) تُسمى الكواكب عطارد والزهرة والأرض والمريخ بالكواكب الداخلية. أما المشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو فتعرف بالكواكب الخارجية. راجع: الموسوعة الفلكية، ص: ٣٩٩.

(٥) موسى، علي، النجوم والتنجيم، دمشق: مطبعة الشام، ١٩٩٧، ص:٩٢

(٦) البيروني، أبي الريحان محمد بن أحمد، كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، تحقيق: علي حسن موسى، دمشق: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٣، ص:٢٠٩

٢- صورة دائرة البروج: الهيئة الثلاثية

ومن أهم القرانات في علم التنجيم هو قران زحل والمشتري، أي اقترانهما مع بعض باجتماعهما معاً في موقع واحد وليكن برج الحمل. و إن **اقتران زحل والمشتري** ارتبط بصورة معينة لدائرة البروج؛ "وهذه الصورة المُسمّاة: **الهيئة الثلاثية والعلامات الثلاثية** Triplicities في دائرة البروج تشكل الأساس لعدة مناهج متعددة من أجل التنبؤ بمجرى أحداث التاريخ والتي كانت شائعة في العصور الوسطى لدى المنجمين"[١].

وهي على الشكل الآتي:

البروج النارية	البروج الترابية	البروج الهوائية	البروج المائية
الحمل	الثور	الجوزاء	السرطان
الأسد	العذراء (السنبلة)	الميزان	العقرب
القوس	الجدي	الدلو	الحوت

وتشكل هذه الثلاثيات الأربعة السابقة ثلاثيات المنجمين التي يطلق عليها اسم: **"الطوالع"**. وكل ثلاثية عُرفت بطالع له خصائصه المميزة. والطوالع الرئيسة هي: الحمل والسرطان والميزان والجدي. ويُسمى البرج الذي يشرق أو يطلع أثناء الولادة ببرج الطالع.

ومن ثم يمكن تقسيم هذا القران إلى ثلاث مراحل أساسية:

القران الصغير: وقع القران أول دقيقة من الحمل، وبعد عشرين سنة يكون في أول دقيقة من الأسد، وبعد عشرين سنة يكون في أول دقيقة من القوس (في المثلثة النارية) ثم إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القران[٢]. (٤×٦٠=٢٤٠ سنة)

القران الأوسط: وبعد ٢٤٠ سنة ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها(قران وسط). ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية. (٤×٢٤٠=٩٦٠ سنة)

القران الكبير: ثم يرجع إلى أول الحمل بعد ٩٦٠ سنة وهو الكبير. (٩٦٠×٤=٣٨٤٠ سنة)

يستوفي زحل والمشتري ٤٨ قران في المثلثات الأربع: ١٢×٤=٤٨ قران. (في كل مثلثة ١٢ قران والقران الواحد يستغرق ٢٠ سنة).

---

(1) Pingree, D (ed.),"Kiran", in: The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Leiden, vol. V, PP: 130-131, P: 130.

(٢) دور القران: كل ستين سنة يستوفي القران في الأبراج الثلاثة في المثلثة الواحدة

ومن الممكن " حساب مواعيد اقتران الكواكب مع بعضهما البعض من خلال مدة دوران الكواكب حول الشمس"[١] .

إن صور التنبؤات المتعددة مثل : ظهور نبي جديد أو تغيرات في الأنظمة السياسية والحاكمة أو الوضع الاقتصادي ، "إنما أُسست على خرائط البروج والمرتبطة بتحديد بداية السنة الشمسية[٢] حيث ظهر القران بين زحل والمشتري "[٣].

وقد أشار العلماء العرب إلى هذه الثُلاثيات بمصطلح : "المُثلثة" ، وعرفها الخوارزمي الكاتب (توفي سنة ٣٨٧ هـ) بأنها" كل ثلاثة أبراج تكون على طبيعة واحدة تُنسب إلى ثلاثة كواكب ، ويكون أحدها صاحب المثلثة المقدَم بالنهار ، والثاني المقدَم بالليل ، والثالث شريكهما بالنهار والليل. فالحمل والأسد والقوس مثلَثة وهي حارة يابسة : والثور والسنبلة (العذراء) والجدي مثلَثة باردة يابسة : والجوزاء والميزان والدلو مثلَثة حارة رطبة : والسرطان والعقرب والحوت مثلَثة باردة رطبة"[٤] . وقد قدَم البيروني (٣٦٢-٤٤٠ هـ) خصائص هذه الثلاثيات عندما أشار إلى أن المثلثات هي" البروج المتفقة في الطبيعة بكلتا الطبيعتين ، واقعة في الفلك على زوايا مثلث متساوي الأضلاع ، ولذلك تُعد بروج المثلثة شيئاً واحداً ، ويكون حكمها بالتقريب شيئاً واحداً ومتشابهاً. فالحمل والأسد والقوس مثلَثة نارية تدل على الجمع والامتلاء. والثور والسنبلة والجدي على مالا بزر له من العشب والمراعي. والجوزاء والميزان والدلو مثلَثة هوائية تدل على التبريد. والسرطان والعقرب والحوت مثلَثة مائية تدلُ على الأخذ[٥] .

ويمكن تحديد **أحكام القرانات ودلالاتها الزمنية**[٦] حسب الجدول الآتي :

مقدار السنة(مقادير الأزمنة)	**الدلالة الأرضية (الظاهرة الأرضية)**
كل ١٠٠٠ سنة مرة واحدة	الملل والدول
كل ٢٤٠ سنة مرة واحدة	انتقال المملكة من أمير إلى أمير، ومن

(١) موسى، علي، النجوم والتنجيم، دمشق، ص:٩٤

(٢) عادة يشير المنجمون إلى أن بداية السنة الشمسية ترتبط بدخول الشمس في برج الحمل، والسنة التامة ترتبط بتحول الشمس من برج إلى آخر حتى تستكمل دورها في قطع البروج الاثني عشر بمدد مختلفة.

(3) " Kiran",in: The Encyclopaedia of Islam vol.V, P:130,

(٤) الخوارزمي الكاتب، كتاب مفاتيح العلوم، ص:٢٢٥

(٥) البيروني، كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، ص:١٨٤.

(٦) راجع: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المجلد الأول: القسم الرياضي، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٥٧، ص: ١٥٤-١٥٥.

مقدار السنة(مقادير الأزمنة)	الدلالة الأرضية (الظاهرة الأرضية)
	أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد ومن أهل بيت إلى أهل بيت.
كل ٢٠ سنة مرة واحدة	تبدل الأشخاص على سرير الملك، وما يحدث بأسباب ذلك من الحروب والفتن.
كل سنة(تحاويل سني العالم التي تؤرخ بها التقاويم)	الحوادث والكائنات التي تحدث كل سنة : الرخص والغلاء والجدب والخصب والحدثان والوباء والقحط والأمراض.
الأوقات والاجتماعات والاستقبالات التي يؤرخ بها في التقاويم	حوادث الأيام شهراً شهراً ويوماً يوماً.
طالع وقت المسألة والسؤال عنها	الاستدلال على الخفيات من الأمور كالسرقة

التنجيم وقضية التأريخ :

الدورات الكونية (الفلكية) :

لابد من الإشارة في هذا المجال إلى أن هناك مناهج أخرى أسست للتاريخ التنجيمي (تاريخ العالم) ، وهي" المتعلقة بالدورات الكونية أو ثورات تحاويل سني العالم. وإن الأنظمة المعقدة حول صور التنبؤات الدينية والسياسية مرتبطة بنظرية الاقترانات لكوكبي المشتري والمريخ في برج السرطان كل ٣٠ سنة"[(١)] . والتاريخ التنجيمي اعتمد قاعدة أساسية ، كان قد أسس لها المنجمون ، وهي أن ثمة أدواراً فلكية تحكم هذا العالم ، وتخضع لها كل ما كان وما يكون ، وأن ما جرى ويجري من أمور **يخضع لحتمية تاريخية جبرية لا تتغير عبر الأزمان.**

(1) "Kiran",in: The Encyclopaedia of Islam, P:130.

وقدَم المنجمون ، وذلك عبر طرحهم لمفهوم خريطة الطالع ، مقاييس للزمن. وإحدى التقنيات الأساسية المُستخدمة من قبل المنجمين في ضبط دورة الزمن وقياسه هي **الدورات الكونية cosmic cycles**. والدورات الكونية أو الفلكية ترتبطُ بتحرك الكواكب في دائرة البروج ؛ حيث هذه الكواكب تكمل دورتها في البروج الاثني عشر[١] في مدد زمنية مختلفة. وإن تفسير هذه الدورات يعتمدُ على طبيعة الكوكب وموقعه في خريطة الطالع.

إن الدورة الكونية ، كمفهوم أساسي في التاريخ التنجيمي ، يشيرُ إلى بداية ونهاية الحياة ثم عودة بدئها من جديد.

المحتوى الأيديولوجي للتاريخ التنجيمي :

إن القضية التي يتناولها هذا الجزء من البحث تتعلق **بالتوظيف الأيديولوجي للتاريخ التنجيمي**. وهذا المحتوى الأيديولوجي يمكن الكشف عنه من خلال أمرين اثنين : أولهما الرجوع إلى النصوص المُترجمة من اللغة الفارسية المتوسطة (الفهلوية) إلى اللغة العربية في المرحلة العباسية الأولى[٢] . وتحليل هذه النصوص يكشف بدلالة واضحة عن أن هذه النصوص تُعد حاملة لأيديولوجية ساسانية قديمة (زرواسترية)، وهي ذات طبيعة تنجيمية وتُعنى بوجه خاص بالتنجيم السياسي أو التاريخ التنجيمي[٣] .

وإن تحليل هذه الأيديولوجية الساسانية القديمة يبين بشكل واضح أن "المعرفة جمعاء تعود إلى جذرها والمتمثل في أفستا(Avesta) وهو كتاب الزرواسترية المقدس، وربما كان هذا هو الإطار الأفضل لفهم النشاطات في الترجمة التي بلغت الذروة في أيام كسرى الأول أنو شروان (حكم ٥٣١- ٥٧٨م)"[٤]

---

(١) البروج الاثني عشر إنما تشكل منازل للشمس في حركتها الظاهرية حول الأرض

(٢) أشار فؤاد سزكين إلى أن خالد بن يزيد بن معاوية كان أول من أوعز ترجمة الكتب التي تتناول الطب والسيمياء وأحكام النجوم.(انظر حول هذا الموضوع: سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، المجلد السابع، ص ص: ١٠-١١)

(٣) إن هذه النصوص كانت تحوي على سجل الحضارة الزرواسترية والفارسية الوسيطة. وهذا السجل كان موجوداً في صيغتين:١- الصيغة الأصلية بالفهلوية (الفارسية المتوسطة).٢-صيغ مختلفة بالعربية، وهذه الصيغ انتشرت بشكل واسع منذ الثورة العباسية. وهذه الصيغ تنقسم إلى: القسم الأول يشمل النسخة الأصلية التي نُظمت أثناء حكم أنو شروان بالذات، ودونت بالفهلوية في كتاب يُدعى **دينكرد(Denkard)** وهو الكتاب الزرواستري، والذي يعود تاريخه إلى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. وإن نقل أنو شروان لعناصر ثقافية عن اليونانية ثابت من خلال هذه النصوص.. أما القسم الثاني فيشمل النص الثاني والمرجح أنه الأول الذي دُون بالعربية، ويظهر في مقدمة لترجمة عربية لكتاب بالفهلوية قُصد منه أن يحتوي كتاباً في التنجيم مكوناً من خمسة أقسام من وضع زرواستر وهو **كتاب المواليد** الذي تُرجم في سنة ١٣٣للهجرة/٧٥٠م، وتوجد نسخة هي من قلم أبي سهل بن نوبخت.

(٤) غوتاس، ديمتري، الفكر اليوناني والثقافة العربية، ص:٦٥

وكان من الطبيعي بعد الفتح العربي لبلاد الفرس في النصف الأول للقرن الأول/السابع الميلادي، أن تنشط حركة ترجمة النصوص الفارسية إلى اللغة العربية، وذلك على نحو ما حدث في حالة اليونان؛ إذ إن "بعض الترجمات المبكرة من الفهلوية ساهمت بالقدر نفسه في تيسير العمل الإداري كتلك التي نُقلت عن اليونانية"[١].

إن هذه الترجمات لنصوص في التنجيم السياسي قد قام بها جماعات أو أفراد من الفرس والذين كان لهم برنامج اجتماعي وأيديولوجي، وكان ظهورهم أثناء الثورة العباسية على وجه الدقة. وهذه النصوص المُترجمة كانت موجهة إما إلى الفرس المتعربين أو إلى العرب الذين تمثلوا الطابع الفارسي. ويكمن المحتوى الأيديولوجي لهذه النصوص من كونها" ذات صلة بالدعوة العباسية في طورها الأولي وأنها قامت بدور أساسي في الحملات الدعائية لتلك الجماعات التي كانت تحكمها الرغبة في العودة إلى الماضي الساساني. ويبدو أثرها على أوضح ما يكون في حكم المنصور(١٣٦- ١٥٨/ ٧٥٤- ٧٧٥م)"[٢].

أما الأمر الثاني فهو يكمن في تحليل النصوص التي تعرض التاريخ التنجيمي في المرحلة العباسية الأولى[٣]، مع التأكيد على "أن الموضوعات النجومية وجدت طريقها في التراث العربي في النصف الثاني من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي على أبعد تقدير"[٤]. أما المصادر التي تحوي هذه النصوص فتنقسم إلى ثلاثة مصادر رئيسة:

المصدر الأول يعود إلى كتاب **النهمطان** لأبي سهل بن نوبخت:

فإن كتاب **النهمُطان**[٥] لأبي سهل بن نوبخت(عاش في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني/الثامن الميلادي) يعد واحداً من أقدم الكتب من هذا النوع بالعربية في أحكام النجوم. وقد وصل منه مقتطفاً في فهرست ابن النديم.

وقد استهل ابن نوبخت روايته بأن بدأ بتقصي تاريخ انتقال العلوم والتأكيد على دور الساسانيين في تجديد العلم. إذ إنه يقول:

---

(١) المرجع السابق، ص:٦٧

(٢) المرجع السابق، ص:٦٨.

(٣) أشار سزكين إلى المصادر التي تتناول معارفنا في علم أحكام النجوم العربي. قسمها إلى: مصادر التراجم والكتب. و مصادر الآراء والمذاهب.(راجع: سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد السابع، ص ص:١٦-٢١)

(٤) سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، المجلد السابع، ص: ٩.

(٥) ذكر فؤاد سزكين نفس الكتاب تحت عنوان: كتاب اليهبطان في المواليد، المجلد السابع، ص:١٧

"قد كثرت صنوف العلوم وأنواع الكتب ؛ ووجوه المسائل والمواخذ التي اشتق منها ، ما يدل عليه النجوم مما هو كائن من الأمور قبل ظهور أسبابها ومعرفة الناس بها. على ما وصف أهل بابل في كتبهم ، وتعلم أهل مصر منهم ، وعمل به أهل الهند في بلادهم"(١)

المصدر الثاني فيتضمن كتب أبي معشر الفلكي(٢) وهي : **اختلاف الزيجات وكتاب الألوف**(٣) **وكتاب القرانات :**

يعرض ابن النديم رواية أبي معشر في كتاب منسوب له اسمه "اختلاف الزيجات" ؛ فيقول :

"قال أبو معشر في كتاب اختلاف الزيجات : إن ملوك الفرس بلغ من عنايتهم بصيانة العلوم ، وحرصهم على بقائها على وجه الدهر ، وإشفاقهم عليها من أحداث الجو وآفات الأرض ، أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث ، وأبقاها على الدهر ، وأبعدها من التعفن والدروس ، لحاء شجر الخدنك ، ولحاؤه يسمى التوز"(٤).

ولابد من الإشارة في هذا المجال إلى أن "النظام الفلكي لأبي معشر كان مؤسساً على افتراض سلسلة من قرانات الكواكب ، والتي تكون موزعة على مسافات زمنية متساوية"(٥). والتنجيم عند أبي معشر الفلكي "مرتبط بمشكلة بناء الماضي والتنبؤ بالأحداث التاريخية للمستقبل. وعلى خلاف كتابه القرانات ، الذي تأسس منهجه على قرانات زحل والمشتري ، فإنه في كتابه الألوف اعتمد على نظام معقد من الدورات التي تحدد التأثيرات الكوكبية في لحظة معينة من الزمن"(٦). مع التأكيد هنا على أن أبا معشر الفلكي استطاع أن" يطور في بعض العناصر التنجيمية التي ترجع إلى أصول ساسانية وذلك لكي تتفق مع ظروف عصره الخاصة"(٧).

المصدر الثالث يعود إلى **كتاب القرانات والأديان والملل** لمؤلفه ماشاء الله :

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ٢٩٩.

(٢) هو أبو معشر جعفر بن محمد البلخي. ولد حوالي عام ١٧١للهجرة/٧٨٧م في خراسان، وتوفي في رواية ابن النديم عام ٢٧٢للهجرة.(راجع سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد السابع، ص: ٢٠٠-٢٠١)

(٣) كتاب الألوف في ثماني رسائل، لم يصل على ما يبدو بالأصل. يستفاد من معلومة للمسعودي من أن البازيار، تلميذ أبي معشر، قد اقتبس منتخباً من الكتاب.(راجع: سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد السابع، ص:٢٠٨)

(٤) ابن النديم، الفهرست، ٣٠١

(5) Pingree, D, The Thousands of Ab Mashar, London, 1968, p:22.

(6) Ibid, p58.

(7) Ibid, p58.

ويعتبر **كتاب القرانات والأديان والملل**[1] لمؤلفه ماشاء الله بن أثري(أو سارية) أحد أقدم المنجمين المهمين المرموقين، ونصه من أبرز النصوص التي تضمنت التاريخ التنجيمي أو التنجيم السياسي؛ فقد أشار ماشاء الله إلى المحتوى الأيديولوجي لمؤلفه: "القرانات" عندما أشار إلى القران الذي انتقلت عنده السلطة من الأمويين إلى العباسيين:

"ووقع القران العاشر الذي كانت فيه الدولة العباسية وانقراض بني أمية في العقرب وهو برج الملة، وتحولت سنة العالم لهذا القران في أخر الساعة الثانية عشر من اليوم السابع عشر سنة مئة وتسع عشرة سنة ليزدجرد"[٢].

ويؤكد في موضع آخر على دور السلطة العباسية:

"ويستمر أيضاً قران زحل والمشتري فيها حسب ما جرى في أيام القوس عند انتقال القرانات من مثلثة الجوزاء إلى مثلثة العقرب ولم يكن بين الممرين مناسبة ولا ممازجة فدَل على ذهاب دولة فارس وظهور دولة العرب وانتقال الملك إليهم ولم يزل الأمر على الاضطراب إلى أن استمرت القرانات في المثلثة وعادت إلى العقرب في القران الرابع فذهب ملك فارس واستعلى ملك العرب حيث لم يكن بين الممرين مناسبة ولا مواصلة"[٣].

إن النصين السابقين لأبي معشر وماشاء الله يُعدان وثيقتين تؤكدان على أن الغرض من التاريخ التنجيمي هو صياغة أيديولوجية سياسية بالنسبة للعباسيين الأوائل. وهذه الأيديولوجية السياسية تحقق وظيفتين أساسيتين: "الأولى سياسية إذ إنها زودت سيادة الدولة العباسية، التي كانت دورتها قد بدأت تواً، على نحو ما رسمته النجوم وبأمر من الله في النهاية، برسالة تتضمن إنذاراً إلى جميع الخصوم المحتملين للحكم العباسي، أن أي نشاط سياسي لهم محكوم عليه بالفشل؛ والثانية أيديولوجية إذ إنها أدخلت في روع القوم أن الدولة العباسية هي، من حيث المخطط الأكبر لكل ما تتحكم فيه النجوم، الوارث الشرعي الوحيد للإمبراطوريات القديمة في أرض الرافدين وإيران والساسانيين الأسلاف الأدنى"[٤].

---

[١] يقال أنه يتألف من ٢١ كتاباً، ذكره ابن النديم، ويذكره المؤلف نفسه في كتاب قيام الخلفاء بعنوان **كتاب القرانات.** ويعتقد Pingreeو E.S.Kennedyأن في كتاب المغني لابن حبنتا بعض النقول التي وصلت إلينا من هذا الكتاب، وفضلاً عن هذا فيبدو أن هذا الكتاب أفاد منه اليعقوبي (تأريخ ج٢) وقد قام كل من Pingree و E.S.Kennedy بتحقيق أقوال ابن هبنتا وترجمتها إلى الإنجليزية والتعليق عليها في كتابهما: The Astrological History of Māshā allāh، مطابع جامعة هارفرد، كمبرج، عام ١٩٧١م.

[2] E.S. Kennedy and D. Pingree, The Astrological History of Māshā allāh, Cambridge: Harvard University Press, 1971, (النص العربي، ص:١٨)

[3] Ibid,(النص العربي، ص: ٢٤)

[٤] غوتاس،، ديمتري، الفكر اليوناني والثقافة العربية ص:٩٦

إن قضية التوظيف الأيديولوجي للتاريخ التنجيمي تعتبر قضية أكد عليها كثير من المؤرخين العرب فيما بعد أمثال حمزة الأصفهاني والبيروني ؛ فقد أشار حمزة الأصفهاني إلى أن "العقرب كان البرج الذي أوجب انتقال الدولة من الفرس إلى العرب ، وكانت الشمس في العقرب والمريخ في السرطان فدل على أن الملك يكون في الزيادة من مبدأ المولد إلى مئتين وعشرين سنة ثم لا يزيد وأن الملة تكون في الزيادة من مبدأ المولد إلى ثلاثمئة وستين فحسب ، كأنه بعد وفاته ثلاثمئة سنة ثم يبتدئ النقصان في ملك أهل الملة العربية من جهة المغرب وهو أعلم"[(١)] .

وأشار البيروني كذلك إلى هذه القضية ، عندما تحدث عن انتقال الحكم من العباسيين إلى البويهيين وذلك كما تقتضي النجوم وقرانات الكواكب فيها ، عندما أشار إلى "كتاب أحمد بن الطيب السرخسي في قران النَحسين في برج السرطان وما صرح بذلك تصريح كنكه الهندي منجم الرشيد فإنه زعم أن ملكهم ينتقل إلى رجل يخرج من أصبهان ونصَ على الوقت الذي خرج فيه علي بن بُويه الملقب بعماد الدولة بأصبهان"[(٢)]

وفي موضع آخر يؤكد البيروني على هذه القضية :

"وقد قيل أن الدولة الساسانية في القرانات النارية وظهرت دولة الدَيلم لعلي بن بويه الملقب بعماد الدولة في القرانات النارية وهذا هو الوعد الذي كانوا يتواعدون به في عودة الدولة إلى الفرس وإن لم تكن سيرتهم هي الأولى ، ولست أدري كيف آثروا دولة الديلم ودلالة انتقال الممر إلى المثلثة النارية أظهر دلالةً على دولة بني العباس وهي دولة خراسانية شرقية"[(٣)]

❑❑

(١) الأصفهاني، كتاب تاريخ ملوك الأرض والأنبياء، ص:١٥٥

(٢) البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص:١٣٢

(٣) المصدر السابق، ص:٢١٣

نتائج البحث:

١- لابد من التأكيد أولاً على أن التاريخ التنجيمي اعتمد في بنائه على مفهوم **الأبراج** ؛ **حيث هذه الأبراج تشير إلى دورة زمنية تقويمية**. وهذه الدورة تتضمن العلاقة بين التاريخ وحساب الطالع أو التخطيط الفلكي.

٢- وحتى يتسنى تحديد الخصائص الجوهرية التي تميز التاريخ التنجيمي عن غيره من أنماط التواريخ الأخرى ، لابد من التأكيد على مسلمة أساسية وهي أن دراسة المؤلفات العربية في التقويم التنجيمي تزيد الاقتناع القائل بأن المعلومات المتوافرة فيها والتي تتناول الحوادث التاريخية التي وقعت إبان ظهور وصدر الإسلام وأوضاع النجوم التي ترتبط بتلك الحوادث ، أن هذه المعلومات ترجع إلى المصادر الساسانية. ومن ثم فإن هذه المصادر ساهمت بشكل كبير في تحديد سمات وخصائص التاريخ التنجيمي. ويمكن إجمال هذه الخصائص في **كون المعرفة التاريخية تشكل الأساس الذي يُبنى عليه جميع تنبؤات المنجمين وبناء أحداث المستقبل.**

٣- وبناء على النتيجة السابقة فإن **المواد التاريخية و تسلسلها أو ترتيبها على الحوادث و السنين شكلت الموضوعات الأساسية للنصوص التي تتناول التاريخ التنجيمي أو التنجيم السياسي** مثل كتاب الألوف لأبي معشر الفلكي ، و كتاب القرانات والأديان والملل لمؤلفه ماشاء الله.

٤- إن الفرضية السابقة تؤكد على نتيجة أساسية وهي : **أن التنجيم السياسي بعناصره المتعددة قد أسس لنوع من الكتابة التاريخية أو ما يسمى التاريخ السياسي** الذي سار عليه عدد من المؤرخين العرب فيما بعد ، وقوام هذا التاريخ هو الدول أو عهود الخلفاء أو الحكام.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع باللغة العربية :

١ـ ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق : علي عبد الواحد وافي ، ج٢ ، القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٨٠.

٢ـ ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بالوراق ، كتاب الفهرست ، تحقيق : رضا-تجدد ، د ـت.

٣ـ الأصفهاني ، حمزة بن الحسن ، كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء د.ت.

٤ـ بيرنيا ، حسن ، تاريخ إيران القديم : من البداية حتى نهاية العهد الساساني ، ترجمة : نور الدين عبد المنعم والسباعي محمد السباعي ، مراجعة وتقديم : يحيى الخشاب ، القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٢.

٥ـ البيروني ، أبي الريحان محمد بن أحمد ، كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية ، مكتبة المتنبي ، ١٩٢٣.

٦ـ البيروني ، أبي الريحان محمد بن أحمد ، كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم ، تحقيق : علي حسن موسى ، دمشق : دار الكتاب العربي ، ٢٠٠٣.

٧ـ الخوارزمي الكاتب ، أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف ، كتاب ، مفاتيح العلوم ، القاهرة : إدارة الطباعة المنيرية ، ١٩٢٢.

٨ـ رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، المجلد الأول : القسم الرياضي ، بيروت : دار صادر للطباعة والنشر ، ١٩٥٧.

٩ـ سارتون ، جورج ، تاريخ العلم ، ترجمة : لفيف من العلماء ، ج ٥ ، القاهرة : دار المعارف ، د.ت.

١٠ـ سزكين ، فؤاد ، تاريخ التراث العربي ، المجلد السابع : أحكام النجوم — الآثار العلوية ، مطابع جامعة الملك سعود ١٤١٠ه.

١١ـ طاش كبرى زاده ، أحمد بن مصطفى ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، بيروت : دار الكتب العلمية ، المجلد الأول ، د.ت.

١٢ـ غوتاس ، ديمتري ، الفكر اليوناني والثقافة العربية ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣.

١٣ـ القنوجي، صديق بن حسن(ت ١٣٠٢للهجرة/١٨٨٩م)، أبجد العلوم: السحاب المركوم الممطر بأنواع الفنون وأصناف العلوم، أعده للطبع ووضع فهارسه: عبد الجبار زكار، الجزء الثاني: القسم الثاني، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٨.

١٤ـ كريستنِس، أرثر، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة: يحيى الخشاب، بيروت: دار النهضة العربية، د.ت.

١٥ـ الماجدي، خزعل، موسوعة الفلك عبر التاريخ، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ط١: ٢٠٠١.

١٦ـ المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: قاسم الشماعي الرفاعي، المجلد الثاني، بيروت: دار القلم، ١٩٨٩م.

١٧ـ موسى، علي، النجوم والتنجيم، دمشق: مطبعة الشام، ١٩٩٧.

١٨ـ مؤمن، عبد الأمير، قاموس دار العلم الفلكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط: ٢٠٠٦م.

١٩ـ نلينو، كرلو، علم الفلك: تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، مدينة روما، سنة ١٩١١م.

المراجع باللغة الإنكليزية:

1- E.S. Kennedy and D. Pingree, The Astrological History of Māshā allāh, Cambridge: Harvard University Press, 1971.

2- Kennedy, Edward S, *Ramifications of the World Year Concept in Islamic Astrology*, in; Actes du dixieme congres international d'histoire des sciences, Paris, pp: 23- 45,1964.

Pingree, D (ed.),"Kiran", in: The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Leiden, vol. V, PP: 130-131.

4- Pingree, D, The Thousands of Abû Mashar, London, 1968.

5- "Yarshater, Ehsan(ed.), *"Astrology and Astronomy in Iran"*, in: Encyclopaedia Iranica, vol.II, PP:858-871, 1987.

6-

❑❑

تــراجم الشــعراء في مســالك الأبصــار للعمري

(٧٠٠هـ - ٧٤٩هـ)

د. فاتن كوكة*

العمري هو شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يحيى بن أبي المعالي فضل الله بن أبي الفضل المُجلّي بن جمال الدين دعجان القرشي العدوي العمري[(١)] ولد بدمشق سنة ٧٠٠هـ، وهو من أسرة تولى أفرادها رئاسة ديوان الإنشاء في مصر والشام مدةً زمنيةً طويلةً، كان أديباً فقيهاً إماماً في الترسُّل والإنشاء، حجَّة في معرفة المسالك والممالك وخطوط الأقاليم ومواقع البلدان[(٢)]، وكان مؤرخاً غزير المعرفة بأخبار الرجال وتراجمهم وبالتاريخ، ولا سيما تاريخ ملوك المغول من عهد جنكيز خان إلى عصره[(٣)]، «وكان يتوقّد ذكاء مع حافظة قوية، وصورة جميلة، واقتدار على النظم والنثر، حتى كان يكتب من رأس القلم ما يعجز عنه غيره في مدة»[(٤)].

* جامعة دمشق ــ قسم اللغة العربيّة.

(١) أورد العمري نسبه كاملاً في مقدمة كتابه (مسالك الأبصار)، وبيَّن اتصال نسبه بالخليفة الراشدي عمر ابن الخطاب رضي الله عنه. انظر مسالك الأبصار ١/١١٩.

(٢) انظر الوافي بالوفيات للصفدي ٨/٢٥٤.

(٣) انظر الأعلام للزركلي ١/٢٦٨.

(٤) انظر الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني ١/٣٣٢.

توفي العمري سنة ٧٤٩هـ، ولكنه وضع في هذه المدة القصيرة من حياته كثيراً من القصائد والأراجيز والمقطعات والموشحات، والتقاليد والمناشير، ومكاتبات الملوك [(١)]، والمصنفات الجليلة التي شغلت حيزاً مهماً في المكتبة العربية وأهمها: التعريف بالمصطلح الشريف (مطبوع)، ممالك عباد الصليب (مطبوع)، النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية (مخطوط)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (مطبوع) وهو موسوعة كبرى ألّفها العمري في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، ووصفها الصفدي بأنها كتاب حافل ما يعلم أن لأحدٍ مثله [(٢)].

وليس من المبالغة وصف هذا المصنّف بالموسوعة، فضخامة مادته وتنوّعها وشمولها جعلت منه موسوعة ثقافية زاخرة بألوان المعارف، وضروب الفوائد. واللافت أن التصنيف في تلك الحقبة الزمنية التي عاش فيها العمري – وهي العصر المملوكي – اتسم بظهور الموسوعات الكبرى التي يقف المرء أمامها معجباً بغزارة ما اشتملت عليه من الجوانب العلمية والفكرية والثقافية التي قام مؤلف واحد بتأليفها وإخراجها في الصورة المشرقة التي وصلت إلينا.

لقد حفظت تلك المؤلفات تراث الأمة العربية الإسلامية، وعصارة جهود العلماء والمفكرين من أبنائها، فكانت الوعاء الفكري الذي ضمَّ جلّ ما أبدعه صانعو الحضارة والفكر الإنساني، ولهذا لقي تأليف هذه الموسوعات إقبالاً من العلماء الحريصين على أصالة الحضارة العربية وصونها من كل شائبة تعكّر صفوها.

فقد أقبل العلماء في العصر المملوكي على التراث العربي الخالد، فبذلوا جهوداً جبَّارة في الحفاظ عليه من جهة، وتجديده وإحيائه من جهة أخرى، فوقفوا عند المتون التي صنفها السابقون من العلماء، وتناولوها بالشرح والتفصيل، بعدما تحرّوا الدقة التامة في رواياتها، فكانت شروحهم النواة الأساسية للموسوعات ودوائر المعارف التي ألّفوها، وجعلوا منها آثاراً قيمة خالدة لا يستطيع الباحث في المكتبة العربية غضَّ الطرف عنها، ولعلَّ أبرزها نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري [(٣)]، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي [(٤)]، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، وهي موسوعة ضخمة تقع في

---

(١) انظر فوات الوفيات والذيل عليها لمحمد بن شاكر الكتبي ١/١٥٩.

(٢) الوافي بالوفيات ٨/٢٥٥.

(٣) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري نسبة إلى نويرة وهي من قرى بني سويف في مصر، كان عالماً غزير الاطلاع، اتصل بالسلطان الملك الناصر، ووكّله في بعض أموره، له نظم يسير ونثر جيد، توفي ٧٣٣هـ انظر ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٩/٢٩٩، والأعلام للزركلي ١/١٦٥.

(٤) أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي نسبة إلى قلقشندة من قرى القليوبية قرب القاهرة، وهو من دار علم ،وفي أبنائه وأحداده علماء أجلاء، من تصانيفه: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان (مطبوع)،توفي ٨٢١ هـ انظر ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي ٢/٨ و الأعلام للزركلي ١/١٧٧.

سبعة وعشرين مجلداً، طابعها العام تاريخي جغرافي، فعنوانها يدلّ على ذلك، لكنّ إمعان النظر في مادتها يقطع بأن العمري لم يخصصها للجوانب التاريخية والجغرافية فحسب، وإنما ضمنها كثيراً من الجوانب الأدبيّة والدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، وقدم فيها عرضاً لتراجم عدد كبير من الأعلام على اختلاف مشاربهم وفئاتهم وشرائحهم وآفاقهم المعرفية، فقد أورد العمري تراجم للشعراء والقرّاء والمحدّثين والفقهاء والحكماء والأطباء والموسيقيين والوزراء وكتّاب الإنشاء والخطباء وأهل اللغة والنحو والبيان والمتصوفين والزهاد وغيرهم، وإننا سنحصر عملنا في هذا البحث ضمن دائرة الشعراء وأمراء النظم، كي تكون وجهتنا محدَّدة وواضحة.

إن الجانب المتعلق بتراجم الشعراء يستحق الوقوف عنده ، لأنه يظهر قدرة العمري التصنيفيّة الفائقة التي مكنته من تخصيص تلك المساحة الواسعة لعرض ما وقع اختياره عليه من تراجم الشعراء، ويبين طريقته في عرض تلك التراجم، والأدوات المنهجية التي استخدمها في ذلك، وغايته من هذا العمل.

وقبل الشروع في الدراسة، لا بدَّ من عرض مختصر لأقسام موسوعة العمري ومضمونها، فقد جعل العمري موسوعته ضمن قسمين كبيرين:

الأول: تناول فيه وصف الأرض وما اشتملت عليه من البرّ والبحر.

الثاني: تناول فيه وصف سكان الأرض من مختلف الشعوب والأمم.

ويتألف القسمان السابقان من أنواع – كما أطلق عليها العمري – **فالقسم الأول** يشتمل على نوعين هما: **المسالك والممالك**، أما **النوع الأول وهو المشتمل على المسالك** ففيه أبواب هي على الترتيب: مقدار الأرض وحالها، الأقاليم السبعة، البحار وما يتعلق بها، القِبلة والأدلة عليها، الطرق، وضمن هذه الأبواب توجد مجموعة من الفصول التي تتضّمن التفاصيل والجزئيات المرتبطة بالعناوين الأساسيّة في الأبواب.

والنوع الثاني وهو المشتمل على الممالك مؤلف من خمسة عشر باباً تحدّث العمري فيها عن ممالك السند والهند، وأسرة جنكيز خان، والأكراد والأتراك في بلاد الروم، إلى جانب ممالك بلاد اليمن، والحجاز، والشام، ومصر، والمسلمين في الحبشة، ومسلمي السودان على ضفة النيل الممتد إلى مصر، وممالك مالي، وجبال البربر، وإفريقية، وبر العُدْوَة، والأندلس، وختم العمري ما سبق بذكر العرب الموجودين في زمانه، وقبائلهم، وأماكن توزعهم وانتشارهم.

أما القسم الثاني فهو يشتمل على أنواع أربعة هي: الإنصاف بين المشرق والمغرب، الكلام على الديانات، وهي ست نحل، وأربع ملل، الكلام على طوائف المتديّنين، ذِكر التاريخ وفيه بابان: الأول: في ذكر الدول التي كانت قبل الإسلام، والثاني: في ذكر الدول الكائنة في الإسلام.

بيّن العمري في المقدّمة أهَمّ الأسس التي ارتكز عليها منهجه في الكتاب ، ومنها الدقّة التامة في إيراد النصوص والاقتباسات المتعلقة بالممالك وأحوال سكّانها ، فلم يثبت أمراً إلا بعد اعتماده على ثقافته الشخصية ومعارفه الذاتية ، ومشاهدته العينية ، ونقله عن المصادر الموثوقة ، وعن أعيان الثقات من ذوي التدقيق في الخبر ، والتحقيق في الرواية ، ومنها تدعيم ما أورده في الكتاب بالتصوير التوضيحي ، ولعلّه أراد بذلك الخرائط والمصوّرات التي كان يعتزم على إدخالها ، ولكنّ الظاهر أنه لم يتمكّن من ذلك ، وذكر العمري أنه لم يكتف – حينما تحدث عن الممالك – بالنواحي الجغرافية فحسب وإنّما تناولها من النواحي الاجتماعيّة والسياسيّة ، وغير ذلك مما يتعلق بأوضاعها وعن ذلك يقول : «ولم أقتصر بذكر الأقاليم ، عند ذكري الممالك مقصد الجغرافيا.. ولا بما نطلق عليه المسمّيات... ، بل أذكر ما اشتملت عليه مملكة كل سلطان جملة لا تفصيلاً على ما هي عليه المدينة التي هي قاعدة المُلك ، ... أو ما لا بدَّ من ذكره معها ، والغالب في تلك المملكة من أوضاعها...» [1] .

وقد وعد العمري قرّاء كتابه – إنْ مَنَّ الله عليه بطول العمر ووافر الصحة – أن يذيّل الكتاب بممالك الغرب التي أطلق عليها اسم (ممالك الكفّار) ، لأنه ما ذكرها في كتابه هذا – على اتساعها – إلا ذكراً عارضاً ، وما شطّر من تفصيلها إلا جملاً ، رغبةً منه في تخفيف ثقل مادة الكتاب.

خصص العمريّ أجزاء محددة من كتابه لعرض اختياراته من تراجم الشعراء ، والتزم فيها معظم الأسس التي قام عليها منهجه ،لكنّ جوانب أخرى - لم يأت على ذكرها صراحةً- تجلّت في طريقة عرض تلك التراجم ، من أبرزها :

١- العامل الزمانيّ والعامل المكانيّ :

ظهر العامل الأول في اعتماد العمري على المنهج التاريخي في عرض التراجم ، إذ بدأ بتراجم أشهر شعراء العصر الجاهلي ، منهم امرؤ القيس ، والنابغة الذبياني ، وعنترة ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبي سُلمى ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة اليشكري ، وانتقل بعد ذلك إلى المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ومنهم حسَّان بن ثابت ، والحطيئة ، ومتمّم بن نويرة ، وكعب بن زهير بن أبي سلمى ، والخنساء ، وتابع العمري عرض تراجم شعرائه ضمن ذلك التسلسل التاريخي ، فتناول تراجم شعراء العصر الإسلامي الذين عاشوا في كنف الدولة العربية الإسلامية ، وجعل الحدَّ الزمني للحقبة التي اختار منها تراجم شعراء الإسلام سقوط الدولة الأموية ،من أهم هؤلاء الشعراء : ذو الرُّمّة ، وجميل بثينة ،

---

[1] مقدمة المؤلف ٦٧.

وقيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح ، والأحوص ، وجرير ، والفرزدق ، والأخطل ، والطرمّاح ، وغيرهم ، ذكر العمري بعد ذلك المخضرمين من شعراء الدولتين الأمويّة والعباسيّة ومنهم الحسين بن مُطَير الأسدي ، وبشار بن برد ، ثم تناول تراجم شعراء الدولة العباسيّة ، فبدأ بشعراء العصر العباسي الأول ، منهم: أبو نُواس ، وأبو العتاهية ، وأبو تمّام ،و البحتري ، والمتنبّي ،و السريّ الرفّاء ، والوأواء الدمشقي ، والخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ،و مِهيار الديلمي ، وأبو العلاء المعري ، وابن حيّوس ، وغيرهم.

ثم أورد تراجم شعراء العصر العباسي الثاني ، منهم: أبو المُظَفَّر أسامة بن مرشد المعروف بأسامة بن منقذ ، وأبو الفتح محمد بن عبد الله سبط بن التعاويذي ، والتلعفري يوسف بن مسعود بن بركة شهاب الدين أبو المحاسن وهو والد الشاعر محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة التلعفري أبي المكارم الذي اشتهر في العصر المملوكي.

ظهر العامل الزماني أيضاً حين أورد العمري مجموعة من التراجم لشعراء عاصرهم أو قابلهم ، وعن ذلك يقول: «وأما الأحياء من أهل الغرب فجماعة لا يحضرني الآن منهم إلا القليل.... إلا أنني كنت حين ألّفت كتابي المسمّى بـ(ذهبية العصر)[1] قد أتيتُ فيه بأعيان منهم تقابلت بهم لآلئه في تاجها المرصّع ، وتفتحت كمائمه في ثوبها الموشى الموشع»[2] ،من هؤلاء الشعراء: ابن خاتمة الأنصاري ، أبو عبد الله المالقي المعروف بابن جابر.

أما العامل المكاني فقد ظهر في عرض العمريّ لتراجم من اختارهم من شعراء مصر ، فكان المكان الأساس الذي ركن إليه في ذلك العرض ،منهم: تميم بن المعز الفاطمي ، المقداد المصري ، ابن سناء الملك ، البهاء زهير ، الشرف النساج بن غنوم الإسكندري ، السّراج الورّاق ، ابن الجبَّاس الدّمياطي ،ابن دانيال.

والظاهر أنَّ العمري نظر إلى ارتباط الشعراء الذين اختارهم بمصر من حيث النشأة أو الإقامة أو الوفاة ، فذكرهم ضمن شعراء مصر.

وقد بدا اهتمام العمري بالعامل المكاني حين أتى على ذكر تراجم الشعراء في العصر العباسي الثاني مراعياً الجانبين الشرقي والغربي من الدولة العربية الإسلامية ، ومزاوجاً بين هذين الجانبين والعصر الذي

---

(١) ذكر المحقق أن الشيخ حمد الجاسر رحمه الله عثر على عدة صفحات منه، وأنشأ بحثاً عنه، نشره في مجلة جامعة الملك سعود ١٩٩٩م ، انظر مسالك الأبصار ١٧/١.

(٢) مسالك الأبصار ٣٨٩/١٧.

عاش الشاعر فيه، إذ بدأ بشعراء الجانب الشرقي في عصره [١]، ثم انتقل إلى شعراء الجانب الغربي في الدولة العباسيّة [٢].

ولكنَّ العمري اختار مجموعة كبيرة من تراجم الشعراء، وجعلهم ضِمن دائرة العصر العباسي الثاني، وهم في حقيقة الأمر من شعراء العصر الأندلسي، والعصر المملوكي، ومع علمه بذلك - فهو المؤرخ الذي لا يشق له غبار - لم يحدّد الإطار الزمني بدقة ووضوح، فابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، والرّمادي، والطليق المرواني، وابن فرج الجياني، وابن الزقّاق، وابن حيّوس الإشبيلي، وابن حمديس، والحصري القيرواني، والأعمى التطيلي، وابن الأبار، كلهم من أعلام الشعر الأندلسي.

وابن نباتة المصري، وابن دانيال، وصفيّ الدين الحلي من أعلام الشعر المملوكي، ومع ذلك فقد أدرجهم العمري ضمن شعراء العصر العباسي الثاني، ولعلّ تفسير هذا الأمر مرتبط برغبة العمري في الاعتراف بسيادة الدولة العباسيّة وبسط نفوذها وسيطرتها على رقعة جغرافية واسعة مترامية الأطراف، ولعل في ذلك إقراراً ضمنياً من العمري بأن الحكم العربي مازال ساري النفوذ — وإن لم يكن حقاً كذلك — في زمنه الذي حكم فيه المماليك وهم ليسوا عرباً.

يبدو أن الروح العربية المشرقية التي ظهرت نفحاتها في اختيارات العمري للأعلام ولآثارهم الشعرية، وحرصه على تقديمهم ضمن إطار العصر العبَّاسي جعلته يسترجع أصداء الزمن الذي كان فيه لدولة بني العبّاس شأن ونفوذ وقوة، وكان بعض خلفائها رمز النصر والتفوق العربي، فالعمري ذو الأصول المشرقية، والجذور العربية الأصيلة التي تجمعه من حيث النسب مع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يمكنه التغاضي عن الحكم العربي الذي امتد نفوذه في العصر العبّاسي أيَّام القوة والعزّ والسؤدد.

٢- التوسُّع والشمول في عرض التراجم:

لم يكتف العمري بعرض تراجم شعراء حقبة معينة، وإنما توسّع في تراجمه واختار من العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام، والعصر الأموي، والعصر العبّاسي، والعصر الأندلسي، والعصر المملوكي، وهو عصره الذي عاش فيه، ومع ذلك فقد أعطى كل عصر حقّه من حيث عرض تراجم شعرائه وأدبائه، والإشارة إلى أهم الأحداث التي جرت في حياتهم، وتقديم نماذج مختارة من أشعارهم.

---

(١) في أواخر الجزء السادس عشر.

(٢) في أواخر الجزء السابع عشر.

ولم يقتصر العمري في عرض تراجمه على مشاهير الشعراء فحسب، وإنما ذكر إلى جانبهم المقلّين المجيدين في جميع العصور التي انتقى شعراءه منها بدءاً من الجاهلي وانتهاءً بالمملوكي، فقد ذكر إلى جانب امرئ القيس، وحسّان بن ثابت، والمتنبي، والحصري القيرواني، وصفيّ الدين الحلي، أرطأة بن سهيّة المري [(١)]، وعمرو بن الأهتم [(٢)] وابن الجنّان محمد بن سعيد [(٣)]، وابن خروف عليّ ابن محمد القيسي [(٤)]، ففي كل عصر اختار ما يزيد أو ينقص عن مئة ترجمة لشعراء تفاوتت شهرتهم، وأشعارهم من حيث القلة والكثرة، والذيوع والانتشار.

٣- الاعتماد على الوسائل البحثية المنهجية في عرض التراجم:

اعتمد العمري في عرض تراجم الشعراء على الاستقراء/الاصطفاء، والوصف، والتحليل، إذ قام بإجراء مسح شامل على شعراء العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعبّاسي والأندلسي والمملوكي، وانتقى من شعراء تلك العصور من وجد في تراجمهم مادّةً غنيّة من حيث الأحداث التي جرت في حياة الشاعر، ومن حيث الاختيارات الشعرية التي حرص على ألا تخلو ترجمة منها، واعتمد في ذلك على الوصف الذي كان أداة بحثية منهجية أساسية في وصف الشاعر وشعره بأسلوب أدبي رفيع يدلّ على قدرة العمري الفائقة في تدبيج العبارات، وإظهار الصنعة الفنية بسلاسة ومرونة، ففي ترجمة جميل بثينة [(٥)] قال العمري واصفاً: «صاحبُ بثينةَ، ومصاحب حبّها حتى فرّق الموت بينها وبينه، العذري نسباً وهوى، الوري حسباً وضاحاً وجوى، وكان في دعوى الحبّ صادقاً غير مريب، صادعاً قلبه صوت كل نجيب، وصوب كل غمام يبكي فراق الحبيب، وصون كلّ عاشقٍ لعهد غزالٍ ربيب، .. وكان ظاهر الوسامة باهر المحيّا، كأنما سلب القمر تمامه، مأثور الشجاعة، مشهور الكرم إبّان المجاعة..» [(٦)].

[(١)] من المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام، أدرك خلافة عبد الملك بن مروان،توفي بعد ٦٥ هـ، انظرترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٠٤.

[(٢)] من المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام، كان شاعراً وخطيباً، وفد على النبي محمد ﷺ، توفي ٥٧ هـ انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢٤٠.

[(٣)] من الشعراء الأندلسيين الذين رحلوا إلى دمشق وبها توفي عام ٦٧٥ هـ، انظر ترجمته في فوات الوفيات ١٦٥/٢.

[(٤)] من الشعراء الأندلسيين المقلّين، رحل إلى المشرق وأقام في حلب، وتوفي بها متردياً في جب عام ٦٠٤هـ انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٨/٢، وهو غير ابن خروف النحوي.

[(٥)] جميل بن عبد الله بن معمر العذري، شاعر أموي عاشق، شعره رقيق وأكثره في النسيب والغزل والفخر،توفي عام ٤٠ هـ، انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ١١٥/١.

[(٦)] مسالك الأبصار ١٤/ ٢٥٠، ٢٥١.

هذا نصٌّ مجتزأ من ترجمة جميل بثينة يبدو فيه حرص العمري على تقديم ترجمة تعج بالصور والتشبيهات والعبارات الوصفية القائمة على أحد ألوان الصنعة الفنية اللفظية، كالجناس بين (هوى، جوى) (حبيب، ربيب) (الشجاعة، المجاعة) (صاحب، مصاحب)، وعن شعره قال العمري واصفاً:

«يربأ بنفسه عن الهجاء والمدح، والرجاء والمنح إنما يصرف ما عنده من فضل اللّسن إلى النسيب، يخالط هذا في النساء من التشبيب، ومن منتقى شعره العجيب قوله[١]:

فليتَ رجالاً فيكِ قد نذروا دمي وهمُّوا بقتلي يا بثينَ لَقُوني

إذا ما رأَوْني طالعاً من ثنيّةٍ يقولون من هذا وقد عرفوني

من البيض لم تعقد نطاقاً بخصرها ولم يُرْخِ مَتْنَيها ارتكاضُ[٢] جنين

جَلَتْ بَرداً[٣] غرّاً تَرقُّ غروبُه عِذَابَ الثنايا لم تُشَبْ بأُجُون[٤]» [٥]

فالعمري يصف شعر جميل بالعجيب، ولعل في ذلك إشارةً إلى روعة المعاني وسحر البيان، ورقة التعبير، وينبّه أيضاً على أن أهم الأغراض الشعرية التي برزت في شعره هي الغزل والنسيب، وبيَّن أنه ابتعد عن الهجاء والمديح الذي فيه إراقة لماء الوجه، وانكسار للنفس.

أما التحليل فقد ظهر في عرض العمري لآرائه وتعليقاته في المواضع التي يسمح فيها المقام بذلك، فهو لم يكتف بأن يكون ناقلاً للنص والخبر والمادة الشعرية فحسب، وإنما كان متأثراً ومؤثراً بما ينقله عن طريق إشارة لطيفة، أو تعليق موجز، أو رأي شخصي يتبنّى نظرة نقدية واعية، فمن ذلك ما ذكره عن شعر انتقاه لكُشَاجم[٦]، وبيّن رأيه فيه بتعليق لطيف إذ قال:

«ومن جيّد ما وقع لي من صالح أشعاره»[٧].

---

[١] انظر ديوان جميل بثينة، تحقيق حسين نصار، ص٢٠٨.

[٢] ارتكاض الجنين: تحرّكه في بطن أمه.

[٣] بَرداً: البرد حب أبيض يتساقط من السماء تشبّه به الأسنان في بياضها.

[٤] أجون: تغير طعم الماء ولونه.

[٥] مسالك الأبصار ١٤/ ٢٥١.

[٦] أبو الفتح محمود بن الحسين، فارسي الأصل،كان من شعراء أبي الهيجاء وسيف الدولة الحمداني، قيل: إن كشاجم لفظ منحوت من أوائل العلوم التي كان يتقنها الكتابة، الشعر، الإنشاء، الجدل، المنطق، توفي عام ٣٦٠ هـ انظر ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد ٣/ ٣٧.

[٧] مسالك الأبصار ١٥/ ١٢٥.

فتعليق العمري يتضمن رأياً نقدياً لطيفاً للمستوى الشعري الذي وضع فيه شعر كشاجم، ويدل على تفاوت جودة أشعاره .

ومن ذلك أيضاً ما أورده العمري في ترجمة الوأواء الدمشقي[١] عن الخصائص الفنية في شعره ومنها : «... وله الاستعارات اللائقة في مواضعها، الفائقة بما لا تطلع معه النجوم في مطالعها، المتماثلة في أماكنها، المتقابلة حسناً في مواطنها»[٢] .

وفي ترجمة ابن خفاجة[٣] أورد أبياتاً له يصف فيها جواداً «قلت: وكذلك قوله يصف خيلاً أجرى الركض منها سيلاً، وأغرب فيها حسناً، وإن لم يغرب معنىً، ذكر فيه موقفاً برزت به زُمر الجنود في مسالكها، وزبرت زبر الحديد في سنابكها »[٤]

فالتعليقات والإضافات والآراء النقدية تظهر العمري باحثاً يمتلك أدواته البحثية، ويسعى إلى بيان الحقيقة، ويحرص على إيراد تعليقاته في المواضع المناسبة، فهومؤرخ ، ولكنه كاتب متمرّس في أساليب الكتابة والإنشاء ، لذلك نجده يقتنص الفرص التي تسمح له بإيراد رأي، أو تعليق، أو إشارة إلى أمر يرتبط بصاحب الترجمة.

٤- الموضوعية :

ظهرت في الوصف الدقيق لصاحب الترجمة، وبيان حاله الحقيقية دون مبالغة زائدة، أو غلو في الوصف، والمقصود بالمبالغة هنا إسباغ صفاتٍ على صاحب الترجمة ليست فيه، وتغيير حاله إلى مستوى يوافق أهواء العمري ورأيه فيه، أما الوصف القائم على المزاوجة بين العبارات فالغاية منه إظهار القدرة البلاغية، والتمكن من الصنعة الفنية التي امتلكها العمري، وهذا ما يلاحظه الباحث في التراجم التي أوردها، فهو يعبّر عن أفكاره بأسلوب جميل يجذب القارئ ، ولكنه يعطي صورة واضحة المعالم عن صاحب الترجمة دون أن يتزيد عليه، ففي كثير من المواضع تحدث عن أصحاب التراجم الذين جمعوا بين

---

[١] أبو الفرج محمد بن أحمد الغسَّاني، شاعر رقيق العاني حلو الألفاظ، توفي عام ٣٨٥ هـ انظر ترجمته في فوات الوفيات للكتبي ٢/ ١٤٦، ويتيمة الدهر للثعالبي ١/ ٢٧٢- ٢٨٢.

[٢] مسالك الأبصار ١٥/ ١٤٦.

[٣] أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله، شاعر أندلسي عاصر ملوك الطوائف والمرابطين بعدهم، برع في الوصف، والحنين إلى الوطن، وله نثر جيد، توفي عام ٥٣٣ هـ انظر ترجمته في الوافي بالوفيات ٦ / ٨٣.

[٤] مسالك الأبصار ١٧/ ١١٧.

الشعر والنثر ، فلم يكتف بإبداعهم الشعري فقط ، وإنما أشار أيضاً إلى إبداعهم النثري وتفوقهم فيه ، لأنه حريص على بيان حال المترجم له ، وإظهار مكانته وقدراته الحقيقة ، لاكما يود العمري أن يراها .

ففي ترجمة ابن خفاجة ذكرالعمري امتلاكه لناصيتي الشعروالنثر ، إذ قال : «هو للفضل نبعه وغربه ، ومنبعه ومذهبه ، كان في الأندلس للأدب إبراهيمه الذي وفى ، والذي أبْرا هِيمه بمورده الأصفى ، أجاد الصناعتين إتقاناً..» [(١)] .

وأورد العمري بعد ذلك مقتطفات من شعره جُلّها في الأوصاف ، منها :

وصف جواد [(٢)] ، ُشجرة نارنج [(٣)] ، وساق أحدب [(٤)] ، ونار في آخر الليل [(٥)] ، وحية [(٦)] وسفينة [(٧)] وغير ذلك ، ، وتابع العمري كلامه فقال : « وله نثر كثير ، وآخرٍ في نظمه إن كان ما زاد عليه رونقاً ، وجري لا ترده القافية متدفقاً ، لا إخال الدرّ يواخيه ، ولا أراه في الحسن دون أخيه» [(٨)] وضرب مثالاً على نثر ابن خفاجة ، منه قوله : «لما «لما علمت رغبته في التماس الطيور اللبلية هممت بالفحص عن أشرفها ، فسنح منها طائر يُستدل بظاهر صفاته على كرم ذاته ، وأخلق به أن ينقص عن قنصه سهاماً ، ويلوي به ذهاباً ، ويخرقه توقداً والتهاباً» [(٩)] .

وفي موضع آخر أورد العمري ترجمة الباخَزْري [(١٠)] ، وذكر فيها إبداعه الشعري والنثري إذ قال : «وكان ذا ذهنٍ حدٍّ لا يصدأ صقيله ، ولا يهدأ في المباحث صليله ، ولا يعرف شَرار النار إلا أن يكون هو أو سليله ، ولا طريق إلى الاختراع إلا في شعره وما هو سبيله... وسنورد من بديعه ما يشف كتمانه على لسان مذيعه» [(١١)] .

---

(١) مسالك الأبصار ١٧/ ١١١.
(٢) انظر مسالك الأبصار ١٧/ ١١٤.
(٣) نفسه ١٧/ ١١٨.
(٤) نفسه ١٧/ ١١٨.
(٥) نفسه ١٧/ ١١٩.
(٦) نفسه ١٧/ ١٢٠.
(٧) نفسه ١٧/ ١٢٠.
(٨) نفسه ١٧/ ١٢٤.
(٩) الذخيرة لابن بسام ٣/ ٦٤٥، واللبلية نسبة إلى مدينة لبلة في الأندلس.
(١٠) أبو الحسن علي بن الحسن صاحب كتاب (دمية القصر وعصرة أهل العصر) وهو على نسق كتاب يتيمة الدهر للثعالبي، كان أديباً شاعراً من أهل باخرز من نواحي نيسابور، توفي عام ٤٦٧ هـ، انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٣٦٠، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٨٠.
(١١) مسالك الأبصار ١٥/ ٣٨٠.

٥- الأمانة العلمية:

ظهرت في رد الاقتباسات والنصوص إلى مصدرها، إذ يبدو حرص العمري على توثيق المعلومة بذكر اسم قائلها أو عنوان الكتاب الذي نقل عنه.

أ- ذكر اسم من نقل عنه.

أشار العمري إلى تحريه الدقة في إيراد الخبر، وتوخيه الحذر في النقل فقال: «ولم أذكر عجيبة حتى فحصت عنها، ولا غريبة حتى ذكرت الناقل لتكون عهدتها عليه، وتبرَّأتُ منها»[١].

ولم يكتف العمري بالنقل عمن عُرف بالحفظ ورواية الأخبار، وإنما قصدَ أن ينقل عن «الأعيان الثقات من ذوي التدقيق في النظر والتحقيق في الرواية[٢]» فهو يذكر أسماء شيوخه والمؤرخين الذين اشتهروا بمصنفاتهم الجليلة في التاريخ وتراجم الرجال، وهذا يدلّ على تشدّده في التحقق والتثبت من الأخبار والنصوص التي يوردها في تراجمه، فمن ذلك ذكره أنه سمع من شيخه علاء الدين الكندي أبياتاً رواها لأبي الفتح يحيى بن سلطان بن منقذ[٣]، وأشار إلى أنها رويت أيضاً لغيره، لكن ثقته بشيخه دفعته إلى نسبتها نسبتها إليه وهي:

«والشمس مصفرّة في الغرب قد نشرت ... شعاعها في تفاريقِ من السُّحُبِ
كأنما السحبُ أعلامٌ موردّةٌ ... والشمسُ من تحتها ترسٌ من الذهبِ

.... ورويت أيضاً لغيره، وإنما شيخنا علاء الدين الكندي رواهما له ومنه سمعت»[٤]. وهو ينقل عن الثعالبي في ترجمته للوأواء الدمشقي[٥] فيقول: «ذكره صاحب اليتيمة، وعرض جوهره الغالي القيمة قال: وكان منادياً بدمشق بدار البطيخ، ينادي على الفواكه، وقال: وما زال يُشعر حتى جاد كلامه، وساد شعره، ووقع منه ما يروق، ويشرق ويفوق، حتى بلغ العيّوق، انتهى كلامه»[٦].

---

[١] مسالك الأبصار ١/ ١١٠.
[٢] مسالك الأبصار ١/ ١٠٩.
[٣] انظر ترجمته في خريدة القصر للعماد الأصفهاني ١/ ٥٦٧.
[٤] مسالك الأبصار ١٦/ ٣٨.
[٥] تقدمت ترجمته.
[٦] مسالك الأبصار ١٥/ ١٤٥، ١٤٦ وانظر ما ذكره الثعالبي عنه مما نقله العمري في يتيمة الدهر ١/ ٢٧٢.

وفي الموضع نفسه[(١)] يذكر العمري ضمن ترجمة نصر بن علي الملقب بعزِّ الدولة[(٢)] نصاً نقله عن العماد الأصفهاني دون أن يذكر اسم كتابه فقال: «ذكره العماد الكاتب الأصفهاني فقال: حضرنا عند الملك الصالح ليلةً بدمشق في سنة إحدى وسبعين وخمسمئة، والأمير مؤيد الدولة حاضرٌ، يناشدنا مُلَح القصائد، ويُنْشِد لنا ضالة الفوائد، وجرى ذكرُ بيتين لبعضهم، في المشط الأسود والمشط الأبيض، وهما لأبي الحسن أحمد بن محمد الدويدة وهما:

كنت أستعمل السواد من الأمـ ـشاط والشَّعرُ في سواد الدياجي

أتلقى مثلاً بمثلٍ فلما صار عاجاً سرَّحته بالعاجِ

فقال أسامة: أخذ هذا المعنى عمّي نصر وعكسه فقال:

كنت أستعملُ البياض في الأمـ ـشاط عُجباً بلمّتي وشبابي

فاتخذت السواد في حالة الشيـ ـب سلواً عن الصبا والتصابي

ب ـ ذكر اسم المصدر الذي ينقل عنه

ومن ذلك ما نقله العمري عن ابن سعيد في كتابه (المرقصات والمطربات) فقد ذكر اسم الكتاب ضمن ترجمة أحمد بن محمد بن عبد ربه[(٣)] ومن ذلك:

«وقد استفتح به ابن سعيد شعراء المغرب في المرقص والمطرب[(٤)] وقال: هو بالأندلس إمام أدبائها، وفارس شعرائها، وذكر من شعره قوله:

---

(١) انظر مسالك الأبصار ١٦/ ٣٨.

(٢) أبو المرهف كان أميراً شجاعاً، شاعراً أديباً، لقب بعزّ الدولة وهو عم مؤيد الدولة أسامة،امتلك حصن (شيزر) قرب حماة وتوفي فيه سنة ٤٩١هـ انظر ترجمته في خريدة القصر للعماد الأصفهاني ١/ ٥٦٨ ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي٥/ ١٦٣، والأعلام للزركلي ٨/ ٢٦.

(٣) أبو عمر المعروف بابن عبد ربه الأندلسي صاحب العقد الفريد من أهل قرطبة، له شعر كثير منه ما سمي بالممحَّصات، وهي قصائد ومقطعات في المواعظ والزهد نقض بها كل ما قاله في صباه من غزل ونسيب، توفي سنة ٣٢٨هـ،انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٣٢ وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٨٣.

(٤) انظر المرقصات والمطربات، لابن سعيد ٢٨٣، والأبيات في ديوان ابن عبد ربه، ص ١٤١.

يـا ذا الـذي خـطَّ العِـذارُ بخـدِّه ... سـطرين هاجـا لوعـةً وبلابـلا
مـا كنـت أقطـع أنَّ لحظـك صـارمٌ ... حتـى رأيـتُ بعارضـيك حمـائلا»[(١)]

ومن ذلك أيضاً نقلُه عن الحميدي في (جذوة المقتبس)[(٢)] ضمن ترجمة الرمادي[(٣)] : «قال الحافظ أبو عبد الله الحميدي في جذوة المقتبس وقد ذكره: كثير الشعر، سريع القول، مشهور عند الخاصة والعامة حتى كان من شيوخ الأدب في وقته»[(٤)] ثم بيّن العمري أن ابن خلكان ذكر ذلك أيضاً، ونقل عن الحميدي أن الشعر افتتح بكندة واختتم بكندة أي بامرئ القيس والمتنبي والرمادي[(٥)] .

٦- الصنعة الفنية:

اتبع العمري في عرض تراجمه أسلوباً أدبياً راقياً رفيع المستوى عالي المقام يدل على أن صاحبه ذو شأن في الكتابة والإنشاء، واللافت في تلك التراجم أن العمري كان يستوحي من اسم المترجم له عباراتٍ يُظهر فيها امتلاكه لناصية البيان، وقدرته على صوغ جمل متراصفة كحبات الجمان.

فمن ذلك ما ذكره في ترجمة يحيى بن هذيل الأعمى[(٦)] إذ قال: «رجلٌ رد نور بصره إلى بصيرته، وعاد وعاد ضياء ظاهره إلى سريرته، نفذ العنان إلى ربوعه ونفث البيان في روعه، فتوقد نوراً أغناه أن يتلمس، وأخذ بيده فلم يحتج أن يحمل عصاً ويتحسَّس، سقاه الأدب مورداً نميرا، وألقى عليه ثوبه فارتدّ بصيراً»[(٧)] .

استمد العمري من صفة العمى مادّةً للنصِّ الذي أورد فيه الترجمة، وأحسن في انتقاء عباراته التي جعلت من نصوص الترجمة روضة أنفاً مزدانة بأزهى ألوان البيان والبديع.

---

(١) مسالك الأبصار ١٧/ ٢٠.

(٢) انظر جذوة المقتبس للحميدي ٣٧٠.

(٣) أبو عمر يوسف بن هارون بن الكندي، شاعر أندلسي عاصر المتنبي، مدح الملوك والخلفاء، سجنه الخليفة الحكم المستنصر، توفي عام ٤٠٣ هـ في قرطبة ، انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢/ ٤١٠، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد ١/ ٣٩٢.

(٤) مسالك الأبصار ١٧/ ٢٥.

(٥) مسالك الأبصار ١٧/ ٢٥.

(٦) أبو بكر يحيى بن هذيل القرطبي الأندلسي، قدم إلى شرق الأندلس، وتتلمذ عليه الشاعر الرمادي وغيره، توفي عام ٣٨٩ هـ انظر ترجمته في بغية الملتمس للضبي ٤٩٤، والأعلام للزركلي ٨/١٧٦.

(٧) مسالك الأبصار ١٧/ ٢٢، ٢٣.

وفي الموضع نفسه أورد ترجمة لجعفر بن عثمان المُصْحَفي الحاجب[١] فقال: «لا بل هو العين، بل المعدن معدن الذهب العين، بل النظراء من الناس الجسم وهو العين، بل هو الذي تقدّم به شأو الطلق لما ذكر معه حاجب بن زرارة، ولا استرهن كسرى قوسه وأبقى عليه عاره، وله يد في الأدب لا تعدمها أصابع النيل، ولا تجيء معها الفرات لريّ الغليل، ولا يعرف سيحون إلا ما ساح منها، ولا جيحون إلا ما أجيح لنقصه عنها»[٢].

فالعمري يرى في نصوص تراجمه فضاءً رحباً لألوان الصنعة من صور وتشبيهات، واستعارات وكنايات، وجناس بين الألفاظ فمن الجناس (العين: عين الإنسان والجوهر) ومن الكناية (أصابع النيل).

وفي ترجمة الرمادي[٣] قال: «نبعٌ ماؤه من غير ثِماد، ونفختْ ناره فأضاءت في رماد، عدَّته كندة مع ملكها الضليل، وكوفيها المتنبي بالتضليل، وكان في عصر أبي الطيب كل منهما يرجم الآخر من كندة في نسبه ومرجل شعره الفاخر في منصبه، حتى فازت كندة بفضلها المعرب، وحازت بهما طرفي الفخار في المشرق والمغرب، ورأت له ما رأته أخوة يوسف ليوسفها، وحسدته فما حصلت إلا على تأسفها...»[٤].

فالعمري يعرض التراجم ضمن مساحة حرّة يقدّم فيها ما تجود به مَلَكته الأدبية كرسّام يبدع بريشته لوحة فنية جميلة.

٧- الإشارات التاريخية والدينية:

جعل العمري من الصنعة الفنية وسيلة لعرض إشارات لطيفة من التاريخ العربي، والثقافة الإسلامية المستمدة من القصص القرآني، ظهر ذلك في الشاهد السابق الذي تضمن إشارته إلى تعاصر المتنبي والرمادي، وانتسابهما إلى قبيلة كندة العربية[٥]، كما ظهر أيضاً في موضع آخر، حيث أشار إلى قصة يوسف يوسف عليه السلام مع إخوته، ومع أبيه حين ألقى إخوته ثوبه على وجه أبيه يعقوب فارتد بصيراً[٦].

---

(١) وزير أديب أندلسي وله شعر كثير استوزره المستنصر الأموي إلى أن مات في عام ٣٧٢ هـ انظر ترجمته في الحلة السيراء لابن الأبار ١٤١ – ١٤٧، ونفح الطيب للمقري ١/ ٢٨١.

(٢) مسالك الأبصار ١٧/ ٢٣، ٢٤.

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) مسالك الأبصار ١٧/ ٢٤، ٢٥.

(٥) مسالك الأبصار ١٧/ ٢٤، ٢٥.

(٦) مسالك الأبصار ١٧/ ٢٢، ٢٣.

٨- كثرة الاختيارات الشعرية :

لم يكن الجانب الذي خصصه العمري لتراجم الشعراء مقتصراً على عرض تراجمهم بكل ما تشتمل عليه من ذكر أسمائهم وأنسابهم وأوصافهم وأهم الأحداث التي جرت في حياتهم ، وإنما كان ميداناً واسعاً أورد العمري فيه كماً كبيراً من الاختيارات الشعرية لأصحاب التراجم ، فاستحالت تلك التراجم إلى موسوعة شعرية ضمّت أجمل الأشعار المنتقاة من جميع العصور التي ذكرها ، ولاسيما العصرين الأندلسي والمملوكي.

فقد وقف عند أشهر الأغراض الشعرية التي طرق الشعراء أبوابها ، وأورد الاختيارات التي انتقاها من القصائد الشعرية التي نظمها أصحاب التراجم.

٩- التجديد في المنهج :

أورد العمري في مقدمة الجزء السابع عشر كلاماً مهماً عن طريقته في عرض تراجم شعراء الجانب الغربي من الدولة العباسية ، وقارن بين طريقته وطريقة ابن سعيد في كتابيه (المغرب) و(المرقصات والمطربات) ، فقال : «ثم لم يبق إلا ذكر الشعراء بالجانب الغربي ، وأول من بدأ به منهم ابن سعيد وهو المتأخر المجيد ، المنتصر لجمعهم ، والمقتصر على تحسين صنعهم من أول المئة الرابعة وساقهم إلى زمانه في المئة السابعة مرتباً على المئين ، منظماً لهم نظم العقد الثمين ، وأول ما قال إذ ذكرهم ما صورته : شعراء المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط ، الجاهلية وما بعدها إلى المئة الرابعة عاطلة مما هو من شروط هذا الكتاب ، ثم ذكرهم على الترتيب ، وأدخل مصر في قسم المغرب لسوء حظها العجيب ، وقد زدنا على من ذكره ابن سعيد في عدّة الأسماء ، وفي عدد المختار أضعافاً مضاعفة ممن أهملها إذ كان كتابنا هذا – ولله الحمد - على غير نمطه ، ولا على حدٍّ مشترطه ، ...

ولعلّ جملة كتاب المُغرب تأليف ابن سعيد ، ومن قبله لا يجيء حجمه معها قدر السدس ، ولا فوائده إلا دون السبع ، هذا إلى ما تضمنّه كتابنا من علوم جمّة ، وأمور مهمّة ، وتراجم أعيان هم الناس ، وسمٍّ من شئت منهم ، واستطرد في القياس ، مما لا يحكم فيه إلا المُنْصِف ، ولا نريد فيه إلا قول المحق لا المسعف ، وقد جعلنا المصريين في آخر الجانب الغربي منفردين على ما رأيته وتراه ، وعلى ما قضى به عليها سابق القدر ، وسوء الحظ الذي لا ينفع معه الحذر»[١] .

---

[١] مسالك الأبصار ١٧/ ١٩.

فالظاهر من كلام العمري أنه سعى في عرض تراجمه إلى تقديم الجديد، إذ اعتمد في منهجه الخاص بعرض التراجم على التوسعّ والشمول، وذكر المشهور والمغمور، واستيعاب كل ما يمكن أن يُذكر في الترجمة مما يفيد ويغني ثقافة القارئ كالحياة الشخصية وأهم الأحداث المرتبطة بالأحوال الاجتماعية والسياسية، وأبرز الاختيارات الشعرية والنثرية ، ولعل هذا العرض الوافي للتراجم المنتقاة إلى جانب التأريخ الدقيق للأحداث التاريخية والجوانب الاجتماعية في العصر المملوكي على وجه الخصوص هو ما حدا بالعلماء المتأخرين الذين أرّخوا للحقبة المملوكية بالنقل عن العمري كالقلقشندي في (صبح الأعشى) والمقريزي في (الخطط) والسيوطي في (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة).

وهذا الأمر يدل على أهمية موسوعة العمري ومكانتها المميزة في المكتبة العربية.

❑❑

ثبت المصادر

- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى الضّبي، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي، إدارة إحياء التراث، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.
- الحلة السيراء، ابن الأبار، تحقيق د. حسين مؤنس، الطبعة الأولى، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.
- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، تحقيق مجموعة من الباحثين، قسم العراق تحقيق: محمد بهجة الأثري، مطبوعات المجمع العلمي العراقي العربي ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، قسم الشام: تحقيق: د. شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م، قسم شعراء مصر: تحقيق: أحمد أمين شوقي ضيف، إحسان عباس، طبعة دار الكتب المصرية، مصر، ١٩٥١م.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ديوان ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د. محمد أديب عبد الواحد جمران، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ديوان جميل بثينة، جمع وتحقيق: حسين نصّار، الطبعة الثانية، مصر، ١٩٦٧م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، علي بن بسّام الشنتريني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، القاهرة، ١٣٥٠هـ - ١٣٣١هـ.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مصر، ١٩٥٠م.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ،شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، إشراف : حسام الدين القدسي ، مصر ، ١٣٥٥هـ.
- فوات الوفيات والذيل عليها ، محمد بن شاكر الكتبي ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣م.
- المرقصات والمطربات ، ابن سعيد الأندلسي ، تقديم وتحقيق : إبراهيم محمد حسن الجمل ، د. عبد الحميد هنداوي ، دار الفضيلة ، مصر.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ابن فضل الله العمري ، تحقيق د. كامل سلمان الجبوري ُمهدي نجم ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠١٠م.
- المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد الأندلسي ، تحقيق : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٣م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، يوسف بن تغري بردي ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٣م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقري ، تحقيق : د.إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الوافي بالوفيات ، الصفدي ، تحقيق : محمد يوسف نجم ، الطبعة الثانية ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٢م.
- الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، عني به د. إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان ، تحقيق : د. إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، أبو منصور الثعالبي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مصر ، ١٩٥٦م.

❑❑

الأحنف بن قيس

د. أحمد الخضر*

لكل أمةٍ عظماءٌ تفتخرُ بهم، ويحق للأمة العربية أن تفتخرَ برجَالٍ خلدوا ذكرهم في التاريخ، بحسن أخلاقهم وصحيح إسلامهم وعظيم أعمالهم، ولا شك أننا اليوم أشد ما نكون في حاجتنا لهم ولأمثالهم، ففي الليلة الظلماء يفتقدُ البدرُ، وإننا ندعو بجد وصدق إلى العودة للتراث العربي لإحياء ذكر هؤلاء الرجال ليكونوا قدوةً لأبنائنا،

وأني أرى أن تعظيم ذكرهم هو خير من تعظيم ذكر نابليون الفرنسي أو محمد علي الألباني. وأننا نسعى في هذه المقالة إلى تسليط الضوء على شخصية عربية كان لها عظيم الأثر في تاريخ أمتنا، سنشرح بشيء من التفصيل حياة سيد قبيلة تميم العربية، الأحنف بن قيس، وإنا لقائلون حقاً ومثنون صدقاً وهو أهل لحسن الثناء، رجل له فضل على الإسلام وعلى نشر كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وله فضل على بني قومه، نعمت تميم بحلمه أربعين عاماً، فقد عاش مودوداً حميداً ومات سعيداً فقيداً وكان عظيم الحلم فاضل السلم رفيع العماد واري الزناد منير الحريم سليم الأديم عظيم الرماد قريب البيت من الناد، ويتناول هذا المقال علاقات الأحنف مع أهم رجال عصره، رجلان قدر الله أن يكون بنيان الدولة الإسلامية على يديهما، وهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان،.......... فمن هو الأحنف؟....

---

* قسم التاريخ / جامعة دمشق.

أولاً : سيرته :

اختلف المؤرخون في اسمه فمنهم من قال الضحاك ومنهم من قال الحارث ومنهم من قال صخر[١]، على أية حال هو: ابن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزل بن مروة بن مقاعس بن عمر بن كعب بن سعيد بن زيد بن مناة بن تميم[٢] والأحنف لقب له لاعوجاج في قدمه، وكان يكنى بأبي بحر[٣]، ولد في البصرة، في السنة الثالثة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الموافق لسنة ٦١٩م[٤]. وتوفي الأحنف سنة ٦٧هـ وقيل توفي في إمارة مصعب بن الزبير على العراق، وقيل سنة ٦٨هـ، وقيل توفي سنة ٧١هـ، وقيل سنة ٧٧هـ، وكان أعورَ صغير الرأس أصلع غائر العينين أحنف الرِجّل[٥]. إلا أنه كان حليماً حكيماً، وصفه الذهبي بـ "الأمير الكبير العالم النبيل، أبو بحر التميمي، أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل[٦]"، وقال عنه خالد بن صفوان: "كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه[٧]"، شارك في الفتوحات الإسلامية وإعلاء كلمة الله وفتح بلاد الفرس.

ثانياً : إسلامه :

سنبدأ بتسليط الضوء على إسلامه، لما لإسلامه من فضل على الدين بوصفه فقيهاً ومحدثاً، وقبل كل شيء رجُلاً تقياً يخاف الله تعالى، لما بعث رسول الله الرُسل والمبلغين إلى القبائل العربية يدعوهم إلى الإسلام، بعث رجلا من بني ليث إلى بني سعد، فجعل يخبرهم ويدعوهم إلى دين الله والدخول في الإسلام، فلقيه الأحنف بن قيس واستمع إليه ثم قال: "إنه يدعو إلى خير وما أسمع إلا حسنا". فلما عاد هذا الرجل إلى مكة المكرمة روى لرسول الله ما كان من أمر الأحنف، فقال رسول الله: "اللهم اغفر للأحنف[٨]". فكان الأحنف يقول: "فما شيء أرجى عندي من ذلك[٩]"، أسلم الأحنف في حياة الرسول ولم يره، لذلك يعتبر من التابعين من الطبقة الأولى[١٠] لا من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. كان رجلاً تقياً يخاف الله تعالى، حدَّث عن عمر بن الخطاب، وعن علي بن أبي طالب، وعن أبي ذر الغفاري، وعن العباس عم النبي، وعن عبد الله بن مسعود، وعن عثمان بن عفان، وروى عن الأسود بن سعيد، وجارية بن قدامه السعدي، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله[١١].وقال الأحنف: "سمعت خطبة أبي بكر وعمر بن الخطاب والخلفاء، فما سمعت الكلام من مخلوق أفخم ولا أحسن من أم المؤمنين عائشة[١٢]".

وحدث عنه عمرو بن جاوان، والحسن البصري، وعروة بن الزبير، وطلق بن حبيب، وعبد الله بن عميرة، ويزيد بن الشخير[١٣]، وحميد بن هلال العدوي، وخالد أبو إدريس البصري، وخليد العصري، وطلق بن حبيب العنزي، وعبد الله بن يزيد الباهلي، ومالك بن دينار، وهارون بن رئاب، وأبو العلاء يزيد

بن عبد الله بن الشخير وآخرون، وهو قليل الرواية، قال ابن سعد: "كان ثقة مأموناً قليل الحديث وكان صديقاً لمصعب بن الزبير"، وقال عنه يعقوب بن سفيان الفسوي: "كان الأحنف جواداً حليماً وكان رجلاً صالحاً أدرك الجاهلية ثم أسلم وذكر للنبي فاستغفر له، وقال كان ثقة مأموناً قليل الحديث وكان كثير الصلاة في الليل(١٤)"، ويمتاز ذكر الأحنف بمروياته بتفسير القرآن، وكان له آراؤه الفقهية ومنها مسألة تخطي رقاب الناس في يوم الجمعة، حيث ذكر ابن سعد عن الأزرق بن قيس أن الأحنف كان يكره أن يتخطى رقاب الناس قبل خروج الإمام يوم الجمعة(١٥).

وعن مولى للأحنف كان يصحبه قال: كنت أصحب الأحنف فكان عامة صلاته بالليل، وكان كثير الدعاء، وكان يجئ إلى المصباح فيضع أصبعه فيه ثم يقول: "حس"، ثم يقول: "يا أحنف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ وما حملك على ما صنعت يوم كذا؟(١٦)". وكان يؤخذ ولا يأخذ بالرخص باعتباره قدوة وإماماً يُقتدى به، وكان حريصا على الصلاة بأوقاتها برغم كل الظروف الصعبة، ومنها ما ذكر عنه أنه استعمل على خراسان، وأجنب في ليلةٍ باردةٍ فلم يوقظ أحداً من غلمانه وكسر ثلجاً واغتسل(١٧). وكان حريصاً على الصيام حتى آخر عمره، ويذكر المؤرخون أنه قيل للأحنف: "إنك شيخ ضعيف وإن الصيام يضعفك"، فقال: "إني أعده لشر يوم طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه(١٨)". وكان الأحنف كثير النظر في المصحف. وكان كثير الدعاء والابتهال لرب العالمين، وقد أثر عنه أنه كان يقول في دعائه: "اللهم إن تغفر لي فأنت أهل لذلك وإن تعذبني فأنا أهل لذلك(١٩)". وكان من دعائه: "اللهم هب لي يقينا تهون به علي مصائب الدنيا(٢٠)".

ثالثا: سيرته في الفتوحات الإسلامية:

شارك الأحنف بن قيس في الفتوحات الإسلامية ونشر كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله وإعلاء كلمة الحق زمن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد كتب الله على يدي الأحنف فتح تستر (وهي من أرض البصرة) وكان تخضع لاحتلال الفرس، بعدها قدم الأحنف على عمر بن الخطاب، وقال: "له قد فتح الله عليكم تستر"، فنهض رجل من المهاجرين وقال: "يا أمير المؤمنين هذا الرجل (يعني الأحنف) كف عنا بني مرة حين بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدقاتهم، وقد كانوا هموا بنا". فحبسه عمر عنده سنة كاملة، يقول الأحنف: " كان يأتيني في كل يوم وليلة فلا يأتيه عني إلا ما يحب ثم دعاني فقال: يا أحنف هل تدري لما حبستك عندي؟!، فقلت لا يا أمير المؤمنين، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذرنا كل منافق عليم فخشيت أن تكون منهم، فاحمد الله يا أحنف(٢١)".

وكانت جبهة الفتوحات مشتعلة، وقد كتب الله للمسلمين أكثر من فتح على يدي أكثر من قائد، ومنها فتح المدائن، وكان عمر يرى أن يقف بالفتوحات عند الجبال التي تحيط بحدود الشام والعراق لا يتعداها، وأن يصلح وينظم البلدان المفتوحة، فكتب الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص بعد فتح المدائن إلى الخليفة يستأذنه في مطاردة الفرس خلف جبالهم، فقال له عمر رضي الله عنه: "وددت لو أن السواد والجبال سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد[٢٢]". فاعتقد الفرس أن عمر رضي الله عنه لم يأذن لقواته بمتابعتهم لأنه يخافهم، فتجرؤوا على المسلمين وتحرشوا بهم إلا أنهم هزموا هزيمة نكراء، وكان ذلك في السنة السابعة عشرة للهجرة، فشاور عمر رضي الله عنه الأحنف بن قيس فأشار عليه بضرورة فتح بلاد فارس، فاستحسن عمر رأيه، وأمر قواته بالانسياح في بلاد فارس، وكان ذلك في السنة الثامنة عشرة للهجرة[٢٣].

وهكذا تجهزت جيوش عمر لفتح بلاد فارس وبعث عمر بالألوية مع سهيل بن عدي، فدفع لواء خراسان للأحنف بن قيس، ولواء أردشير مَزّه وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء اصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي، ولواء فسا ودرابجرد إلى سارية بن زينم الكناني، ولواء كرمان ظل مع سهيل بن عدي، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمر، وكان عاصم من الصحابة، فخرجوا سنة سبعة عشر فعسكروا ليخرجوا إلى هذه الكور فلم يستتب سيرهم حتى دخلت سنة ثمان عشرة، وأمدهم عمر بأهل الكوفة[٢٤].فدخل الأحنف خراسان وكتب الله على يديه فتح الطبسين وهراة ومرو الشاهجان ونيسابور في مدة يسيرة وهرب منه يزردجرد بن شهريار ملك الفرس إلى خاقان ملك الترك بما وراءالنهر[٢٥]، وإن كان بعض المؤرخين قد أورد خبر فتح خراسان وأشار إلى أن قيادة الجيوش كانت لابن عامر[٢٦]، إلا أنهم ذكروا أن الأحنف كان على مقدمتها، حيث لقي جيش المسلمين أهل هراة فهزمهم وتقدم حتى فتح أبرشهر صلحاً (ويقال عنوة) ثم بعث ابن عامر أربعة آلاف رجل تحت قيادة الأحنف إلى طوقان شاة فاقتتلوا قتالاً شديداً وكان النصر للمسلمين، وكان الأحنف في ساحة المعركة يحمل على أعداء الإسلام وهو يقول:

إن علـــى كـــل رئـــيس حقـــا أن يخضـــب القنـــاة أو تنـــدقا

حمل على صاحب الطبل فقتله، ثم اندفع باتجاه الكردوس الثاني وقتل صاحب الطبل فيه أيضاً، فخاف الفرس لما سكتت طبولهم فولوا هاربين، فتبعهم المسلمون يقتلون منهم حتى فتحوا مدينة يقال لها مرو الروذ[٢٧]، وعن إسماعيل بن مسلم عن ابن سيرين قال: بعث ابن عامر الأحنف بن قيس إلى مرو الروذ فحصر أهلها فخرجوا فقالوا: "يا معشر العرب ما كنتم عندنا كما نرى ولو علمنا أنكم - كما نرى - لكانت لنا ولكم حال غير هذه فأمهلونا ننظر يومنا وارجعوا إلى عسكركم، فرجع الأحنف". وسار الأحنف إلى بلخ فصالحوه على أربع مائة ألف، ثم سار إلى خوارزم فلم يطقها فرجع.

صالح ابن عامر على ما بقي من أبرشهر (يعني خراسان) على ألف ألف درهم ومائة ألف فارد من الطعام وبعث أهل مرو يطلبون الصلح فصالحهم على ألفي ألف ومائتي ألف وكان الذي صالح ماهويه بن آزر مرزبان مرو، ويقال: إن الذي صالح أهل مرو حاتم بن النعمان الباهلي بعثه ابن عامر، وعن ابن اسحاق أن ابن عامر عندما خرج من خراسان معتمراً، ولى الأحنف مكانه، فهم أهل تخرستان وأهل الجوزان والفارياب والطالقان وعليهم الطوقان شاه، وتجمعوا في مرو يريدون الغدر بالأحنف فجرد لهم جيشا من المسلمين هزمهم به شر هزيمة(٢٨).

وهكذا يتضح لنا الدور الذي لعبه الأحنف في الفتوحات الإسلامية ودوره في إعلاء كلمة الله، ونشر دين الإسلام، وبفضل جهوده وجهود غيره من كبار قادة المسلمين في فتح بلاد فارس، أصبحت ثاني إمبراطورية في ذلك العصر تدين بالولاء والطاعة للعرب.

رابعاً: مواقفه الخليفة الراشدي عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

يروى أن عمر ذكر ذات يوم بني تميم فذمهم، فقام الأحنف فقال: "يا أمير المؤمنين ائذن لي"، فقال: "تكلم"، فقال: "إنك ذكرت بني تميم فعممتهم بالذم وإنما هم من الناس فيهم الصالح والطالح"، فقال عمر: "صدقت"، فقام الحتات وكان يناوئه، فقال: "يا أمير المؤمنين ائذن لي فأتكلم"، فقال له عمر: "اجلس فقد كفاكم سيدكم الأحنف".

ويذكر المؤرخون أن وفد البصرة دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان فيهم أبو موسى الأشعري والأحنف بن قيس، فتكلم كل رجل في خاصة نفسه، وكان الأحنف في آخر القوم فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال: "أما بعد - يا أمير المؤمنين- فإن أهل مصر نزلوا منازل فرعون، وأصحابه وأهل الشام نزلوا منازل قيصر وأصحابه، وإن أهل الكوفة نزلوا منازل كسرى ومصانعه في الأنهار والجنان، وفي مثل عين البعير والحوار في السلى تأتيهم ثمارهم قبل أن تبلغ، وإن أهل البصرة نزلوا في أرض سبخة زعقة نشاشة لا يجف ترابها ولا ينبت مرعاها، وطرفها في بحر أجاج وطرف في فلاة، لا يأتينا شيء إلا في مثل مريء النعامة، فارفع خسيستنا وأنعش وكيستنا، وزد في عيالنا عيالاً وفي رجالنا رجالاً وصغر درهمنا وكبر قفيزنا ومُر لنا بنهر نستعذب منه"، فقال عمر رضي الله عنه: "عجزتم أن تكونوا مثل هذا، هذا والله السيد"، ويقول الأحنف: "فما زلت أسمعها بعد".

كان الأحنف رجلاً زاهداً في الدنيا ورعاً، وكان عمر يقدر له ذلك، فذات مرة قال له عمر: "أي الطعام أحب إليك؟" فقال الأحنف: "الربد والكمأة"، فقال عمر: "ما هما بأحب الأطعمة إليه ولكن يحب الخصب للمسلمين(٢٩)".وكان عمر يحترم فصاحة الأحنف وبلاغة كلامه ومما قاله عمر: "هو مؤمن عليم

اللسان(٣٠)". وكما كان عمر يحترم الأحنف بن قيس كان الأحنف يكن الاحترام لعمر، حتى أنه سؤل ذات مرة وقيل له: "بما أوتيت ما أوتيت من الحلم والوقار؟" فقال: "بكلمات سمعتهن من عمر بن الخطاب، سمعته يقول يا أحنف من فرح استخف، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه(٣١)". رحمك الله يا أبا بحر، فقد صدقت العرب حين قالت: "عاشت بنو تميم بحلم الأحنف أربعين سنة". وصدق الحسن البصري حين قال عنك: "ما رأيت شريف قوم كان أفضل من الأحنف بن قيس(٣٢)".

خامساً: موقفه من الفتنة:

قبل الخوض في هذا الموضوع علينا أن نتذكر مقولة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "تلك دماء طهَّرَ الله أيدينا منها، فلا نلوث ألسنتنا"، ولكننا نذكر موقف الأحنف بن قيس حتى نشير إلى أنه كان صاحب رأي وموقف، لا ميالاً مع هواه. فلما نشب القتال بين علي كرم الله وجهه والسيدة عائشة أم المؤمنين، اعتزلَ القتال، أي يوم الجمل(٣٣)، وقال لقومه: "يا معشر بني تميم لا تسرعوا إلى الفتنة فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار(٣٤)". إلا أن الأحنف شهد صفين(٣٥) وكان في صف الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٣٦). وكانت قضية الخوارج من الفتن الكبرى التي واجهت المسلمين بعد صفين والتحكيم، والخوارج طائفة كانت تقاتل في صف الإمام علي كرم الله وجهه، فلما أدرك معاوية بن أبي سفيان ضعف جيشه وأن النصر لعلي وجنده طالبَ بالتحكيم، عندها حثت هذه الطائفة الإمام علي على عدم قبول التحكيم، ولما انتهى التحكيم دون أن يتفق الفريقان على حلٍ وسط، سخطت هذه الطائفة على الإمام علي، لا بل إنها كفرته، وكان منهم رجل يقال له: نافع بن الأزرق(٣٧)، أقام في الأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال، فإذا أجيب إلى المقالة جبا الخراج وفشا عماله في السواد (أي أهل العراق) فارتاع أهل البصرة فاجتمعوا على الأحنف بن قيس فشكوا ذلك إليه وقالوا: "ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم على ما ترى"، فقال الأحنف: "إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم فجدوا في جهاد عدوكم"، فاجتمع إليه عشرة آلاف، فأتى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فسأله أن يؤمر عليهم فاختار لهم ابن عبيس بن كريز وكان دينا شجاعا وسار حتى لقي ابن الأزرق وتقاتلاً حتى قتل الأزرق وقتل ابن عبيس(٣٨).

وهكذا يتضح أن مثل هؤلاء الرجال يخافون الله ويخافون على مصير الأمة لذلك رفضوا أن ينزلقوا في خلافاتها، وحاولوا قدر الإمكان تجنب أحداث الفتن، لكن في أحيان كثيرة يضطر أسياد القوم إلى المواجهة، مواجهة المشكلة ومفتعليها خير من النأي بالنفس ودس الرأس في الرمل، والرجل المستقيم الكريم وسيدُ قومه لا تلومه في الله لومة لائم، ومواجهة المشكلة خير من الهروب للأمام.

سادساً : موقفه عند معاوية بن أبي سفيان :

ولما ألهم الله الحسن عليه السلام لحل الخلاف بين فئتين من المؤمنين، وسمي مبيض وجوه المؤمنين، وبايع معاوية بن أبي سفيان، قام الأحنف إلى معاوية وبايعه، فعاتبه معاوية وخاطبه بـ (يا أحنف)، فرد عليه الأحنف بـ (يا معاوية) فلما ترفق به معاوية وقال له: "عهدتك حليما يا أبا بحر"، فرد عليه الأحنف وقال: "ليس بالند يا أمير المؤمنين"، وكانت ابنة معاوية تستمع لحوارهما، وكانت تتعجب لهذا الرجل الذي يرد على الخليفة بهذا الأسلوب، فقال لها معاوية: "هذا الذي إذا غضب يغضب لغضبه مئة ألف فارس من بني تميم، لا يسألونه في ما غضب".

وكان معاوية يحترم الأحنف ويظهر له كبير القدر من الاحترام. ولما كانت العراق مصرا من أهم أمصار الأمة الإسلامية، رماه بنو أمية بدهاة العرب، وكان زياد ابن أبيه والياً على العراق وكان يحترم الأحنف، فلما تولى الأمر مكانه ابنه عبيد الله بن زياد أهمل أمر الأحنف، ويذكر المؤرخون أن عبيد الله وفد على معاوية مع الأشراف، فقال له معاوية أدخلهم على قدر مراتبهم، فأَخَّرَ الأحنف، فلما دخل الأحنف على معاوية أكرمه معاوية وقال: "إلي يا أبا بحر" وأجلسه معه وأعرض عنهم، ولما تحدثوا أمام معاوية اخذوا في مديح عبيد الله، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: "لم لا تتكلم"، فقال الأحنف: "إن تكلمت خالفتهم"، فقال معاوية: "اشهدوا أني قد عزلت عبيد الله"، فلما خرج القوم من عند الخليفة كان فيهم من يروم الإمارة، ثم أتوا معاوية بعد ثلاثة أيام وذكر كل واحدٍ شخصاً وتنازعوا، فقال معاوية: "ما تقول يا أبا بحر"، قال: "إن وليت أحداً من أهل بيتك لن تجد مثل عبيد الله"، فقال معاوية: "أعدته"، فخلا معاوية بعبيد الله وقال له: "كيف ضيعت مثل هذا الرجل الذي عزلك وأعادك وهو ساكت"، فلما رجع عبيد الله جعل الأحنف صاحب سره.

ويذكر المؤرخون أن الأحنف ذات يوم حدث معاوية حديثا، فقال له معاوية: "أتكذب؟" فقال له الأحنف: "والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله[٣٩]". وذكر ابن الجوزي عن الحسن قال: "كانوا يتكلمون عند معاوية والأحنف ساكت"، فقالوا: "ما لك يا أبا بحر لا تتكلم"، فقال: " أخشى الله إن كذبت وأخشاهم إن صدقت[٤٠]". ومما رواه ابن الجوزي أن الأحنف قال لمعاوية في إصلاح الحاكم: "أنت الزمان فإن صلحت صلح حال الناس[٤١]".

ويذكر ابن شبرمة أن معاوية كان مع نفر من أصحابه ومنهم الأحنف بن قيس إذ قال رجل: "لو أن أبا سفيان ولد الناس ولدهم حلماء"، فقال الأحنف: "لكنه ولدهم من هو خير من أبي سفيان، ولدهم آدم أبو البشر فكان فيهم العالم والسفيه والحليم"، فقال معاوية: "يا أحنف إني كنت لأكره أن أراك خطيباً"، فقال الأحنف: "يا معاوية إني كنت لأكره أن أراك أميراً، فلم يقل له معاوية شيئا[٤٢]".

وهكذا يتضح كم كان الأحنف رجلاً شجاعاً لا يعرف الكذب والنفاق، ولا المهادنة والمواربة، كان صاحب وزن وكلمة، فرض احترامه وعظيم قدره على معاوية، داهية العرب وملكهم، ذلك الرجل الذي استطاع بما آتاه الله من رجاحة العقل وبعد النظر أن ينزل الناس في منازلهم، ويقدرهم بحسب ما يستحقون، وهذا يفسر سر الحظوة التي حاز عليها سيد تميم عند الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان.

سابعاً: حلمه وحكمته:

"كان الأحنف جواداً حليماً، وكان رجلاً صالحاً[٤٣]"، وكان "سيد أهل البصرة الذي يضرب به المثل في الحلم والوقار[٤٤]"، كان حليماً "وله أخبار في حلمه سارت بها الركبان[٤٥]"، وكان يقول: "تعلمت الحلم من قيس بن عاصم[٤٦]"، كان حكيما تشهد على ذلك مقولاته، فقد روى سليمان التميمي عنه أن الأحنف قال: "ثلاثٌ فيَّ ما أذكرهن إلا لمعتبر، ما أتيت باب سلطان إلا أنْ أدعى، ولا دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما، وما أذكر أحداً بعد أن يقوم من عندي إلا بخيرٍ". وروي عنه أنه قال: "ما نازعني أحد إلا أخذت أمري بأمور: إن كان فوقي عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان مثلي تفضلت عليه[٤٧]"، وقال: "لست بحليم ولكني أتحلم". وقيل: إن رجلاً خاصم الأحنف وقال: "لئن قلت واحدة لتسمعن عشراً"، فقال الأحنف: "لكنك إن قلت عشراً لم تسمع واحدة[٤٨]". ورُوِيَ "أن رجلاً قال للأحنف بم سدت قومك وأنت أحنف أعور"، وأراد أن يعيبه، فقال له الأحنف: "بتركي ما لا يعنيني، كما عناك من أمري ما لا يعنيك[٤٩]". وروي عن ذي الرمة قال: شهدت الأحنف بن قيس وقد جاء إلى قوم في دم، فتكلم فيه وقال: "احتكموا"، فقالوا: "نحتكم ديتين"، قال: "ذاك لكم"، فلما سكتوا، قال: "أنا أعطيكم ما سألتم، فاسمعوا إن الله قضى بدية واحدة وإن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بدية واحدة والعرب تعاطى بينها دية واحدة، وأنتم اليوم تطالبون وأخشى أن تكونوا غدا مطلوبين فلا ترضى الناس منكم إلا بمثل ما سننتم"، فقالوا: "ردها إلى دية". صدق ابن الأثير الجزري حين قال: "كان الأحنف أحد الدهاة العقلاء[٥٠]". ويروى أن الأحنف رأى درهما في يد رجل، فقال له: "لمن هذا"، فرد الرجل: "لي"، فقال الأحنف: "إنه ليس لك حتى تخرجه في أجر أو اكتساب شكر وتمثل أنت للمال إذا أمسكته، وإذا أنفقته فمال لك. وقيل: إنه قال: "لا ينبغي للأمير الغضب لأن الغضب في القدرة مفتاح السيف والندامة". وقال: "إن رأيت الشر يتركك إن تركته فاتركه[٥١]". وقال: "لا يتم أمر السلطان إلا بالوزراء والأعوان، ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا بالرأي والعفة". وقال: "رأس المروءة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس[٥٢]". وقال: "إن عجبت لشيء، عجبت لرجال تنمو أجسادهم وتصغر عقولهم". وقال: "من لم يصبر على كلمات سمع كلمات[٥٣]". وقال: "ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: شريف

من دنيء، وبر من فاجر، وحليم من أحمق[٥٤]". وقال: "الأدب آلة المنطق لا خير من قول بلا فعل، ولا في منظر بلا خبر، ولا في مال بلا جود، ولا في صديق بلا وفاء، ولا في فقيه بلا ورع ولا في صدقة إلا بنية، ولا في حياة إلا بصحة وأمن، والعتاب مفتاح التقى، والعتاب خير من الحقد". وقال: "الحلم هو الذل مع الصبر[٥٥]". وسئل عن المروءة فقال: "كتمان السر والبعد عن الشر". وقال: "كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئاً عرف به[٥٦]". وسمع الأحنف بن قيس رجلا ذات مرة يقول: "التعليم في الصغر كالنقش على الحجر"، فقال له: "الكبير أكبر عقلا ولكنه أشغل قلبا[٥٧]". وكان الأحنف يقول: "حتف الرجل مخبوء تحت لسانه[٥٨]". وقال: "أحي معروفك بإماتة ذكره[٥٩]". وقال: "ما قل سفهاء قوم قط إلا ذلوا[٦٠]". وقال: "أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار[٦١]". وقال: "الكامل من عدت هفواته[٦٢]". وقال: "ما ذكرت أحداً بسوء بعد أن يقوم من عندي[٦٣]". ووقف ذات مرة خطيباً بقومه في خراسان فقال لهم: "يا بني تميم تحابوا تجتمع كلمتكم، وتباذلوا تعتدل أموالكم، وابدؤوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم[٦٤]". أوليس هذا القول البليغ يستحق أن يكتب بماء الذهب ويعلق في بيوت أمراء العرب وسادتهم، رحمك الله يا أبا بحر.

وذُكِرَ أن بعض الخلفاء سأل رجلاً عن الأحنف وعن صفاته، فقال الرجل: "يا أمير المؤمنين أخبرك باثنتين، كان الأحنف يفعل الخير ويحبه، ويتوقى الشر ويبغضه، وكانت له ثلاث خصال، كان لا يحسد أحداً، ولا يبغي على أحد، ولا يمنع على أحد حقه، وأخبرك عنه بواحدة، كان من أعظم الناس سلطاناً في قيامه على نفسه[٦٥]". وروي أن رجلاً قال ليحيى البرمكي: " أنت والله أحلم من الأحنف بن قيس"، فقال يحيى: "لا يقربنا من أعطانا فوق حقنا[٦٦]".

ومن بلاغة قول الأحنف، وحسن حديثه، ومن قول الثقاة والمؤرخين فيه، يتضح لنا كم كان هذا الرجل حسن البيان، سليم اللسان، عامر الجنان، قوي الإيمان، ونحن نفخر به، وتفخر به أمةٌ ما برحت تنجب الأبطال من قبل ثمود.

ثامناً: علمه:

كان الأحنف عليم اللسان بليغاً حكيم الزمان، حليماً انشد قليلاً من الشعر، وربما أن قلته كانت لأسباب متعددة أهمها أن الأحنف كان رجلاً فقيهاً محدثاً مجاهداً في سبيل نشر الإسلام، وهذه أمور تتطلب الكثير من الجهد، وتحتل الكثير من الوقت هذا إذا لم نقل الوقت كله، ولكن نذكر هنا مما أنشد:

العنكبوت بنت بيتا على وهن   تأوي إليه وما لي مثلها وطنُ

والخنفساء لها من جنسها سكن وليس لي مثلها إلف ولا سكنُ(٦٧)

ووقف الأحنف بن قيس على قبر أخيه فأنشد:

فوالله لا أنسى قتيلا رزقته بجانب قوس ما مشيت على الأرض

بلى إنها تعفو الكلوم وإنما نؤكل بالأدنى وإن جل ما يمضي(٦٨)

تاسعاً: وفاته:

توفي الأحنف في إمارة مصعب بن الزبير على العراق (٦٩)، وقال قرة بن خالد حدثنا أبو الضحاك أنه أبصر مصعبا يمشي في جنازة الأحنف بلا رداء، وقال (أي مصعب): "مات اليوم سيد العرب(٧٠)". وروى أبو عمر بن العلاء أن الأحنف توفي في دار عبيد الله بن أبي الغضنفر.

الخاتمة

كنا قد أسلفنا في فقرات مقالتنا وفي سطورها، سطورا عن حياة رجلٍ عظيمٍ، يمكننا أن نوجزها بالقول: كان الأحنفُ رجلاً شريفاً حليماً تقياً فقيهاً ومحدثاً، وقبل كل شيء رجلٌ يخاف الله تعالى، كان سيداً لقومه لا تلومه في الله لومة لائم، كان حسن البيان، سليم اللسان، عامر الجنان، قوي الإيمان، كان رجلاً شجاعاً لا يعرف الكذب والنفاق، ولا المهادنة والمواربة، كان صاحب وزن وكلمة، حضي بمكانة لا تدانى عند الفاروق، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وفرض احترامه وعظيم قدره على الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، كان كريماً جواداً، مجاهداً في سبيل نشر الإسلام. إن فتح كتب التاريخ وإحياء سيرة هؤلاء العظماء من أمتنا، هو ما نحتاجه في أيامنا هذه، في زمنٍ ضاعت فيه المثل الأخلاقية والقيم العليا، نحن بحاجة إلى رجالٍ مثل أولائك الرجال، رجال لا هم لهم إلا هموم القوم، وهمهم آخر ما يفكرون به، فسيد القوم خادمهم.

الهوامش

(١) ابن حجر، شهاب الدين، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٢٨هـ، ج١، ص١٠٠

(٢) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م، ج٧، ص٩٣

(٣) ابن الأثير عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط١، تحقيق محمد علي الجباوي، دار النهضة القاهرة، ١٩٦٠م، ج١، ص٧٨

(٤) ابن خياط، خليفة، الطبقات، ط١، تحقيق د. أكرم ضياء العمري مطبعة الآداب، النجف، العراق، ١٩٦٩م، ص٩٥

(٥) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، عيون الأخبار، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م، ج٤، ص٣٥.

(٦) الذهبي، أبو عبد الله محمد، سير أعلام النبلاء، ط٢، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م، ج٤، ص٨٦.

(٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار، .ج١، ص٢٢٨

(٨) ابن حنبل، أحمد، المسند، ج٥، ص٣٧٢.

(٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء، .ج٤، ص٨٨.

(١٠) ابن عبد البر، يوسف، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٢٨هـ، ص١٢٨

(١١) المزي، جمال الدين، تهذيب الكلام في أسماء الرجال، ط١، تحقيق بشار عواد معروف، دار الرسالة لبنان ١٩٨٠م، ج٢، ص٢٨٣

(١٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، .ج٤، ص٩٥.

(١٣) المزي، تهذيب الكلام، .ج٢، ص٢٨٣

(١٤) الفسوي، أبو يوسف يعقوب، المعرفة والتاريخ، ط١، تحقيق د. أكرم ضياء العمري مطبعة الأوقاف العامة، العراق، ١٩٧٦م، ج٣، ص٣٦٧

(١٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، .ج٧، ص٢٨٣

(١٦) ابن الجوزي، عبد الرحمن، صفوة الصفوة، ط١، تحقيق محمد الفاخوري، مطبعة دمشق، دمشق ١٩٧١م، ج٣، ص١٩٩

(١٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء، . ج٤، ص٩٢.

(١٨) المصدر نفسه، ج٤، ص٩١

(١٩) المصدر نفسه، ج٤، ص٩٢

(٢٠) بدران، عبد القادر، تهذيب تاريخ دمشق، ط٢، دار الميسرة بيروت، ١٩٧٦م، ج٧، ص١٩

(٢١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، . ج٤، ص٨٨.

(٢٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ط٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م ج٤، ص٢٨

(٢٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٠

(٢٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٩٤

(٢٥) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ط٣، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٧، ج٣، ص٤٠٩.

(٢٦) ابن عامر: هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي الذي فتح بلاد فارس وخرسان وكابل وهو ابن خال عثمان بن عفان رضي الله عنه، انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط٢، لبنان، ١٩٧٨م، ج٦، ص١٨٧.

(٢٧) ابن قتبة، عيون الأخبار، . ج١، ص١٤٧

(٢٨) ابن خياط، خليفة، التاريخ، ط١، تحقيق د. أكرم ضياء العمري مطبعة الآداب، العراق، ١٩٧٦م، ج١، ص١٤١.

(٢٩) ابن قتبة، عيون الأخبار، . ج١، ص١٩٧

(٣٠) ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، ط١، دار التقوى، مصر، ١٩٩٩م، ج٨، ٣٣٠.

(٣١) بدران تهذيب تاريخ دمشق، . ج٧، ص١٥

(٣٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، . ج٧، ص٩٥

(٣٣) ابن الأثير عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، .ج١، ص٧٨

(٣٤) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد، العقد الفريد، ط٣، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م، ج٧، ص٢٢٢

(٣٥) وصفين موضع على ضفة الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، وفيه كانت واقعة بين معاوية وعلي رضي الله عنهما سنة ٣٧هـ، انظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، . ج٣، ص٤١٤

(٣٦) ابن الأثير عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، .ج١، ص٧٨

(٣٧) نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الوائلي الحروري أبو راشد رأس الأزارقة، وكان أمير وفقيه أهل

البصرة، قتل سنة ٦١هـ، انظر: الزركلي، الأعلام، .ج٧، ص٣٠٩

(٣٨) المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨١م، ج٣، ص٢٩٣

(٣٩) المصدر نفسه، ج٢، ص٢١١

(٤٠) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، .ج٣، ص١٩٨

(٤١) ابن الجوزي، عبد الرحمن المصباح المضيء في خلافة المستضيء، ط١، تحقيق ناجية عبد الله وزارة الأوقاف العراقية، بغداد ١٩٧٦، ج١، ص١٨٣.

(٤٢) وكيع، محمد بن خلف، أخبار القضاة، ط٢، عالم الكتب، بيروت ١٩٧٢م، ج٣، ص٩٥.

(٤٣) الفسوي، المعرفة والتاريخ، .ج٣، ص٣٦٧.

(٤٤) الصفدي، أبو الصفاء خليل، الشعور بالعور، ط١، تحقيق د. عبد الرزاق حسين، دار عمار، الأردن، ١٩٨٨م، ص١٤٨.

(٤٥) ابن كثير، البداية والنهاية، .ج٨، ٣٣٠.

(٤٦) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجليل بيروت ٢٠٠٢م، ج٢، ص٤٢.

(٤٧) الماوردي، علي بن عمر، أدب الدنيا والدين، ط٣، تحقيق محمد علي الحباوي، دار الكتاب بيروت، ١٩٦٨م، ص٢٤٧.

(٤٨) ابن كثير، البداية والنهاية، .ج٨، ٣٣١.

(٤٩) العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٢٨هـ، ج١، ص١٠١

(٥٠) ابن الأثير عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، .ج١، ص٧٧.

(٥١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، .ج١، ص٩١.

(٥٢) الزمخشري، محمود بن عمر، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ط٢، ٢٠٠٦م، بيروت، ج٢، ص٤٠٠.

(٥٣) الجاحظ، البيان والتبيين، .ج٢، ص٧٦.

(٥٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، .ج٤، ص٩٣.

(٥٥) ابن خالكان، شمس الدين، وفيات الأعيان أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر لبنان، ١٩٧٢ ج٢ ص٥٠١.

(٥٦) المصدر نفسه، ج٢ ص٥٠١.

(٥٧) الجاحظ، البيان والتبيين، .ج١، ص٢٥٧.

(٥٨)ابن قتبة، عيون الأخبار، .ج١، ص٣٣١.

(٥٩) ابن كثير، البداية والنهاية، .ج٨، ٣٣١.

(٦٠) ابن عبد ربه، العقد الفريد، .ج١، ص٨٧

(٦١) المصدر نفسه، ج١، ص٨٧.

(٦٢)ابن قتبة، عيون الأخبار، .ج١، ص٢١١.

(٦٣) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، .ج٣، ص١٩٨

(٦٤) الجاحظ، البيان والتبيين، .ج٢، ص٩٣.

(٦٥) ابن العماد، أبي الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط٢، دار الميسرة، بيروت، ١٩٧٩م، ج١، ص٧٨

(٦٦) الزركلي، الأعلام، .ج١، ص٣٦٢

(٦٧) الثعالبي، عبد الملك، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ط١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٤٣٢.

(٦٨) ابن عبد ربه، العقد الفريد، .ج٣، ص٢١٢.

(٦٩) ابن خالكان، وفيات الأعيان، ، .ج٢، ص٥٠٤.

(٧٠) ابن سعد، الطبقات الكبرى، .ج٧، ص٩٥

المصادر المعتمدة

(١) ابن الأثير عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط١، تحقيق محمد علي الجباوي، دار النهضة القاهرة، ١٩٦٠م

(٢) بدران، عبد القادر، تهذيب تاريخ دمشق، ط٢، دار الميسرة بيروت، ١٩٧٦م

(٣) الثعالبي، عبد الملك، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ط١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجليل بيروت ٢٠٠٢م

(٥) ابن الجوزي، عبد الرحمن، المصباح المضيء في خلافة المستضيء، ط١، تحقيق ناجية عبد الله وزارة الأوقاف، بغداد ١٩٧٦

(٦) ابن الجوزي، عبد الرحمن، صفوة الصفوة، ط١، تحقيق محمد الفاخوري، مطبعة دمشق، دمشق ١٩٧١م

(٧) ابن حجر، شهاب الدين، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٢٨هـ

(٨) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ط٣، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٧م

(٩) ابن خالكان، شمس الدين، وفيات الأعيان أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر لبنان، ١٩٧٢م

(١٠) ابن خياط، خليفة، الطبقات، ط١، تحقيق د. أكرم ضياء العمري مطبعة الآداب، النجف، العراق، ١٩٦٩م

(١١) ابن خياط، خليفة، التاريخ، ط١، تحقيق د. أكرم ضياء العمري مطبعة الآداب، النجف، العراق، ١٩٧٦م

(١٢) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م

(١٣) الذهبي، أبو عبد الله محمد، سير أعلام النبلاء، ط٢، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م

(١٤) الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط٢، لبنان، ١٩٧٨م

(١٥) الزمخشري، محمود بن عمر، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ط٢، بيروت، ٢٠٠٦م،

(١٦) الصفدي، أبو الصفاء خليل، الشعور بالعور، ط١، تحقيق د. عبد الرزاق حسين، دار عمار، الأردن، ١٩٨٨م.

(١٧) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ط٤، ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م

(١٨) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد، العقد الفريد، ط٣، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م

(١٩) ابن عبد البر، يوسف، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٢٨هـ

(٢٠) العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٢٨هـ

(٢١) ابن العماد، أبي الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط٢، دار الميسرة، بيروت، ١٩٧٩م

(٢٢) الفسوي، أبو يوسف يعقوب، المعرفة والتاريخ، ط١، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، مطبعة الأوقاف، العراق، ١٩٧٦م

(٢٣) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، عيون الأخبار، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م

(٢٤) ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، ط١، دار التقوى، مصر، ١٩٩٩م

(٢٥) الماوردي، علي بن عمر، أدب الدنيا والدين، ط٣، تحقيق محمد علي الحباوي، دار الكتاب بيروت، ١٩٦٨م

(٢٦) المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨١م

(٢٧) المزي، جمال الدين، تهذيب الكلام في أسماء الرجال، ط١، تحقيق بشار عواد معروف، دار الرسالة لبنان ١٩٨٠م

(٢٨) وكيع، محمد بن خلف، أخبار القضاة، ط٢، عالم الكتب، بيروت ١٩٧٢م

❑❑

تهذيب موانح الأنس برحلتي لوادي القدس لـ مصطفى أسعد اللُّقيمي

د. علي كردي*

مقدّمة

عُرف العرب منذ القديم بحبّهم للسّفر والارتحال، وتعددت أسباب ذلك، وتواترت الأخبار عن هؤلاء الرحالين وما شاهدوه وقصّوه في المصادر المختلفة.

ووقفنا على عدد من الرّحالين يعودون إلى بلدانهم فيروون مشاهداتهم في رحلاتهم تلك، وتطور هذا الأمر إلى أن قام بعضهم بتدوين مشاهداته في كتب خاصة عُرفت بكتب الرِّحل.

ومن أوائل كتب الرِّحل التي انتهت إلينا رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار سنة ٣٠٩هـ بتكليف من الخليفة العبّاسي المقتدر بالله، ليفقه أهل تلك البلاد بالدّين الإسلامي، وقد دوّن مشاهداته وانطباعاته عن تلك البلاد وأهلها في كتابه هذا[(١)].

ومنذ ذلك الحين أخذ هذا الضرب من التأليف شكله المستقل، وتوالت الرِّحل المدوّنة في المشرق والمغرب.

* جامعة دمشق ــ قسم اللغة العربية.

(١) طبعت في مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق الدكتور سامي الدهان بعنوان(رسالة ابن فضلان).

وتنوعت الرِّحل بتنوع أسبابها، فهناك رحل اهتمّت بالجانب الجغرافي من وصف للأقاليم والبلدان، وما حوت من عجائب وغرائب، وأخرى اهتمّت بالجانب الدّيني من حجٍّ وعمرة، ووصف للمناسك، وثالثة اهتمّ صاحبها بالجانب العلمي من لقاء العلماء والمشايخ، ورابعة كان اهتمام صاحبها بزيارة مقامات الأولياء والصالحين وقبورهم والتّبرّك بها، وخامسة للسياحة... وغير ذلك[١].

وقد كثرت الرِّحَل بأنواعها في العصر العثمانيّ كثرةً لافتةً للنظر، حتى إنّ بعض الأدباء كان يكتب عن رحلته إذا انتقل من مدينة إلى أُخرى.

ومن هذه الرِّحل التي اهتم صاحبها بزيارة الأماكن المقدّسة، والمشاهد، وقبور الأنبياء، والأصحاب، والتّابعين، والأولياء في بلاد الشّام رحلة **(تهذيب موانح الأنس برحلتي لوادي القدس)**؛ واسمِ الكتاب في الأصل **(موانح النّفس برحلتي لوادي القدس)**، غير أن المحقّق غَيَّره لِما حذفه من أشياءَ لم يَرْضَها؛ ويدلّ عنوان الكتاب في شطره الثّاني على المواطن الّتي هدف إلى زيارتها في **(وادي القدس)** وما حَوله، وأمّا الشطر الأوّل فيدلُّ على انبساطه وانشراح نفسه بهذه الزّيارة.

فمن مؤلف الرّحلة؟ وما هدفه منها؟ وعلام احتوت؟

ترجمة صاحب الرّحلة:

ذكر صاحب الرّحلة اسمه ونسبه كاملاً في رحلته قائلاً: "فإني الفقير مصطفى أسعد اللّقيمي الحسنيّ، سبط المولى محمّد أفندي العنبوسيّ، سبط المولى عبد الرحمن بن العالم العلّامة مفتي الديار المصريّة في أواخر القرن العاشر أبي الحسن نور الدين علي بن محمد بن محمد بن علي بن خليل بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن غانم المقدسي بن علي بن الحسن بن إبراهيم بن عبد العزيز بن سعيد بن سعد بن عُبادة الأنصاري الخزرجي"[٢].

ولد بدمياط سنة ١١٠٥هـ، وتلقّى علومه الأولى فيها على والده إلى أن شبّ، واختلف إلى مجالس العلماء في بلده، فأخذ عن جدّه لأمه محمد الدمياطي العلوم المختلفة[٣]، وأخذ عن مجموعة من العلماء بالمدينة المنوّرة والقدس ونابلس، ومنهم الشيخ عبد الله بن سالم البصري المكّي، ومحمد بن سلطان الوليدي، ومحمد بن سليمان المغربي، وإسماعيل العجلوني، ومصطفى البكري الصديقي[٤]،

---

(١) انظر أنواع الرّحل التي ذكرها محمد الفاسي في مقدمة تحقيقه لرحلة (الإكسير إلى فكاك الأسير) ص٢.

(٢) تهذيب موانح الأنس ٢٤٥-٢٤٦، وانظر سلك الدرر ١٨٠/٤، علماء دمشق ٣١٣/٣/١٢، وعجائب الآثار ٣٨٤/١ وما بعد، والإعلام للزركلي ١٣٠/٨.

(٣) سلك الدرر ١٨٠/٤.

(٤) تهذيب ٢٠٤ موانح النفس.

ومحمد الخليلي[١]، وأحمد المؤقت[٢]، وعبد المعطي الشافعي[٣] وغيرهم.

وتتلمذ على يد اللّقيمي نفرٌ من الطلبة منهم إخوته عمر، ومحمد سعيد، وعثمان الذين أخذوا عنه علوماً مختلفة، ومحمد الكزبري[٤]، ....وغيرهم.

توفي اللّقيمي بدمشق سنة ١١٧٨هـ على الأرجح[٥]، ودفن بتربة مرج الدحداح، تجاه قبر أبي شامة.

كان اللّقيمي أديباً شاعراً، ذا حظ حسن من علم الحساب والفرائض، حظي بالثناء من معاصريه وممّن ترجموه[٦].

مؤلفاته:

ترك اللّقيمي عدداً من المؤلفات في العلوم المختلفة تدل على تنوع مشاربه، وتمكّنه من علوم عصره، ولا يزال أكثرها مخطوطاً، وهاهي مرتّبة على حروف المعجم[٧]:

١- التّوصل في شرح الصّدر بالتّوسّل لأهل بدر.

٢- الحياة المعلمة البهيجة بالرّحلة القدسيّة المهيجة.

٣- ديوان شعره (تحائف تحرير اليراعة بلطائف تقرير البراعة).

٤- رسائل في الحساب والفرائض.

٥- سحّ سحب الأدب البديع المعاني بسوح روض الآداب البديع الرضواني.

٦- شرح ورد أستاذه مصطفى الصدّيقي.

٧- لطائف أنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل.

٨- مختصر كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل.

٩- المدامة الأرجوانية في المقامة الرضوانية (في مدح الأمير رضوان كتخذا).

١٠- موانح النفس برحلتي لوادي القدس.

١١- نشر نفحة الصفاء ببشر الصحة والشّفاء (في مدح الأمير رضوان كتخذا).

---

(١) المصدر نفسه ٢٠٥.

(٢) المصدر نفسه ٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه ٢١٢.

(٤) سلك الدرر ١٨٠/٤.

(٥) سلك الدرر ١٩٢/٤.

(٦) انظر سلك الدرر ١٨٠/٤ وما بعد، وعجائب الآثار ٣٨٤/١.

(٧) الأعلام للزركلي ١٣٠/٨ وعلماء دمشق وأعيانها ٢٩/١٣/١٢، وسلك الدرر ١٨٠/١، وعجائب الآثار ٣٨٩/١ وما بعدها.

أسباب الرحلة :

حفز اللّقيمي على القيام برحلته سببان، الأول ديني يتعلّق بزيارة المسجد الأقصى لما ورد في فضل زيارته، وزيارة قبور الأنبياء في فلسطين، وقبور الأولياء والصالحين في مدن سوريا ولبنان، والثاني رغبته في لقاء العلماء والمشايخ، والصالحين والأخذ عنهم.

وقد صرّح اللّقيمي بالهدف من رحلته في خطبة كتابه فقال: "الحمد لله الملك القدّوس، باعث لطائف النّفوس، شوقاً لزيارة القدس المحروس، وأثار لها بالوجد أشجانا"[(١)]

وقال: "وشرعت في تحبير رحلة بهيّة، تتضمّن ما أشاهده، من المآثر الزّهيّة، ومن ألاقيه من السّادة العلماء والصّوفية، الحائزين من مظاهر الحقيقة والشّريعة عرفانا"[(٢)]

وقد بيّن المؤلّف فضل زيارة المسجد الأقصى، مستدلاً بالحديث الشريف: "لا تشدّ الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجد رسول الله، والمسجد الأقصى"[(٣)].

فكان شديد التّوق لزيارة هاتيك المرابع، فعزم على القيام برحلته إلى القدس، ومنها انطلق إلى الشام ولبنان، فزار عدداً كبيراً من المدن، وكان همّه البحث عن قبور الأنبياء، والمقامات، ومراقد الأولياء، والأماكن المرتبطة بهم.

واستمرّت الرّحلة ستة أشهر بدأها أحد أيام الثلاثاء، من شهر ذي القعدة الحرام عام ١١٤٣هـ، ولكنّه لم يدوّنها وقت القيام بها، بل انتظر عشرين سنة بعد انتهائها فكتبها سنة ١١٦٤هـ.

١ـ خط سير الرّحلة :

انطلق اللّقيمي في رحلته من دمياط، فبدأها بزيارة بعض الأولياء والصالحين بمدينته، مستمدّاً البركة والتيسير من زيارتهم، ثم زار البحيرة (بحيرة تنّيس)، ثمّ فم أم مفرج، ثمّ قلعة الطّينة، فالرُّمّاني منزل بني هُشيم، ثمّ بئر العبد، ثمّ العريش، ثمّ وادي الخرّوبي، ومنها وصل إلى رفح وهي أوّل بلاد الشّام، ثمّ غزّة، ثم يُبْنى، فالرّملة، فيافا على شاطئ البحر المتوسط، فبيت لحم، ثمّ القدس، ثمّ طور زيتا، ثمّ الخليل، ثمّ عاد إلى القدس ثانيةً ومكث فيها مدّة، ثم غادرها إلى نابلس، ثمّ إلى دير قديس، ثمّ إلى قرية سبطارة، ثمّ يازور، ثم يافا ثانيةً، ثمّ إلى كفرسابة، ثمّ إلى حبلة، وعاد إلى نابلس ثانيةً، واتجه شمالاً إلى طبرية ومنها إلى القنيطرة فسعسع، فدمشق، ثم زار المزّة، وبرزة، والمليحة، وقاسيون، وبعدها اتجه إلى

(١) تهذيب موانح الأنس ٣٥.

(٢) المصدر نفسه ٣٧.

(٣) صحيح مسلم، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة رقم ٣٣٨٤.

دمّر، فالديماس، فخان الضهر الأحمر، والنبطيّة، وبيروت وصيدا، وركب من مينائها سفينة اتجهت إلى قبرص، ومنها إلى بلده دمياط فوصل إليها يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى سنة ١١٤٤هـ.

٢ ـ مصادر اللّقيمي في تأليف رحلته :

ضمّت الرّحلة معلومات متنوعة، ففيها معلومات جغرافيّة، وتاريخيّة، وأدبيّة، وعلميّة تتعلق بعلاج الأمراض بالأعشاب، وغير ذلك، لذا تنوّعت مصادر المؤلف تنوّعاً كبيراً ككتب الحديث والطبقات والتراجم، والتاريخ، والسيرة، والتّصوف، ودواوين الشعراء.

ويمكن أن نردّ مصادر اللّقيمي إلى الأنواع الآتية :

المشاهدة، ثمّ الرواية الشفويّة، ثمّ المصنّفات المختلفة التي نقل عنها.

أمّا **المشاهدة** فظهرت في المعلومات الجغرافيّة التي أوردها المؤلف عن الأماكن التي مرّ بها، وخصائصها العمرانية وتضاريسها، وكان يصفها عياناً، ومن ذلك قوله عن مدينة الرّملة : "..وهي واسطة بلد فلسطين، فإنها في أرض سهلة، وهي كثيرة الأشجار والنّخيل، وحولها كثير من المزارع والمغارس، وفيها أنواع الفواكه، وظاهرها حسن المنظر، وهي من جملة الثّغور"[١]

وضمّت الرّحلة طائفة من المعلومات والقضايا العلميّة، أخذها المؤلف مشافهةً من صدور العلماء[٢]، وقيّدها في رحلته، وكثير منها تفرّدت الرّحلة بذكره، وهذا يزيد في قيمتها.

أما المصدر الثالث فهو المؤلفات التي نقل عنها اللّقيمي في رحلته، وكان يفعل ذلك عندما كان يريد الاستدلال على مسألة، أو توضيح أمر، أو ترجمة علم من الأعلام.

وقد تنوّعت المصادر التي نقل عنها، ويمكن تصنيفها في الأنواع الآتية :

- **المصادر الجغرافيّة والتّاريخيّة :** كخطط المقريزي، وأنس الجليل للعليمي، والرياض الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لأبي السرور البكري، ومروج الذهب للمسعودي، ورحلة الهروي، وفضائل دمشق لأبي حسن الربعي..... وغيرها.
- **كتب الحديث المختلفة :** كالصحيحين، وسنن أبي داود، والجامع الصغير للسيوطي، وشرح القسطلاني لصحيح البخاري..... وغيرها.

---

(١) تهذيب موانح النفس ٩٢.
(٢) المصدر نفسه ٢٠٤ ـــ ٢١٠.

ـ **كتب تفسير القرآن وعلومه :** كتفسير القرطبي ، وتفسير البغوي ، والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام لأبي القاسم السُّهيلي .... وغيرها.

ـ **كتب السيرة النبوية :** كالشمائل للترمذي وشرحها للمناوي.

ـ **كتب التراجم والطبقات :** كطبقات ابن سعد ، والإصابة لابن حجر العسقلاني ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، وطبقات المناوي .... وغيرها.

ـ **كتب الأدب والمجموعات الشعرية والدواوين :** ككتاب التذكرة للصفدي ، وحلبة الكميت للنواجي ، وريحانة الألبّا للشهاب الخفاجي ، ونفحة الريحانة للمحبّي ، ومقامات السيوطي ، وديوان ابن النبيه ، وديوان المتنبي ، وديوان ابن زيدون ، وديوان عبد القادر الكيلاني.... وغيرها.

ـ **كتب التّصوف :** كتاج العروس لابن عطاء الله السكندري ، والحكم العطائية ، وحلية الأبدال وشجون المشجون لابن عربي ، وعوارف المعارف للسهروردي..... وغيرها.

وهذا يدل على تنوّع مصادر المؤلف ، وعلوّ كعبه في العلم ، وأمانته العلميّة في النقل عن المصادر إذ كان ينص على ما ينقله بصراحة ومن غير مواربة.

٣ـ أسلوب اللّقيمي في رحلته :

لدى قراءتنا **(تهذيب موانح النّفس)** يلفت نظرنا اعتناء المؤلف بأناقة عبارته عناية فائقة ، معتمداً على المحسّنات بأنواعها ، وهذا ينمّ على براعة المؤلف ، فهو أديب وشاعر ينتمي إلى عصر انصرف فيه المؤلفون انصرافاً كاملاً إلى الاعتناء بالصنعة ، وتزيين أدبهم بالمحسّنات البديعية ، ولم يخرج اللّقيمي عن ذوق عصره ، بل حاول أن يجاري أعلامه في نثرهم الفنّي ، فجاءت رحلته قطعة فنّية مزركشة بكلّ ضروب الصنعة والتزويق اللفظي من سجع وجناس وطباق واقتباس وتضمين ، وإن كنا نقف على بعض المواضع في الرّحلة ابتعد فيها عن هذا الأسلوب ، ولاسيما عندما كان ينقل المؤلف من المصادر ترجمةً ، أو وصفاً لمدينةٍ ، أو عرضاً لمسألة من المسائل العلميّة.

وكان السّجع هو السّمة الغالبة على أسلوب اللّقيمي في رحلته ، وهو عنده ضربان : **الأول** يمكن أن نطلق عليه **(السجع المزدوج)** ، إذ كان يأتي بسجعتين على حرف ، ثم ينتقل إلى سجعة أخرى على حرف آخر ، وهلمّ جرّا ، وهذا هيأ له حريّة ومتّسعاً في الكتابة مكّناه من التنويع وعدم الوقوع في تكرار بعض الألفاظ تلبيّة للسّجع في حال التزامه ما لا يلزم ، ومثال هذا النوع من السجع قوله عن مدينة رفح : "... وبه صلّينا الصّبح قبل الإسفار ، وسرنا فوصلنا رفح وسط النهار. وهو أول أرض الشام ، كما ذكره صاحب مثير

الغرام ، وبه بئر يقارب النّيل في عذوبته ، وصلّينا عنده الظّهر وسرنا في ساعته ، فوصلنا إلى الخان ، وكان وقت العصر قد حان..." (١)

أمّا **الضرب الثاني** من السجع فهو أن يأتي ضمن السجعة الكبيرة بعدد من السجعات القصار في جمل متوازنة ، كقوله : " لعمري طالما كنت كثير الوجد والولوع ، لمشاهدة هاتيك الربوع ، ناثراً من الأجفان لآلئ الدموع ، فتنتظم على الخدّين عقيقاً ومرجانا. أتشوّق حنيناً لرؤياها ، وأتشوّف لاجتلاء حُسن محيّاها ، لأتنشّق شذا عبير ريّاها ، عَرفاً يتضمّن روحاً وريحانا"(٢)

فقد أورد المؤلف ثلاث سجعات داخلية قصيرة ضمن السجعة الكبيرة التي اعتمدت حرف النون فاصلةً لها ، واعتنى بصياغة جُمله عناية كبيرة ، ونوّع في فواصل السجعات القصار ، فأكسب النّص موسيقا داخليّة ، يلذّ لها السمع وتطرب لها الأذن.

وهذا الأسلوب من السجع وجدناه عند عدد كبير من الأدباء والرّحالين كالعبدريّ وغيره.

وكان مؤلف الرّحلة يضيّق على نفسه بلزوم ما لا يلزم من الحروف في السجع ، ليتسنّى له تصيّد السجعات ، فأدى ذلك إلى أن تكون كثير من سجعاته من الجناس النّاقص كقوله في المسجد الأقصى : "... خصّه الله تعالى بمظهر الجمال ، كما خصّ مكّة والمدينة بالكمال والجلال ، وقد أُثر ذلك عن أهل الكمال ، مظهراً يفيض عليه السرور طوفاناً ، فمن وفد إليه وافته منح السّعادة ، ونُشرت عليه ألويةُ السّيادة ، وبشّره لسان الحال بالحُسنى وزيادة ، أن قد مُنِح من جناب الرحمن أماناً"(٣)

فاللّقيمي كان أسيراً للسّجع ، يتقصّده ، وينوّع فيه ، مُستعيناً بذخيرة كبيرة من الألفاظ ساعدته على التفوّق والإتقان.

وأكثر المؤلف من الاقتباس من القرآن الكريم ، وتضمين الشعر والأمثال والحكم التي كان ينثرها في كتابه ، فتزيد في ألق عبارته وجمالها.

فمن الاقتباس من القرآن الكريم قوله : "والصّلاة والسّلام على من فضائله لا تُحصى ، ومعجزاته لا تُعدُّ ولا تُستقصى ، المنزل عليه ﴿سبحان من أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ هذا اقتباس مباشر ، ليريه آياته الكبرى برهانا ، هذا اقتباس غير مباشر لقوله تعالى : ﴿لنُريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (٤).

---

(١) تهذيب موانح النفس ٥٨.

(٢) المصدر نفسه ٣٧.

(٣) المصدر نفسه ٣٦.

(٤) تهذيب موانح النفس ١٠٣.

فقد اقتبس اللّقيمي الآية الأولى من سورة الإسراء وأدخلها في كلامه.

وقوله محلّياً شيخه مصطفى البكري الصديقي"... مع لطفٍ بلغ غاية الكمال، وحسن خلق وفضل وإفضال، فـ (والنجم إذا هوى) إنه لجميع المحاسن قد حوى"[١].

وهنا اقتبس المؤلف الآية الأولى أيضاً من سورة النجم لتأكيد فضائل الشيخ بالقسم الوارد فيها.

وقوله يصف فرحته بانضمامه إلى الطريقة الخلوتية الصوفية بالقدس:

"....فتحقّقت النفوس هنالك ببلوغ الأرب، وقد قرّت بذلك العيون، ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾[٢] اقتبس المؤلف الآية **٢٦** من سورة المطفّفين.

ولا يخفى ما أدّاه الاقتباس من القرآن الكريم من ارتقاء بعبارة المؤلف، وأداء لوظيفته في إيضاح المعنى، أو تأكيده.

واستحضر المؤلّف أمثال العرب وحكمهم وأدخلها في عبارته للاستدلال أو التوكيد كقوله في أهل نابلس: "...وأهلها ذوو لطافة وكرم، وفي مكارم الأخلاق أشهر من نار على علم..." [٣].

فقد ضمن المثل العربي "أشهر من نار على علم" للدلالة على شهرة هؤلاء القوم باللطافة وكرم الأخلاق.

وقوله: "....فكان يوماً عليَّ أطول من ظلّ القناة، مما يقاسي المبتلى من شدّة عنائه"[٤].

وهنا اقتبس المثل : "أطول من ظل القناة"[٥] للدلالة على طول ليله من الهم.

ويلجأ اللّقيمي أحياناً إلى تضمين أبيات من الشعر السائر، أو أشطار منها، ليدخلها في نسيج عبارته ببراعة وإتقان حتّى ليظنّ القارئ أنها من أصل عبارة المؤلف كقوله: "....وانشرح الصّدر بالاجتماع وقرّت العين، وشفيت النفس من أليم الجوى، وألقت عصاها واستقرّ بها النّوى"[٦] فقد ضمّن المؤلف صدر بيت مشهور لمعقّر البارقيّ، واستخدمه في مكانه.

---

(١) المصدر نفسه ٢٤٠.

(٢) المصدر نفسه ١٧٦.

(٣) المصدر نفسه ٢٥٦.

(٤) المصدر نفسه ٣٥.

(٥) ورد برواية (أطول من ظل الرمح) في مجمع الأمثال ٤٣٧/١.

(٦) تهذيب موانح النفس ٣٣٩، وهو صدر بيت مشهور عجزه: كما قرّ عيناً بالإياب المسافر (انظر الغاني ١٦٤/١١).

وقوله: "... وأنهار رياضها التي ماؤها غير آسن، لووا إليها من شوقهم عِناناً، والأذن تعشق قبل العين أحياناً"[١] وهنا ضمّن المؤلف عجز بيت لبشار، وهو من الأبيات السوائر.

ويلجأ اللّقيمي إلى استحضار بعض الأعلام التاريخيّة التي لها حضور في الوجدان العربي، كذكر سوق عكاظ الذي كان يجتمع فيه العرب للتجارة والأدب في قوله يذكر قراءته منهاج العابدين للإمام الغزالي: "فشنّفنا الأسماع بدرر ألفاظه، والتقطنا الجواهر من سوق عكاظه"[٢].

فهو يدل من خلال توظيف (سوق عكاظ) على تنّوع الفوائد الموجودة في الكتاب، ونفاستها.

وقوله يذكر إخوان الصّفا، وسحبان وائل، وحسّان بن ثابت، وهم من هم في التاريخ الإسلامي: "وقد ذهبت مع إخوان أُنس وصفا، مذاكراتهم تلين كل صلد وصفا، سحبوا ذيل البلاغة على سحبان، ونثروا درر الفصاحة على مفارق حسّان، صدورهم بيت الحكمة، وقلوبهم أوعية الرّحمة"[٣].

فقد ذكر جماعة إخوان الصّفا وهي مضرب المثل في آرائها، وسحبان وائل مضرب المثل في البلاغة، وحسّان بن ثابت أشهر من يُعرّف، كما ذكر بيت الحكمة ببغداد.وهذا يدلّنا على ثقافة المؤلّف، وإلمامه بالحضارة الإسلامية.

وعموماً فقد كان اللّقيمي أديباً متمكناً من لغة العرب وأدبهم، وكان ابن عصره في عنايته بالصنعة، والتزام المحسنات البديعيّة المختلفة في كتابته، ولاسيما السّجع الذي دلّ من خلاله على إلمام باللغة وتمكّن من ناصيتها، فجاء سجعه طوع بنانه، لم يغرق فيه إغراق غيره، فجاء مقبولاً إلى حدٍّ ما.

مضمون الرحلة:

كان اهتمام اللّقيمي الأساس في رحلته هو زيارة المساجد، والمشاهد، والمقامات، والأضرحة التي ضمّت رُفات الأنبياء والصحابة والتابعين، والأولياء الصّالحين، ولم يُعِر اهتمامه للناحية العمرانية للبلدان التي مرّ بها، ولم يصف أسواقها وأحوالها الاقتصاديّة، وعادات أهلها الاجتماعيّة إلا في مواضع قليلة.

فكان عندما يمرّ ببلد من البلدان يذكر أهم المقامات والمزارات فيها، ويخرج أحياناً إلى ذكر نبذة من تاريخها نقلاً عن بعض المصادر، وقد يذكر بعض من خرج منها من الأعلام النّابهين والعلماء، وربّما ذكر بعض الشعر الذي قيل فيها وفي الثّناء على أهلها أو ذمّهم.

---

[١] المصدر نفسه ٣٣٩، وصدره: يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقةٌ (انظر الأغاني ٣/١٥٩).

[٢] المصدر نفسه ١٨٨.

[٣] المصدر نفسه ٢٤٩.

فعندما ذكر مدينة دمياط عدّد أهمّ المزارات الّتي مرّ بها مستمداً المَدَدَ والعون من أصحابها، فذكر سيدي شطا والقرشة، والبغدادي، والتفاحي، والدائر.... وغيرهم"[١]

ثمّ عرّف دمياط نقلاً عن خُطط المقريزي[٢]، فذكر موقعها، وسبب تسميتها، وبسط الأقوال المختلفة في ذلك، مستعيناً بتفسير البغويّ، و(شرح الأسماء الإدريسيّة) للدمياطي، وتحدث عن تاريخها، ونظّم بعض الشّعر فيها وفي أهلها، مدحاً وتقريظاً، ثمّ ذكر أهم من خرج منها من العلماء كعبد المؤمن الدّمياطي، فترجمه ترجمة وافية، وذكر بعض مروياته، وختم الكلام على هذه المدينة بثناء الشعراء عليها لأنها "ممدوحة للشُعراء، ومشوّقة للأدباء والفصحاء، لطيب معاهدها، وبهجة متنزهاتها ورياضها، وتمايل أشجارها ورونق غياضها، وتأرّج شذا أزهارها، وتعدّد أنواع أسماكها وأطيارها، وناهيك قصبها السّكّري، وحالي موزها العَنْبَريّ..." [٣]

فالمؤلّف يسوّغ اهتمام الشعراء والأدباء بدمياط، وثناءهم عليها بجمال طبيعتها الغنّاء، ووفرة الصّيد في البرّ والبحر، ولذّة طعم قصبها وموزها، لأنها جمعت وفرة الماء، وطيب الهواء، وخصوبة التربة.

ولم يغفل اللّقيمي بعض الجوانب الاقتصاديّة للبلدان التي يذكرها، فمدينة (تنّيس): "كانت أرضاً لم يكن مثلها استواءً وطيب تربة، وكانت جناناً ونخلاً وكرماً وشجراً ومزارع.....وكان الماء منحدراً إليها، لا ينقطع عنها صيفاً ولا شتاءً، يسقون جنانهم وزروعهم إذا شاؤوا"[٤].

أما أهلها فقد كانوا " مياسير، وأكثرهم حاكةٌ، وكان يُصنع فيها ثوبٌ للخليفة يقال له: البدنة، لا يدخل فيها سُدى ولُحمة غير أوقيّتين، وينسج باقيه بالذّهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينار، وكان يُعمل منه ستر الكعبة"[٥].

ومن الجوانب الاجتماعيّة التي التفت إليها مؤلف الرّحلة، وتشي باعتقاده بكرامات المشايخ الذين قابلهم، أو ذكرهم في رحلته، ما ذكره عن كرامات شيخه محمد الخليلي الذي لقيه بالقدس، واختلف إلى مجلسه، وسمع منه فوائد تقرّ بها العين، قال: "ومن كراماته أنّه كلّمه من قبره موسى عليه السّلام، كما هو مستفاض ذلك بين يدي الخاص والعام"[٦].

---

(١) تهذيب موانح النفس ٣٩.

(٢) المصدر نفسه ٣٩ وما بعد.

(٣) المصدر نفسه ٥٠.

(٤) تهذيب موانح النفس ٥٢.

(٥) المصدر نفسه ٥٣.

(٦) المصدر نفسه ٢٠٦.

ومنها ما عدّه من فوائد شيخه السيد المصطفى البكري الصّدّيقي التي أفادها منه بالقدس، وهي أمور يصعب على المرء قبولها أو تصديقها، كقوله: "إن الإنسان إذا خاف عدواً فليأخذ قبضة من تراب، ويجلس ثمّ يقول: ساهوا، باهوا، تاهوا، الملجم، النّحّار، الله، اللّهم يا من ألجمتَ لسان كلّ متكبّر بلسان قدرتك، سلّم سلّم سلّم، ثمّ يرشّه تجاه العدوّ، فإنه يُكفاه"[1].

والأغرب قول المؤلف: "ولقد جرّبت ذلك فوجدته صحيحاً في الاختفاء من الأعداء"[2].

وكأنه يريد أن يقنعنا بأمور غيبية لا تَسلم أمام العقل والتفكير، وعلّة ذلك أن المؤلّف صوفيٌّ، وقد صرّح بأنه انتمى إلى الطريقة الخلوتية الصوفيّة، ودخل الخلوة في بيت شيخه بالقدس"[3].

ولا نعدم في الرّحلة بعض الإشارات إلى الأحوال السياسيّة في تلك الأيام ومن ذلك إشارة المؤلّف إلى عزل سليمان باشا العظم عن ولاية طرابلس من قِبل السلطان العثماني، ووضعه رهن الإقامة الجبرية في قلعة صيدا بسبب سعاية حاسد، يرى المؤلّف أن الوالي بريء منها[4]، ثمّ توثيق العفو الذي منّ به السلطان على الوزير المذكور بقوله: "وفي ضحوة يوم الخميس، خامس عشر ربيع الثاني الأنيس، حضر قبجي باشي من دار الخلافة الكبرى على نُجُب الهنا، برسائل البّشرى لجناب حضرة الوزير المشار إليه، بالعفو عن جنابه، والرّضا عليه، وأن يُكشف عنه حُجُب الترسيم، ويُرفع فوق منصّات الإجلال والتكريم، وتوليته محافظ طرابلس الشام، كحكمه بها في سالف الأيام"[5].

وللرحلة جانب توثيقيّ مهم لبعض الأحداث الاجتماعيّة والسياسيّة، من ذلك إشارة المؤلّف إلى انتشار الطاعون بأرض مصر سنة ١١٤٣هـ، وقت انطلاقه في رحلته، وذكر ذلك عرضاً عندما وصل إلى مدينة العريش، فمنعه أكابر أهلها من دخولها خشية نقل العدوى إلى أهل البلد، فقال: "وقد منعنا أكابر العريش وحُماها، أن نحلّ ذروة حِماها، خوفاً من الطاعون يناديهم، أو يحلّ بساحة ناديهم، لكوني من الدّيار المصرية، وكان الوباءُ بها إذ ذاك...." [6]

ومن ذلك حديثه عن سوء معاملة العسكر في مدينة غزّة للمؤلّف وصحبه، إضافة إلى ما عاناه من لسع البراغيث في خانها، يقول: " فلمّا وصلت لخانها، ساقتني يد التقدير إلى خانها، فنزلت به مصاحباً لبعض

---

(١) المصدر نفسه ٢٠٤.

(٢) تهذيب موانح النفس ٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه ١٧٦.

(٤) المصدر نفسه ٣٢٤.

(٥) المصدر نفسه ٣٢٧.

(٦) المصدر نفسه ٥٧.

الرِّفاق. وأنا مما به من عسكر الدّولة في غاية الإشفاق، فبِتُّ بليلة ملسوع، ودهوة مفجوع، أروي عن السُّها حديث السُّهاد، من وثبات براغيثها، ومخافة تلك الأوغاد"[١] .

فقد تعاور على المؤلّف في غزّة همّان جعلاه لا يذوق طعم النوم الأوّل سوء معاملة عسكر الدولة، والثاني كثرة لسع البراغيث وصوت الناموس الذي حرمه من النوم تلك الليلة.

وثّمة جانب مهمّ أخر في الرّحلة هو الجانب الأدبي، فاللّقيمي أديب شاعر عرضنا نماذج من نثره الفنيّ وبيّنا أهم خصائصه، وهو شاعر متوسط الرّتبة، ولكنّه يتّسم بقريحة مطواعة، إذ غصّت الرحلة بشعره، فلم يترك مكاناً أو مشهداً إلا قال فيه شعراً يعبّر فيه عن مشاعره وأحاسيسه تجاهه مدحاً أو ذماً. وأكثر شعره في الثناء على المشاهد وأصحابها.

من ذلك قوله يتغنّى بمحاسن التكيّة الدرويشيّة بدمشق[٢] :

وتكيّـــةٍ تزهـــو برونـــق زَهرِهـــا ... طـــاب الشّـــذا منهـــا بفـــائح عطرهـــا

نســج الربيــع لهـــا مطـــارفَ سُـندسٍ ... لا تنطـــوي بُسُـــطُ السُّـــرور بِنَشْـــرها

غنّـــت بلابلـــها بِحُســـن لُغاتهـــا ... فتمايلـــت أغصـــانها مـــن سُـــكرها

وافـــى النّســـيمُ يزورهـــا متعطّـــراً ... مستكشـــفاً مـــا في ضـــمائرِ ســـرِّها

وها هو يشتكي من وثوب البراغيث ولَسْعها في إحدى خانات غزّة[٣] :

براغيــثُ هــذا الخــان أسْــهَرْنَ نــاظري ... بِلســعٍ كســقطِ الزَّنــدِ مــا خِلتــهُ يَطفــى

لهــا وثبــاتُ اللّيــثِ مــع ضُــعْفِ جِســمها ... ولكنّهـــا قـــد أورثـــت جُـــثّتي ضَـــعفا

وقــد كــدتُ أهجوهــا بِحُســنِ تَلَطُّــفٍ ... ولكــنَّ جــاء النَّهــيُ عــن ســبِّها كفّــا

يشير إلى ما روي عن نهي النبي عليه السلام عن سبّ البراغيث[٤].

---

(١) المصدر نفسه ٥٩.

(٢) تهذيب موانح النفس ٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه ٦٠.

(٤) الحديث غير صحيح وهو في موسوعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ١٢١/١١ تحت رقم ٢٨١٥.

وشعره يمثّل العصر الذي ينتمي إليه، وهو أقرب إلى النظم منه إلى الشّعر، إذ يكاد يخلو من الصّور والأخيلة، فهو في مجمله وصف لما تراه العين وتسمعه الأذن، وتحسّ به النفس.

كما ضمّت الرّحلة بين دفّتيها كثيراً من النصوص الأدبيّة القيّمة، منها وصف عدد من الأزهار، وذكر خصائصها الطبّية، وما قيل فيها من الأشعار، مستعيناً بمقامات السّيوطي، وكتب الحديث الشريف والتذكرة لداود الأنطاكي، وغيرها من كتب مفردات الأدوية[١].

وأورد اللّقيمي قطعة من "التذكرة"[٢] لخليل بن أيبك الصفدي، وهو كتاب ضخم لايزال مخطوطاً.

وضمّت هذه القطعة رسالة للجاحظ، ورسالة النّيربين للصفدي، ومطارحة شعرية إخوانية بين الصفدي وتقيّ الدين السّبكي، ومطارحة بين الشهاب محمود وعلي بن غانم المقدسي، وقطعة نثرية في المفاخرة بين الأزهار لضياء الدين بن الأثير.

فممّا جاء في رسالة الجاحظ: "رأيت فلاناً ينفض يده منك، وأنت تصادره على وصله، كفى بالإعراض حاجباً، وبالانقباض طارداً، ومن وقف في الإذن لك فقد حجبك، ومن تنكر عن حكاياتك فقد كذّبك، ومن مطلك ولو ساعة فقد حرمك، ومن حظر سرّه عنك فقد اتهمك"[٣]

ولذلك لا يمكننا أن نهمل كتب الرّحل على اختلافها في الدراسات الأدبية، فهي رافد مهمّ من روافد الأدب العربي في مشرق الوطن العربي ومغربه، لأنها تضمّ نصوصاً أدبيّة شعريّة ونثريّة مهمّة قد لا نقف عليها في بقية المصادر.

وممّا تتّسم به الرّحلة ترجمة كثير من الأعلام، إذ كان اللّقيمي عندما يتحدث عن مقام أو مزار أو ضريح كان يترجم صاحبه نقلاً عن المصادر المتاحة بين يديه[٤].

مع أن هذه التراجم ليست ذات بال، لأنها تكرر ما جاء في المصادر، ولكنها توفر على القارئ عناء البحث عن الترجمة في مظانّها، في حين كانت تراجم الشيوخ والأعلام الذين لقيهم في رحلته تكتسب قيمة عالية لأنها ترجمة حيّة من شاهد عيان، أتيحت له معاشرة هؤلاء الأعلام، والاطلاع على كثير من صفاتهم وأخلاقهم، وروى عنهم مشافهة كثيراً من الفوائد التي لها أهميّة عند الباحثين[٥].

وممّا يلفت النظر أن اللّقيمي على إعجابه الشديد بدمشق وغوطتها، وثنائه على أهلها، ومشاهدها

---

(١) ورد الحديث عن الأزهار في تهذيب موانح النفس ٦٥ ــ٨٤.

(٢) شغلت هذه القطعة بين صفحتي ٢٢٩-٣٠٩ من الكتاب.

(٣) تهذيب موانح النفس ٢٩٩ ويظهر أنّه أخذ النص عن مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري ٣٧٠/٧.

(٤) انظر ترجمة عبادة بن الصامت وشدّاد بن أوس ص١١٦، وترجمة سلمان الفارسي ص١٢٠، والإمام الأوزاعي ص٣٢٠، سعد بن عبادة ص٢٨٨ وغيرها.

(٥) انظر ترجمة السيد المصطفى البكري الصديقي ص٢٠٤، والشيخ محمد الخليلي ص٢٠٥، والشيخ أحمد المؤقت ص٢٠٧، والعلّامة أبي بكر العلمي ص٢١١ وغيرهم.

وآثارها، نجده ينصرف إلى زيارة المشاهد والمقابر، ولا يحدّثنا عن لقائه شيخاً واحداً من شيوخها أو علمائها عدا إشارة سريعة إلى حرصه على لقاء الشيخ عبد الغني النابلسي الذي حال موته قبل وصول المؤلّف إلى دمشق دون حصوله[١].

وكان اهتمام اللّقيمي الأكبر بوصف المقابر والمشاهد والمقامات، دون إيلاء العمران والقلاع والأسواق ما تستحقّه، فعندما وصل إلى دمشق ذكر قلعتها ذكراً عابراً، ولم يلتفت إلى عظم القلعة وحصانتها، وروعة بنائها، في حين التفت إلى قبر أبي الدرداء فوصفه ونظم شعراً فيه، وترجمه ترجمة وافية[٢].

وكان لدمشق مكانة أثيرة في نفس المؤلّف تمثّلت في وصفه معالمها ومشاهدها وغوطتها وصفاً رائقاً تجلّى في تزيين عبارته وتزويقها، وتدفّق عواطفه عند الكلام على هذه المدينة، يقول: "وقد كنت خلال تلك الزّيارات، وتفيّؤ ظلال الأنس والمسرّات، أجتلي محاسن دمشق البديعة، وأتحلّى بشهد مشاهدها الرفيعة، فإنها قد توشّحت بوشاح الجمال، وتزيّنت بعقود البهاء والكمال، وناهيك بجوامعها الجوامع، ومدارسها الزاهية اللّوامع، وحمّاماتها الحسنة ورياضها، ومنتزهاتها البهجة وغياضها، وأسواقها الظّريفة الكيان، وعمارتها المشيدة البنيان، وتقسيم مياهها أحسن تقسيم على الأماكن بالضبط والتّسهيم، ودوام الفواكه والثّمار، والمحمّضات والخضراوات والأزهار، وتيسير أسباب التّعيّش والمعاش، وتيسير مسبّبات التّريّش والرّياش، وتنعّماتها الدّانية القطاف، وكم وكم لها في منهج الحسن من أوصاف"[٣].

ففي هذا القول على اختصاره وعمومه، تعبير عن روعة مدينة دمشق منذ أقدم العصور، إذ أجمل المؤلّف محاسن هذه المدينة بعبارات مختصرة ولكنها كافية للدّلالة على روعة بنائها، ووفرة مائها وتوزّعه على أحيائها بالعدل، وكثرة غلالها وتنوّعها ودوامها على مدار العام، وتنعّم أهلها وبحبوحة عيشهم[٤].

كانت هذه وقفة مع اللّقيمي ورحلته من دمياط إلى فلسطين والشام ولبنان، ثم العودة بحراً إلى قبرص ومنها إلى بلده دمياط.

وهذه الرّحلة مفعمة بالفوائد المختلفة، ففيها قطوف دانية من الأدب، وفوائد في التاريخ والجغرافية، وإن كان اهتمام المؤلّف الأكبر كغيره من المتصوّفة هو زيارة القبور والمشاهد والمزارات والتبرّك بأصحابها.

ولكن الغصّة الكبرى هي في سوء تحقيقها وطبعها بهذا الشكل الرديء الذي أساء كثيراً إلى الرّحلة، وعسى أن يتنبّه محقّقها علي الأخطاء التي تمور بها الرّحلة، ويستدركها في طبعة قادمة لتعمّ بها الفائدة، وتتبوأ مكانتها بين كتب الرحل المختلفة.

---

(١) تهذيب موانح النفس ٢٨٢.
(٢) تهذيب موانح النفس ٢٩٥.
(٣) المصدر نفسه ٣١٠.
(٤) أجمع الّرحالون المغاربة والمشارقة منذ القديم على روعة دمشق وغوطتها ووفرة مائها وغلالها، ودوّنوا ذلك في مؤلفاتهم (انظر أدب الرحل في المغرب والأندلس ٢٤/٣٤).

*** المصادر والمراجع ***

١. أدب الرحل في المغرب والأندلس، د. علي إبراهيم الكردي، الهيئة العامة للكتاب، دمشق ٢٠١٤م.
٢. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، بيروت ١٣٥٩هـ.
٣. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢.
٤. الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت ١٩٨٠م.
٥. الإكسير في فكاك الأسير، محمد بن عثمان المكناسي، تح. محمد الفاسي، الرباط ١٩٦٥م.
٦. الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي، عمان ١٩٧٣م.
٧. تاريخ الأدب الجغرافي، أغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمه صلاح الدين هاشم، القاهرة ١٩٦٣م.
٨. تهذيب موانح الأنس برحلتي لوادي القدس، مصطفى أسعد اللّقيمي، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، الهيئة العامة للكتاب، دمشق ٢٠١٢م.
٩. خطط المقريزي، المقريزي، دار صادر، بيروت د.ت.
١٠. ديوان ابن زيدون، تح. علي عبد العظيم، القاهرة ١٩٥٧م.
١١. ديوان المتنبي، تح. مصطفى السقا ورفاقه، القاهرة ١٩٣٦م.
١٢. رحلة العبدري، محمد بن محمد العبدري، تح. علي كردي، دار سعد الدين، دمشق ٢٠٠٥م.
١٣. ريحانة الألبّا، شهاب الدين الخفاجي، وضع حواشيه وفهارسه، أحمد عناية، بيروت ٢٠٠٥م.
١٤. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، محمد خليل المرادي، تح. أكرم العلبي، دار صادر، بيروت ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
١٥. شجون المسجون فنون المفتون، محيي الدين بن عربي، تح. علي كردي، دار سعد الدين، دمشق ٢٠٠١م.
١٦. عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، تح. عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة ١٩٩٨.
١٧. علماء دمشق وأعيانها في القرن الثاني عشر الهجري، محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، بيروت ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٠م.
١٨. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
١٩. مجمع الأمثال، الميداني، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت د.ت.
٢٠. مروج الذهب، ومعادن الجوهر، المسعودي، تح، محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨م.

٢١. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري، تح مجموعة من المحققين، المجمع الثقافي، أبو ظبي ١٤٢٣هـ.

٢٢. معجم البلدان، ياقوت الحموي، بيروت د.ت.

٢٣. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، بيروت ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

٢٤. موانح الأنس برحلتي لوادي القدس، مصطفى أسعد اللّقيمي، مخطوط مكتبة الأسد رقم ٥٢٤٨.

٢٥. موسوعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، تأليف علي حسن علي الحلبي ود. إبراهيم طه القيسي ود. حمدي محمد مراد، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٦. نفحة الريحانة، محمد أمين المحبي، تح.عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٧م.

❑❑